# مَيّ

## أديبة الشرق والعروبة

محمد عبد الغني حسن

عالم الكتب

محمد عبد الغني حسن

# مي

## أديبة الشرق والعروبة

الناشر
عالم الكتب
٣٨ شارع عبد الخالق ثروت - ت ٥١٤٠١
القاهرة

دار الثقافة العربية للطباعة
شارع قولة الرسالة - عابدين

# هذا الكتاب

أصدرت قبل هذا الكتاب كتاباً عن مى فى شطرين : كان فى أحدهما مجموعة من الأحاديث أدرتها يومذاك مع طائفة من بقايا الكرام من أساتذة مى، وأصدقائها، ورواد ندوتها الأدبية الرفيعة ، منذ أن تولت « مى » إنشاء تلك الندوة ، من أمثال المرحومين : مصطفى عبد الرازق، وعباس محمود العقاد ، وهدى شعراوى ، وأنطون الجميل، والدكتور منصور فهمى ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، والشاعر خليل مطران رحمهم الله، والدكتور طه حسين بارك الله فى عمره .

وقد أديرت هذه الأحاديث عقب وفاة «مى» لتنشر فى مجلة المقتطف رحم الله أيامها، ونضر عهدها ! وانتدبنى لهذه المهمة صديقى فؤاد صروف رئيس تحرير المقتطف يومذاك ، ونائب مدير الجامعة الأمريكية ببيروت اليوم . ومهد صديقى اللبق لهذه المهمة الأدبية بكلمة فى مقتطف ديسمبر سنة ١٩٤١ جاء فيها : ( . . وقد تفضل جماعة من أكابر أهل الرأى ، وأفاضل أهل العلم والأدب ، وأعلام الثقافة، ممن ربطتهم «بمى» أواصر ، وجمعتهم علائق ، فأجابوا داعى المقتطف للحديث عنها مع الأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، الذى تفضل بالنيابة عنه فى هذه الأحاديث .. ) .

وقد أغرتنى هذه الأحاديث أن أنهض بشطر آخر يكون بحثاً عن « مى » ودراسة لأدبها وروحها الشرقية ، وحفاظها على العربية ، وقوتها الخطابية التى كانت تختلب بها عقول السامعين وعواطفهم . ومشاركتها لنهضة المرأة العربية حتى لا تتخلف عن المرأة الأوروبية ، وندوتها الأدبية — أو صالونها — الذى كان ملتقى لرجال العلم والأدب والفن ، كما يتناول نواحى من مى الكاتبة ، ومى الشاعرة ، ومى الموسيقية المرهفة الأذن ، الرقيقة الحس ، البارعة الأصابع ، ومى حين تتهكم ، ومى حين تبدع فى الأسلوب ، وتتسع نظرتها للأديان ، أصل الخير ، ومنبع الرحمة والبر ، وحين تتسامى بفكرتها الإنسانية إلى العالمية التى تحتقر كل تعصب ، وتنبذ كل تحزب .

وأنجزت البحث وأوجزته ، فكان منه ومن أحاديث الأدباء الذين عرفوا مياً كتاب « حياة مى » الذى ظهر فى أوائل سنة ١٩٤٢ ، فلقى من تقدير القراء والأدباء ما كان وراء التقدير ، كما لقى من كريم الملاحظ والتوجيهات ما وطدت العزم على أن أخرج معه هذا الكتاب الجديد الذى زدت فيه كثيراً من الفصول عن مى فى محنتها قبل وفاتها ، حين غالبتها الوساوس ، وهاجمتها الهواجس . فكانت نزيلة المصحات النفسية والعقلية ، التماساً للخروج من وحشتها وكآبتها ، وعزلتها ، وصمتها الذى ما تعودته ، وكانت الفصيحة البيان ، الطليقة اللسان ، حتى أنكرها أمين الريحانى وهو يزورها رغماً منها فى مستشفى بلبنان ولم يملك أن يحبس الدموع من عينيه ، حين شاهد ما صارت إليه . وكان من الفصول الجديدة فى هذا الكتاب الجديد فصول عن « مى » بنت

الطبيعة التى وجدت فيها عزاء نفسها، و« مى » بين الأحزان والأفراح ، حين التقت طفولتها الحزينة بنهايتها الحزينة الأليمة ، و«مى» بين صفحات الكتب ، حين جعلت من الكتاب معلمها وصديقها وهاديها على ضلال الطريق ووعثاء المسير . . و « مى » حين غيرت اسم ميلادها من « مارى » إلى « مى »،و « مى » فى مراثى الشعراء حين بكوا مزاياها التى دفنت فى التراب .

ورأيت أن كتاباً عن «مى» لا يتم إلا بنشر نماذج من أدبها وكتاباتها وخطبها ورسائلها ، فألحقت بالكتاب قسما يضم طائفة غير يسيرة من ذلك ، حتى تكون الدراسة بجانب النص ، أو النص بجانب الدراسة أدل على المراد ، وأوفى بالغرض ، وأدنى إلى التحديد ، وأبعد من التجريد .

ولقد سرنى — شهد الله — أن عالما جليلا وأستاذاً كبيراً مثل الدكتور منصور فهمى قد نوه بكتابى « حياة مى » وأشار إليه مرات ومرات ، وأخذ منه ونقل عنه فى كتابه « محاضرات عن مى زيادة » الذى نشره معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية سنة ١٩٥٥ ، ولم يأخذ منه نصاً أو إشارة إلا أشار إلى ذلك فى موضعه ، فكان مثال الأستاذ العالم الأمين الذى يتحرج أن ينسب إلى نفسه ما ليس له ، وكان — رحمه الله — نموذجا للروح العلمية المتواضعة التى لا تتعالى على قواعد النقل ، ولا على آداب البحث .

وبعد : فأن هذا الكتاب الجديد عن « مى » هو جديد فعلا ،

بما أضفت إليه من زيادات كثيرة ومراجعات كثيرة ، وبما وسعت فيه من أبواب جديدة استجابة لرأى ناقد ، وتوجيه موجه ، حتى لقد خرج بهذا عن أن يكون طبعة معادة .

وإنى لسعيد أن أقدم فى هذا الكتاب الآنسة « مى » أديبة الشرق والعروبة بعد اثنين وعشرين عاماً من وفاتها استحدثت فيها أمور ، وتغيرت معالم ، وتحقق فيها بعض ما كانت تمنى به نفسها من أحلام للنهضة النسوية والمرأة العربية التى يسرنى أن أهدى إليها هذا الكتاب .

محمد عبد الغنى حسن

# دراسات وملامح



# صورة خاطفة

ولدت الآنسة مى زيادة قبل مطلع القرن العشرين ببضع سنوات فى الناصرة من أعمال فلسطين — وهى البلدة التى عاش فيها السيد المسيح — من أبوين يختلفان فى المذهب المسيحى . فالأب مارونى والأم أرثوذكسية . ومن هنا لم يكن عندها — كما تحدثت هى عن نفسها — تعصب لأحد المذهبين .

ولما انتقلت الأسرة إلى قضاء كسروان من أعمال لبنان دخلت الفتاة مارى زيادة مدرسة للراهبات الأجنبيات بعين طورة . وتعلمت هناك قليلا من العربية وكثيراً من الفرنسية ، واشتهرت بين الطالبات بحسن الإلقاء والبراعة فى الإنشاء ، وكانت تقوم بالأدوار الأولى فى الروايات التى تخرجها جماعة التمثيل بالمدرسة .

ولما أتمت دراستها ابتدأ اسمها يظهر فى لبنان خطيبة ناشئة ، وخاصة فى حفلة الكوخ الأخضر التى أقيمت لتكريم الفتاة اللبنانية ممثلة فى (مى) فى ضهور الشوير بلبنان سنة ١٩١١ .

وكانت خطبتها فى (الكوخ الأخضر) مقدمة لمواقفها الخطابية المشهورة بعد ذلك . وانتقل أبوها المرحوم إلياس زيادة إلى مصر ، وتولى إصدار جريدة « المحروسة » فانصرفت مى عن الكتابة بالفرنسية — وخاصة بعد ظهور ديوانها الفرنسى زهرات حلم — إلى الكتابة بالعربية ، وكانت مقالاتها تظهر فى « المحروسة » وفى مجلة الزهور التى كان يصدرها وقتئذ أنطون الجميل .

ولم تشغل الكتابة ميأ عن الدرس والتحصيل ، فكانت تحضر المحاضرات فى الجامعة المصرية القديمة لتكمل ثقافتها وتوسع أفق معارفها وخاصة فيما يتعلق بالتاريخ الإسلامى والفلسفة .

وأحبت الآنسة مى الشرق والعربية حباً جماً على الرغم من ثقافتها الأوربية الواسعة ، وغيرت اسمها (مارى) إلى (مى)، وهو اسم عربى صميم .

وكانت مى فتاة برزة تحدث الرجال وتستقبلهم فى نديها الأدبى الذى اتخذته فى منزلها ، وكان يقصده الكبراء والعلماء والأدباء والشعراء . وللمرحومين الدكتور شبلى شميل والدكتور يعقوب صروف وإسماعيل «باشا» صبرى وولى الدين يكن جلسات حافلات فى ذلك الندى .

ولما مات أبواها على الولاء متعاقبين استسلمت إلى الهموم، ووجدت فى العزلة القاتلة سلوة لها ، وغالبتها ألوان من الوساوس ، فقطعت ما بينها وبين أصدقائها من صلات، وأصبحت لا تطيق لقاء أحد، وعادت إلى مصر — بعد أن كانت قد حملت إلى لبنان — وقد شيبتها الهموم ، وبدت تجاعيد الوهن والألم فى وجهها الوسيم . وغابت مى كالشمس ولكن أشعتها باقية الأنوار .

# ملامح من صورة ..

اثنان وعشرون عاماً مرت على وفاة الكاتبة العربية «مى»، ولا شك أن ناشئة العام الذى ماتت فيه مى سنة ١٩٤١ لا يعرفون عن صورة مى شيئاً . فقد كانت احتجبت قبل ذلك عن المجامع والمحافل والندوات العامة ، ولجأت إلى محبسها الذى اختارته هى بنفسها لنفسها .

ومازلنا نحن الكهول الذين عاصرنا مياً فى أوجها نذكر مواقفها الخطابية فى شتى المناسبات، ونذكر تهافتنا وحرصنا على أن نشهد مياً فى كل حفل ، وأن نستمع إلى صوتها وهى تلقى ، فلا تتهيب ولا تتلعثم ، ولكنها تنساب كالجدول المنساب ، فتخلب منا الألباب .

وقد لا تغنى صورة شمسية — أو فوتوغرافية — للتعريف بمى وتصوير ملامحها ، فلنلجأ فى تقديم صورة أديبتنا العربية الكبيرة إلى الصور البيانية الدقيقة التى صورها بها أصحابها، أو صورت هى بها نفسها لمن حاولوا أن يتبينوا شيئاً من ملامحها الشخصية .

وأول مايحضرنا من ذلك تصويرها لنفسها بقلمها الرشيق فى رسالة بعثت بها إلى السيدة (جوليا طعمة دمشقية) تقول فيها : « أصحيح أنك لم تهتدى بعد إلى صورتى فيها كيها : استحضرى فتاة سمراء كالبن أو كالتمر الهندى ، كما يقول الشعراء ، أو كالمسك كما يقول متيم العامرية ، وضعى عليها طابعاً سديمياً — فليسمح لى البلاغيون بهذا التعبير المتناقض — من وجد وشوق وذهول وجوع فكرى لا يكتفى ، وعطش روحى لا يرتوى . يرافق أولئك جميعاً استعداد كبير للطرب والسرور ،

واستعداد أكبر للشجن والألم — وهذا هو الغالب دوماً — وأطلق على هذا المجموع اسم مى ترى من يساجلك الساعة قلبها » .

ويصفها الشاعر الرقيق المرحوم ولى الدين يكن فى رسالة بعث بها إليها سنة ١٩١٢ يقترح عليها جمع «سوانحها» فى كتاب، فيقول: «يا بيت القصيد فى بدائع القدرة ! . لا أدرى ما أصف ؟! مجلسك الطيب ، أم صوتك الرخيم ، أم كلامك العذب ..؟ ».

والحق أن مياً لم تكن جميلة بل كانت وسيمة جذابة، ولقد رأيناها متشحة بالسواد فى حفل تأبين الدكتور يعقوب صروف الذى أقيم بدار الأوبرا سنة ١٩٢٨ فكانت المضادة القريبة أو البعيدة بين ثوبها ولون بشرتها والتماع عينيها شيئاً يفتن الأنظار. وتشير المرحومة هدى شعراوى إلى الجمال عند مى فتقول : ( ولم تكن مى على وسامتها ووضاحة وجهها جميلة بالمعنى الصحيح للجمال ، ولكن نفسها كانت أجمل من وجهها ، وروحها أجمل من صورتها ، فكانت بين الجميلات لا تبدو أقل منهن فتنة ، ولا أضأل نصيباً من الجاذبية ، لقد كان يجمل مياً بين الجميلات ويزينها بينهن شىء خفى ، وسر مستبهم ، لعله هو الذى حير الشاعر فقال :

شىء به فتن الورى غير الذى　　　يدعى الجمال ولست أدرى ما هو

وليس فى الأمر عندى سر مستغلق ، ولا خفى مبهم ، فسر جمال مى كان فى روحها، والجمال المعنوى الروحى هو ضرب من الجمال يسمو على كل جمال ) .

وهذا السر الذى يجذب الناظر والسامع إلى مى عبرت عنه صديقتها

«أبى خير» بقولها : (كانت كل حاسة من حواسها، أو جارحة من جوارحها تنم على ذلك الذكاء . فعيناها اللامعتان، وتعبيرها الحار، ولطف إشارتها، وحسن حديثها ، كل أولئك نم على ذكائها كما ينم ريح المسك على المسك. تستطيع أن تؤثر فيك بكلامها، وتنقلك إلى صفها ولو كنت من الملحفين فى الخصومة ، الممعنين فى المجادلة والمعارضة . وكان فيها إلى جانب علمها وفنها جوانب كثيرة وحواش رقيقة من اللطف والدعة ، واللين والرقة، فكانت تحترم أمها وأباها ، وتقف أمامهما كما يقف الطفل فى حضرة والديه .)

وهذه الجاذبية فى شخصية مى قد تأثر بها الرجال والنساء على حد سواء، كما تأثر كل من رآها بالذكاء البادى على ملامح وجهها . ولم يفت فيلسوف الفريكة أمين الريحانى أن يشير إلى هذا الذكاء والجاذبية فى مى حين وصفها — أو صورها — فى لبنان سنة ١٩١١ بالأنوثة الجذابة والذكاء والذوق والاتزان .

وقد صور الشعراء ملامح من مى ، كل على وفق ما أوحت به إليه صورتها ، فالعقاد يرى جمالها قدسياً سليما من العيب ، وذكاءها ألمعياً كالشهاب ، ويرى صفاتها رضية عذبة ، فيصورها فى تأبينه لها بقوله :

شيم غر رضيات عذاب      وحجى ينفذ بالرأى الصواب
وذكاء ألمعى كالشهاب      وجمال قدسى لا يعاب

كل هذا فى التراب ؟ آه من هذا التراب . .

والشاعر المهجرى الكبير شفيق معلوف يصورها بقوله :

بنت الجبال ، ربيبة الهرم — هيهات يجهل إسمها حى

لم نلف سحراً سال من قلم — إلا هتفنا : هذه مى

والشاعر اللبنانى الكبير شبلى الملاط يصورها فى البيتين التاليين قائلا :

كأن الله من سحر ودر — أتاح لمى لاحظة وفاها

وشاور أمها لما براها — وشاور حين كونها أباها

على أن الصورة الدقيقة الأمينة التى صورها بها المرحوم الدكتور منصور فهمى فى محاضراته عنها بمعهد الدراسات العربية سنة ١٩٥٤ تستحق أن تدون فى هذا المقام : « . . . فهى فتاة ربعة بضة ، ووجهها الصبوح أقرب إلى الاستدارة . وبشرتها بيضاء من غير سوء ، وتقاسيمها مليحة مشرقة ، وعيناها دعجاوان واسعتان سبلاوان ، يشع فيهما بريق الذكاء ، ويعلوهما حاجبان يمتد كلاهما عريضا أسود من أول العين إلى آخرها فى تقوس منسجم ، دون أن يقتربا أو يتقاربا من أعلى أنف أزلف جميل . وفمها يزدان بشفتين رقيقتين قرمزيتين لا يمتدان فى خديها الريانين إلا بما يتجاوز قليلا نهاية الأنف . وهى ذات جيد ملء لا يعيبه قصر ، وقد يزينه عقد قانى الحمرة إن لبست ثيابا قاتمة اللون ، وأسنانها بيضاء فيها فلج ، وفى الغالب لا تفارق الابتسامة محياها . وشعرها أسود فاحم لامع ، وقد تقترن أحاديثها بحركات ناعمة متواصلة عند رأسها وجيدها ، فتبدو هـــذه الحركات الخفيفة كأنها نبرات من الضحك الهادىء ينسجم مع البسمات المتواصلة الرشيقة ، تزيدها ظرفا ، وتكسبها لعوبية وسحرا » .

## من ماري الى مي

ماري هو الاسم الذى تعمدت به الآنسة مى يوم أن ولدت فى بلدة الناصرة من أعمال فلسطين . ولم يكن أحد يدرى حينذاك منذ أن استقبلت مارى أول نسمات الحياة أن هذا الاسم الذى التقت فيه أمومة المسيح عليه السلام سيتغير إلى اسم آخر يشترك معه فى أول حروفه — وهو حرف الميم — ويفترق عنه فى نواح كثيرة ... أحدها أن « مارى » أفرنجى النغمة ، غريب على الأذن العربية ، على حين أن اسم « مى » عربى أصيل ، يضرب فى أعراق العروبة إلى حد بعيد .

أليس عندنا فى الأدب العربى القديم فتاة اسمها «مى» وأبوها «طلبة ابن قيس» ، وكانت من أجمل نساء زمانها ، وأظرفهن ، حتى لقد استهوت الشاعر الكبير « ذا الرمة » فظل يهيم بحبها ، ويشبب بها أكثر من عشرين عاما ؟

إن « مى » اسم خفيف لطيف على السمع ، وهو فى رشاقة نطقه ، وخفة لفظه ، وقلة حروفه يعيد إلى الأذن العربية ذكرى غرام عنيف شهدته البادية العربية منذ أكثر من اثنى عشر قرنا .

إن اسم « مى » فى أحرفه الثلاثة الخفيفة — حتى على الرغم من الياء المشددة المضعفة — يذكرنا بتلك الأسماء الثلاثية لفتيات عربيات كن دائما موضع الوله والتدله والاهتمام من شعراء الهيام . وما أسماء نعم ، وهند ، وعز ، ودعد ، وفوز ، وبثن بغريبة علينا ، وما بغريب علينا ما قيل فيها من أشعار دارت على سمع الزمان .

ألم يقل الشاعر عمر بن أبى ربيعة فى حبيبته « نعم » :

تهيم إلى نعم ، فلا الشمل جامع
ولا الحبل موصول ، ولا القلب مقصر

ولا قرب نعم إن دنت لك نافع
ولا نأيها يسلى ، ولا أنت تصبر ؟

ثم ألم يقل لنا الشاعر الآخر :

ليت هندا أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

ثم ألم يرد اسم الفتاة « عز » — وهو تخفيف لعزة — فى أجمل بيت يسوغ به الشاعر تغير قلوب المحبين فى قوله :

وقد زعمت أنى تغيرت بعدها ومن ذا الذى يا عز لا يتغير ؟

ثم ألم نسمع باسم « فوز » فى أرق بيتين قالهما شاعر فى تليين قلب محبوبته القاسية :

يا فوز يامنية عباس قلبى يفدى قلبك القاسى
أسأت إذ أحسنت ظنى بكم والحزم سوء الظن بالناس !

فهذه الأسماء الثلاثية للفتيات ، فيها من خفة الوقع على الأذن ، وخفة النطق على اللسان ، وخفة الوزن فى الشعر ما يغرى بأن تختار الفتاة لنفسها واحدا منها حين يكون لها بعد مولدها و بعد تسميتها حق الخيار .

وكذلك تغير اسم « مارى » زيادة إلى « مى » ، ونسى اسم التعميد القديم ، وأصبح اسم « مى » هو الاسم الذى تخاطب به أديبتنا النابغة

فى الحديث ، وتكاتب به فى الرسائل، وتوقع به فى المقالات ، وتعرف به فى المحافل والندوات .

ولكن التغيير من مارى إلى مى لم يكن طفرة ، ولم يكن أول تغيير ولا انتقال . فقد سبق للآنسة مى أنها اختارت لنفسها اسما ووضعته على أول كتاب أصدرته بالفرنسية وهو كتاب « أزاهير حلم » ، أما الاسم الذى اختارته لتضعه على هذا الكتاب الفرنسى اللغة فهو « إيزيس كوبيا » .

ولا ندرى — على جهة اليقين — الباعث لمى على أن تخفى اسمها الحقيق على أول كتاب تنشره ؟ فقد يكون ذلك عائدا إلى فقدان الثقة بالنفس خشية أن يصاب ذلك العمل الأدبى بالإخفاق ، فتسلم حينئذ من معرة الانهزام ، ولوم اللوام .

وقد يكون ذلك عائدا إلى عامل نفسى بإثارة فضول الناس وأسئلتهم حول هذا الاسم الغريب : من تكون صاحبته ؟ حتى تخلق بذلك حولها جوا من الاهتمام ، وإثارة السؤال والجواب ، عن طريق الشك والارتياب .

وقد يكون ذلك عائداً إلى عنصر المواءمة بين اللغة المؤلف بها الكتاب، أو بين اسم مؤلفته . فإن الناس فى ذلك الحين — وأعنى سنة ١٩١١ على التحديد — لم يكونوا قد ألفوا بعد أن تؤلف فتاة عربية باللغة الفرنسية، فقد كان ذلك مطلبا بعيد المنال فى تلك الأيام ، وخشيت الفتاة الناشئة الطموح أن يقول الناس عنها — إذا كتبت اسمها الصريح — ما لهذه

الفتاة المتحذلقة واللغة الفرنسية : لغة جورج صاند فى دنيا النساء ، وأناتول فرانس فى دنيا الرجال ؟

وقد يكون الباعث خليطاً من ذلك كله ومن غيره من الأسباب ، التى قد تستنبط فى مثل هذا الباب .

ولكن اليقين أنها قالت عن ذلك الاسم وذلك الكتاب هذه الكلمات : « فى مشاهد لبنان الجميلة ، حيث الجنات المزدانة بمحاسن الطبيعة الضاحكة ، والجبال المشرفة بجلالها على البحر المنبسط عند قدم هاتيك الآكام الوادعة، كنت أسرح الطرف بين عشية وضحاها وأنا طفلة صغيرة بمدرسة عينطورة ، فكانت توحى إلى نفسى معانى الجمال ، فتفيض بها شعرا أسطره فى أوقات الفراغ وأثناء الدروس التى كنت أشغل عنها بنظم الشعر وتدوينه ، حتى اجتمع لى منه مجموعة باللغة الفرنسية ، سميتها « أزاهير حلم » ونشرتها بإمضاء إيزيس كوبيا سنة ١٩١١ ، بعد أن نزلت مصر مع والدى ، وكانت هذه المجموعة أول كتاب صدر لى فى عالم التأليف » .

فارى ، وإيزيس كوبيا ، ومى ، هى أسماء ثلاثة لمسمى واحد ، وهى ألقاب متعددة لشخص واحد ، هو تلك الفتاة الحائرة القلقة ، التى لم يسلم من حيرتها حتى اسمها ، فتغير معها كما تغيرت بها الأحوال والأزمان . وقد عبرت هى عن ذلك فى أول رسالة بعثت بها إلى جبران خليل جبران على أثر مطالعتها لكتبه ومقالاته ، وإعجابها — على البدء — بأفكاره وخطراته ، فقد كانت فى سنة ١٩١١ — وسنة ١٩١٢ ترد إليها من العالم الجديد كتب جبران فتقرؤها ، وترى فيها لونا جديداً من التأليف

العربى لم تألفه البلاد يومذاك، فكتبت إليه تستوضحه شخصيته، وتطلب معرفته، وتخطب مودته، وتعرفه بنفسها قائلة : (أمضى مى بالعربية، وهو اختصار اسمى، ومكون من الحرفين الأول والأخير من اسمى الحقيق الذى هو مارى، وأمضى «إيزيس كوبيا» بالفرنجية غير أن لا هـذا اسمى ولا ذاك . إنى وحيدة والدى وإن تعددت ألقابى) .

ولم يكن اختيارها لاسم إيزيس كوبيا عفو الخاطر ، وإنما كان فيه دلالة القصد فى الاختيار ، ومراعاة الاعتبار . فإيزيس — كما فى التاريخ المصرى القديم — هى زوجة أوزوريس وهى أشبه فى علاقتها بالإله بالسيدة مريم العذراء . . وكوبيا هى بالفرنسية Copieux والإنجليزية Copious وأصلهما اللاتينى يحمل معنى الغزارة ، والنماء ، والزيادة ، فكأنها ترجمة لاسم جدها (زيادة) باللغة اللاتينية .

وقد كانت ( مى ) على نية أن تمضى فى بقاء اسم (إيزيس كوبيا) منطلقاً عليها، وكانت على عزم أن توقع به مقالاتها ، وتضعه على كتبها، لولا أن حادثة صغيرة كان لها أكبر الفضل فى انسلاخها من هذا الاسم الأفرنجى، واستيقاظها على صوت العروبة يهتف بها قائلا : يا مارى ! إنك عربية الأبوين ، عربيـة اللسان ، فلماذا تلجئين إلى الفرنجيـة تستعيرين منهـا اسماً لك ، تلطخين به جمال العروبة فى وجهك ، وجلال العرب فى نسبك ؟ ولماذا لا تعودين إلى عروبتك بدلا من هذا الضلال والالتحاق بغير الآباء والأجداد ؟

وكانت الحادثة أنها شهدت فى سنة ١٩١١ — أيضا — محاضرة تلقيها السيدة لبيبة هاشم فى الجامعة المصرية القديمة عن حرية المرأة ،

وكانت الكثرة من الأوانس والسيدات المستمعات لاهيات عن حسن الاستماع بالثرثرة فى همس ، ومنشغلات عن الإصغاء بالنكت والمزاح.. وثارت الآنسة الطموح لما رأته من تفاهة هؤلاء الممثلات للمرأة العربية، فذهبت إلى بيتها وكتبت مقالا تنحى فيه باللوم على المرأة العربية ،وتتهمها بالتأخر عن الركب الحضارى ، وتصفها بتفاهة الشأن ، والحق أنها كانت تقصد ذلك الصنف التافه من النساء اللاتى شهدن محاضرة فى الجامعة بفكرة المزاح لا الجد . ثم ما كادت تهم بالتوقيع على المقال باسمها الذى اختارته : إيزيس كوبيا ، حتى استحيت أن تنتقد بعض فتيات العرب وهى تتمسح باسم أجنبى ، فإن ذلك يتنافى مع صدق دعوتها ، وإخلاص حملتها ، ولجأت إلى أمها تستعين بها فى اختيار اسم عربى لها فكان ذلك الاسم الجديد ( مى ) الذى صادفهما التوفيق فى اختياره ، وخاصة أنه يأخذ من اسم مارى أول حروفه وآخرها ويجمعهما فى وزن خفيف جميل . .

وكان أول مقال لها فى هذه المناسبة هو القطر الذى يكون أول الغيث ، فقد توالت بعده المقالات والخطرات باللغة العربية ، وبتوقيع ( مى ) .

ولم تكن خفة اسم ( مى ) ولا رشاقته هى أول الاعتبارات التى أدخلتها الكاتبة فى حسابها للتخلص من اسميها القديمين ، فهناك اعتبار العودة إلى المبدأ ،والارتداد إلى الجنس،والاعتزاز بالأصل،وهو اعتبار لا نشك فى تقدير مى له لما بدا من نزعتها العربية ، ومن روحها التواقة إلى أمجاد العرب .

وهناك اعتبار نفسى آخر له أهميته ، فقد كانت مى معتزمة أن تدخل ميدان النهضة النسائية، موجهة ومرشدة وهادية لبنات جنسها ، ورأت أن اسمها الفرنجى قد يكون بلا شك نغمة منفرة فى آذان المستمعين إليها والمستمعات ، وهنا تضيع صيحاتها الفكرية فى الهواء ، وأدركت أن صدور التوجيه عن اسم عربى يكون أبلغ أثرا،وأشد تأثيراً، وأقوى مفعولا ، وأنفذ إلى القلوب والعقول .

كما أدركت من ناحية أخرى أن مخاطبة بنات جنسها بلغة غير العربية تكون صرخة فى واد ، ونفخة فى رماد . ومن هنا تركت الكتابة بالفرنسية ، واتجهت بكلياتها وجزئياتها ، وبعقلها ووجدانها إلى اللغة العربية تجد منها مادة للتفاهم بينها وبين قومها العرب ، حتى يكون الكلام مسموعاً ، والنصح مطاعاً . . .

وهكذا انتقلت « مارى زيادة » من حال إلى حال .

# ميّ بنت الطبيعة

ليس من مبالغة فى القول إذا قلنا إن (مى) هى بنت الطبيعة الوفية ، وعاشقتها المخلصة . وقد سرى حب الطبيعة فى نفسها مسرى الدم فى العروق ، فهى تجد أنساً كبيراً حين ترى جبلا أشم ، أو وادياً عميقاً ، أو مرجا فسيحا ، أو غابة مشتبكة الشجر ، أوصحراء ممتدة الكثبان ، أو نهراً جاريا ، أو بحراً مضطربا . وهى تجد فى نفسها راحة إذا نشقت عبير زهرة ، أو أريج روضة ، أو سمعت غناء طائر ، أوسقسقة عصفور ، أو حتى صرير جندب ، أوطنين نحلة . إنها تطرب لكل ماتقع عليه عيناها من مجالى الطبيعة ، وما تسمعه أذناها .

وهى حين تنفر من صوت الإنسان ، وتأنس إلى صوت الطبيعة فى حفيف أوراق الشجر ، وإلى صوت الحيوان فى الغابة تذكرنا بالشاعر العربى القائل :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى
وصوت إنسان فكدت أطير

وقصيدتها الفرنسية ( دعونى ) من ديوانها (أزاهير حلم) تؤكد لنا هذا الذى نقول ، فهى تقول فيها :

دعونى فى هذا الملجأ الساحر . دعونى وحيدة أحيا مطمئنة
بعيدة عن ضوضاء المدن
دعوا لأنظارى تلك الرؤى العذبة

دعوا لأفكارى أحلامها الرخية
دعونى أنعم بالرقاد
دعونى أياماً فإنى لا أودأن أسمع
إلا الحفيف الخفيف الموسيقى الحنون
الذى تتنفس به هذه الجبال
ألا أبعدوا عنى — ولو حيناً — أصوات البشر
التى تبطن الحسد والحقد والغل
هنا يطيب لنا الحب

* * *

أجل: يطيب لنا الحب بين الأشجار المنعزلة
والخرائب البائدة ، وماحملت من أخبارالزمان
وهذه الصخرة الكئيبة
كل ما فى هذه الربوع يجذبنى ويسحرنى
الأوراق التى أحسها تنبض ، والعصافير التى تغرد
كلما رأتنى أدنو

* * *

وما أكثر ما كانت مى تتفلت من المدينة الصاخبة ومن ضوضائها لتنعم فى الريف أو فى الجبال ، أو على سطح البحر بالصفاء الذى يلائم طبيعتها الصافية . وما أكثر ما كان فرحها وهى تستعد يوما للسفر إلى جبل لبنان لقضاء عطلة الصيف بين قممـــه وسفوحه فرارا من زحام المدينة ودخان مداخنها . وتقول فى ذلك من قصيدة لها بعنوان « السفر إلى لبنان » :

« الجو الصافى تعكره مداخن مدينة بولاق بأنفاسها القاتمة التى يحملها الهواء مع أصداء الأجراس العذبة الرنين .

إننا قاصدون لبنان ، فهلم إليه . وانتظرت السفر بفارغ الصبر طوال أسابيع .

إن قلبى ليذوب حنينا إلى المياه ، أو إلى الجبال ..

بل إن قلبى فارقنى وأخاله أحيانا أفلت من صدرى وسبقنى إلى اليم الفسيح ليتلاشى بين أمواجه المضطربة الهوج .. كهذه العوالم التى نراها عن بعد تنحدر إلى ظلمات الليل الأثيرية .

ما ضر قلبى ، وما ضر الليل ، كل منهما شاسع عميق ، يكتنفه الغموض ويتأجج نارا ..». وفى خلال رحلتها إلى لبنان - ذات صيف - لم تترك مشهدا طبيعيا إلا وصفته ووصفت أثره فى نفسها . « فالبحر رائع صاف كالمرآة لايشوبه إلا غضون قليلة. تطلعت إلى الشاطىء فرأيته أخضر جميلا » . «والجبال التى تحيط بنا ، والأشجار التى تفيئنا ظلالها الوارفة ، والمياه المترنمة عند أقدامنا ، والعصافير المزقزقة الطروب ، كل منها يترك فى نفوسنا أثرا بليغا خاصا لا يقوى على محوه الزمان » . وحينما بلغت بها السفينة «حيفا» التى اقتطعها اللصوص اليوم من قلب فلسطين الغالية كان الوقت فجرا ، وكانت عينها ساهرة تصور هذا المشهد الرائع قائلة : « بدا الفجر وبدا معه خط جبال الكرمل منتصبا فى السحاب ، ملتفحا بالنور . أما حيفا فكانت لا تزال هاجعة عند سفح الكرمل يسود شوارعها الملتوية سكون رهيب ، وعلى شواطئها لا يسمع إلا ترقرق المياه تردد الترانيم ولا تهادن » ..

فإذا ما بلغت السفينة بيروت ، وبدا الجبل الأشم يشرف على البحر بقمته العالية ، أثر المنظر فى نفس مى فوصفته فى لوحة شعرية رائعة :

« فى سديم ضباب الصباح الفضى ترتسم الجبال فيثير التلفظ باسمها شعورا مؤلما فى النفس . تلك هى جبال لبنان!

عصبت هامتها أكاليل من المرجان ، وغمرت أعماق أوديتها الظلال.

الشمس تتيه عجبا بأذيالها الذهبية تجرها على الكائنات ، وتسبغ على الصخور والجبال الخضراء والمنازل الشاحبة من كرور الزمان ألوانا فتانة ، ينعكس النور عليها ، فتبدو كالزمرد والياقوت ، ويلتحف البحر والجو والهواء بفيض من الضياء !

إنه مشهد يفوق الوصف .

أين قلم لامارتين السحرى ليعبر عن هذا الجمال ؟ .

ومن يستطيع سوى شاعر البحيرة أن يعبر عن سحر الطبيعة الفتان؟» .

وتمضى مى فى لوحتها الفاتنة ، تصور كل بقعة جميلة فى جبل لبنان ، ما بين « برمانا » بجبالها وغابات الصنوبر ، ومنازلها المعممة بالقرميد الأحمر ، وهى تتوارى بين خضرة الأشجار ، والبحر من بعيد يرغى ويزبد ، وما بين « بعبدات » حيث جلست فى قرب أمها فى ظل صنوبرة باسقة ، وتطلعت حالمة إلى غابات الأشجار الفتية ، تلك الغابات المفعمة بالأسرار الناحبة عند قدميها . . وقد هجع البحر من بعيد بين أشرعته الزرقاء التى تناهت رقة ، وجازت الأفق سحب كثيفة ، وبدت الشمس

بينها كنطاد جبار يشتعل ويتوارى بين الأنوار ..

وتتطلع مى إلى السماء ، وتتمتم شفتاها بالصلوات .. ثم تقول :

« ماذا أرى فى القبة الزرقاء ؟ أرى الكواكب تظهر فى جلد السماء الشاحب ، أرى الزهرة تعانق أخاها الفتى ، وما أحيلاه أخا !

والقمر فى ريعانه يستعد للغروب .

القمر الذى أهواه حتى العبادة .

القمر الذى أراه دواما فى ليالى لبنان .

يا رسول العواطف وملتقى الرغبات ! يا معزى البؤساء وسميرهم ! تشاركهم أحلامهم وتصغى إلى شكواهم بصمت ، وتلاطفهم بإشعاعك السنى » .

ولا تفتأ مى تعبر عن حبها للطبيعة وغرامها بها ، فتقول من أبيات عنوانها يا « سيدونيا » :

« أحب حرارة شمس الربيع ، وأحب أزاهيره البيضاء والحمراء والزرقاء ، وأهوى دندنات الطبيعة الخافتة . غير أن قلبك يا سيدونيا لأشد حرارة واتقادا لأنه يضرم قلبى .

أحب موج البحر ينثر لآلئه عند أقدام الصخور ، فيضمحل تاركا بساطا أبيض على الرمال المذهبة .

أهوى خرير الساقية يتحطم على الحصى .

أهوى نسيم البحر العليل يتغلغل فى شعرى » .

ولقد كان فى مى ميل إلى الوحدة والعزلة والخلوة بنفسها ، لأنها كانت تجد فى الوحدة مجالا للتأمل ومراقبة النفس ، ووجدت فى الطبيعة سميرا لها فى وحدتها ، وأنيسا لها فى وحشتها . وكان كل شىء فى الطبيعة - مهما كان حجمه - يسليها فى تلك الوحدة التى فرضتها على نفسها ، والتى تقول فيها :

« أحب أن أحلم منفردة تحت السماء الساكنة الصافية .

أحب عد الحصى التى تطؤها قدماى ، وأزاهير الحقل التى أصادفها على الطرقات .

أنى لأجد عذوبة أن أتيه فى الغابات عندما يغشى الغسق الوادى ، وأن أسمع همس الآلهة مرنمة حول الينبوع » .

وحينما ترجمت الآنسة مى كتاب « ابتسامات ودموع » أو « الحب الألمانى » لفردريك ماكس مولر كتبت مقدمة جديدة للطبعة الثانية من الكتاب تذكر فيها السبب فى تغيير عنوان الكتاب ، وتشرح أسباب التغيير والتبديل والإضافة فى تلك الطبعة ، ثم تطرقت إلى الحديث عن نفسها بعض الشىء ، وإلى تيقظ الفتاة فيها ، وإلى استفسارها الصامت إزاء مسائل الكون والروح والاجتماع ، وإلى شغفها الذى لا حد له بالطبيعة ، فقالت : « والطبيعة ! يا لاستهواء الطبيعية وقد انتشرت الأشجار والصخور على الجبال والوهاد ، فرقصت هناك الأشعة ، وانسلت هناك الأظلال ! يا لخشوعها وقد تجمعت منازل القرى حول قبة الأجراس المنتصبة كالمسلة ، بل هى قامت فى الوسط ككاهن يمينه نحو العلاء مبتهلا ، وجثت حوله الرعية خاضعة ضارعة ! يا لبراعة الطبيعة

بالتنوع فى لبنانى الجميل ! لقد تصرفت بجميع فنون الجمال ، فهى منه كل يوم فى حلة جديدة ، وهيئة طريفة . فساعة تغرق الكائنات جميعا فى أوقيانوس ضياء يبهر الأنظار ويذهل العقول ، وتارة تزحف كتائب الضباب المتراصة من أطراف البحار ، وتهجم فيالق السحب المتكاثفة من أقاصى الآفاق ، فتكتسح ما قام أمامها ، وتبسط رواقها الرمادى ، كأن العالم فى دوره السديمى .

ويعتدل النور والحرارة يوما ، ويبرز روح التيقظ والكتمان ، فتصبح ألياف كل نبت وكل قطرة ماء ، وكل ذرة هواء شاعرة بسر الوجود الخطير ، تؤيد بحركتها اللطيفة ضرورة مساعدتها وحقيقة كيانها ، ويخال الهواء حساسا كقلب الولهان ، داويا كالنحاس المجوف ، وآنا تبدو خطوط الموجودات ونبرات الأصوات بوضوح غير عادى ، وتنمو روعة الأشياء كأنها كبرت واتسعت وربضت فى مجاهلها الأهوال باتفاق لجائى بين آلهة القدر ، فيتولانى افتتان به ينقلب الزمن والمسافة سائلا متحركا ، أو عبابا متموجا يحملنى تياره إلى حيث لا أدرى من عوالم الخيال ، شأن الحياة بالإنسانية الضعيفة الساذجة ، الإنسانية التى تجهل الغرض من تحركها ووجودها ، ولا تفتأ تذوب شوقا إلى بلوغ غاية تزعم الإحاطة بها ، وهى فى الواقع لا تعلم ماهى !

« وكم خلت القوة الحيوية غبارا ذهبيا أو سيالا أثيريا منبعثا من البحر والجبال والكائنات جميعا ، وكم عبدت الطبيعة عبادة حارة خاشعة ، كعبادة المتدينين والشعراء والمتيمين ، أولئك الذين يقدسون الحياة خارجا عن أشخاصهم ، ومحصورة فى إله ، أو رمز ، أو إنسان . وكم

ملأت الدموع عينى شكرا للحياة ، شكرا للطبيعة ، شكرا لجميع الموجودات » .

وتذكرنا مى فى حبها للطبيعة بالكاتب الأمريكى هنرى دافيد ثورو، الذى عاش فى القرن الماضى ، والذى كان يجد غاية المتعة واللذة فى رؤية الأزهار والأطيار والحيوان والأشجار والجبال والغدر والحقول ، والذى خاطب الطبيعة بقوله :

« أيتها الطبيعة الغالية ! كم أتذكر الآن — بعد نسيان قصير — غابات الصنوبر ! أنى أتهالك عليها كما يتهالك الجائع على كسرة من الخبز » .

ولقد كان لثورو ذكريات ووقفات فى غدير « والدن » بالولايات المتحدة ، وكانت مياه الغدير البلورية أغلى عنده من أثمن الجواهر ، وكانت ، كما تصفها ريشته : « بلورا على سطح الأرض .. ولو قدر لها أن تتجمد وتصقل ، لحملت — كالأحجار الكريمة — إلى الأباطرة والملوك لتزين رءوسهم ، ولكن سيولتها وكثرتها جعلتها عديمة القيمة » .

# مع بين الأحزان والأفراح

ليست الحياة بين الأحياء إلا قصة من انحدارات الدموع ، وتألق الابتسامات . . فالطبيعة حين تصفو هى ابتسامة كبرى فى ثغر الحياة ، والطبيعة حين تكدر وتغضب هي دمعة سائلة على خد الحياة . وهل سلمت الحياة بين الأحياء من هذين الوجهين ؟ أو هل سلم الأحياء من هاتين الحالتين ؟

لن تكون الحياة بكاء دائما لأن فيها من ساعات الفرح والسرور ما تتبخر معه الدموع . ولن تكون الحياة سرورا دائما لأن فيها من الدموع ما لا بد منه لإظهار وجه المفارقات فى الحياة .

فكل منا يحمل فى الحياة نصيبه من الدموع والأفراح ، ولكن أنصبتنا تختلف على اختلاف ظروفنا من ناحية، وعلى اختلاف استعدادنا من ناحية أخرى . فالدموع ضرورية فى الحياة ، أو كما يقول الشاعر العربى : «لم يخلق الدمع لامرىء عبثا» ولكن منا الذين يحولون هذه الدموع إلى قطرات ، أو جداول ، أو نهيرات، أو أنهار ، أو بحار على مقتضيات الأحوال . . .

وأصوات البكاء ضرورية فى الحياة ، ولكن منا الذين يستطيعون أن يحولوا هذه الأصوات إلى أنغام من الفرح ، فعندهم قوة «التهوين»،

لا قوة « التهويل » ، وعندهم ترياق سحرى يحولون به الأشجان ، إلى أعذب الألحان .

وأول ما يلفتنا من مى أن بسماتها الأولى فى الحياة كانت مجللة بغشاء من الدموع ، وأنها حين كانت تضحك لم ينسها الضحك روعة البكاء . فقد ظهر لها فى سنة ١٩١١ كتاب مترجم عن الألمانية بقلم العالم الكاتب المفكر « ماكس مولر » وكان اسم الكتاب الأصلى : «الحب الألمانى» . ولكن مياً لم تجد فى هذا العنوان ما رآه فيه مؤلفه ، بل رأت فيه خلاصة بسمات الإنسان وعبراته . فأباحت لنفسها أن تتصرف فى ترجمة العنوان ، وأن تجعله « ابتسامات ودموع » . وظهر الكتاب يحمل فوق غلافه الخارجى اسمين اثنين : اسمه الذى رأت مى أن تترجم العنوان اليه ، واسمه الأصلى وهو : الحب الألمانى . وكأنما أدركت أن أحدا من القراء العرب سيعترض على هذا التصرف فى عنوان الكتاب ، فأثبتت العنوانين على الغلاف ، وكتبت فى المقدمة تقول : (الحب الألمانى ؟ كلا ، ليس هذا الكتاب حباً ألمانيا فقط ، بل هو خلاصة بسمات الإنسان وعبراته ، فسميته « ابتسامات ودموع » فإن كان ذلك تزييفاً لفكرة المؤلف الواجب احترامها على كل مترجم فهو صادق من حيث اقتناعى الخاص ، أمين للصورة التى ارتسمت منه فى نفسى ) .

ولعل هذا الاختيار لعنوان كتاب مترجم يحمل لنا الخيوط الأولى لتردد مى منذ بداية عهدها بالأدب والكتابة بين الحزن والسرور ، وبين الكآبة والأفراح . وقد جاءت كآبة مى من كثرة تطلعها الدائم إلى كشف أسرار المجهول ؛ فهى حين لا تظفر بجواب مقنع شاف عن سر

المتناقضات فى الحياة ، وعن سر اللذة والألم لا تجـــد لها سلوة إلا فى الاكتئاب ، كأنها تجد الخلاص من الداء بالداء .

واستمع إلى مى وهى تقول فى ذلك فى مقدمة كتاب « ابتسامات ودموع » : ( كان ذلك فى صيف ١٩١١ وفى تيقظ الفتاة الأول واستفسارها الصامت إزاء المسائل الكونية والعمرانية والروحية ، وإعجابها المنتبه المتحفز للاهتمام والتحمس ، وفى كذلك خجلها وحيرتها وترددها .

وكنت كئيبة . كنت أكتئب لغير سبب ، وأكتئب للعوامل الدافعة بالاجتماع ، الشاغلة أفراده ليلا ونهارا ، حتى إذا احتميت بحمى الطبيعة ، وألقيت عليها اتكال روحى ، رافقت الكآبة حبى واتكالى . الكآبة خاتمة شعور الإنسان إزاء الجمال والقباحة ، والخير والشر ، والعدل والظلم ، والكره والحب ، والفوز والخذلان، إليها تنتهى حركات التأثر فى جميع حظائر النفس كأن لا شىء وراءها سوى المبهم والمجهول والظلام الدامس . أهى ناتجة عن شعور المرء بضعفه حيال قوة العالم ، وبعجزه عن تحويل الأشياء عن مجراها ؟ قد يكون ، ولكن الواقع أن التنهد والامتثال نهاية كل عاطفة وكل فكر ، كما أن كل عمر بشرى يختم بإرسال الزفرة ، وإسبال الجفون ) .

فإطالة التفكير فى غرائب الحياة ومتناقضاتها ، وإدامة التغلغل فى أعماق الأشياء لاستكناه المجهول ، أو لتفسير اللامعقول، هى أهم أسباب الكآبة والحزن عند هذه المخلوقة المرهفة الحس التى كانت تتألم لآلام الحياة والأحياء . وما أروعها وهى تقول فى ذلك : ( الفكر ! ما أجذب الفكر إذا هو مزج بطلاوة العاطفة ، وخيمت عليه أوشحة الخيال !

عشت السنوات الأولى من حياتى دون تفكير ، وها قد غدا الجناح الملون بألوان قوس السحاب يضرب جبهتى ليفسح له فيها وكرا ، فصار كل موضوع ، وكل شخص ، وكل مشهد طبيعى ينفحنى بتأملات زرقاء وردية ، ذهبية ، فضية ، رمادية ، تحوم حولى تارة ، وطورا تجثم فى ، متعاونة مع ما فى الكتاب على إيصالى إلى روح الإنسانية ، فأكاد أسمع دقات قلبها ، وصدى أنينها ، فأدرك أنها شقيـــة بجهلها واضطرابها وهمومها ، وأنه قدر على المختارين من بنيها أن يتألموا أضعافا ، لأنهم السابقون إلى مقاتلة المجهول ، وكجميع الطلائع يتلقون ضربات المصادرة والمقاومة ، فلا تضعف عزائمهم ، ولا تكل أقدامهم ، ويثابرون على تلمس السبيل فى حالك الظلمات ، ويسيرون إلى الأمام حاملين غنيمة الجهود الانسانية والثقة بتحقيق الآمال ) .

ونكاد تكون شخصية الآنسة مى تتألف من عنصرى الفرح والحزن بقدر ظاهر واضح المعالم ، مع غلبة الحزن عليها فى أكثر الأحوال ، وقد أدركت هى ذلك من نفسها فكتبت إلى صديقتها « جوليا طعمة دمشقية » تصور لها نفسها ، وترسم لهـا صورة لشخصها تقول فيها : ( استحضرى فتاة سمراء كالبن ، أو كالتمر الهندى — كما يقول الشعراء ، أو كالمسك — كما يقول متيم العامرية — وضعى عليها طابعا سديميا من وجد وشوق وذهـــول وجوع فكرى لا يكتفى ، وعطش روحى لا يرتوى ، يرافق أولئك جميعا استعداد كبير للطرب والسرور ، واستعداد أكبر للشجن والألم ، وهذا هو الغالب دائما ، وأطلق على هذا المجموع اسم « مى » ترى من يساجلك الساعة قلبها ) .

وكانت مى من ذلك النوع الإنسانى الذى تشجيه دكنة الغروب ، وغبرة السماء ساعة جنوح الشمس إلى المغيب ، وأنا أعرف كثيرا من الناس يحزنهم هذا المنظر ويؤثر فى نفوسهم ، وأعرف من نفسى ذلك فأتحاشى أن تقع عينى على الدنيا وهى مجللة بهذا الثوب الكئيب . وتحدثنا مى عن كآبتها هذه فتقول : ( أرخى الشفق سدوله على الأرض بطيئا ، ولفقت حواشى السحب بخيوط الذهب والفضة ، وتلاشى ما كان يبدو كبحيرات الياقوت ، وبرك الزمرد حيال عرش الغروب ، وغشت الأرض كآبة ربداء ، وغشت عينيك كآبة ربداء . أى شمس تغيب فيك — أيتها الفتاة — ولماذا يشجيك المساء لتغشى عينيك هذه الكآبة الربداء ؟ ألا احرصى على قلبك أيتها الفتاة ! ) .

وقد بلغ من سلطان الكآبة وتسلطها على نفس مى أن بعض عناوين خطراتها ومقالاتها الرشيقة كانت تحمل اسم « الكآبة » . فهناك فى كتابها الفرنسى ، وهو أول ما نشرته من كتب ، مقالة بعنوان « كآبة » كتبتها فى يوم عيد الموتى ، تقول فيها :

« حزينة اليوم روحى ، وحزنها القاتم مؤلمى .

فعلام الاكتئاب ؟

أيها الإله !

لماذا وضعت فى عينى الإنسان هذه العبرات ، وقضيت بألا تجف ولا تنضب .

لماذا ؟

آية مسرة أنت ملاق فى النكال والإيلام ؟

أنك القادر ونحن ضعاف .

أنك العظيم ونحن بائسون ؟

نحن أشرار ، وأنت كل الصلاح .

أما كان الغفران أجدر بعظمتك ؟ !

أو ما كان تلاشينا أوفق لرحيب قدرتك ؟ !

ولكنك لم تفعل هذا ولا ذاك ، ونحن نشقى ونتعذب .

نفسى اليوم حزينة وحزنها قاتم . أفكر فى الأوراق المتناثرة ، وفى الأحياء الذين يضحكونها ، وفى الموتى الذين مضوا كأنهم لم يكونوا» .

* * *

وتظل مى تفتش عن السعادة بين ضباب الدموع ، وتسأل الله فى إحدى قصائدها الفرنسية قائلة :

« يا أيها الخالق ! إن الحياة مراحل آلام ، وسلسلة أوجاع ، ولجة ودموع ، ومع ذلك فطرت الإنسان على السرور وأعددته للسعادة

أين السعادة السامية الموعودة ؟

أفى العلاء ؟ أم فى سمائك الزرقاء الجميلة بين الشموس التى لا تحصى والعوالم اللامتناهية ؟

لعلك يا إلاهى خلقت العالم شاسعا ليغتذى بآلام خلقك » .

ويتجلى تأثر مى بالطقس الداكن ، والجو القاتم فيما كتبته من

يوميات على لسان « عائدة » وما عائدة إلا صاحبتنا مى نفسها! فهى تقول فى إحدى هذه اليوميات من صباح يوم الثلاثاء ٧ مارس سنة ١٩١١ :
« ساعات النهار تسير ببطء ، على أن الشمس لم تشرق اليوم ، إنها تختفى وراء الغيوم ، وتتلفع بدثار من الأسرار ، الجو رمادى الأديم ، والأفق متشابه الألوان فى جميع جهاته ، والأرض مغتمة حسرى ، والمطر على وشك الانهمار .

« هذا الطقس يلقى على نفسى غشاء من الاكتئاب والتخدر .
عندما يكون الجو رماديا كذلك يكون وجدانى . أنى أوثر الشمس بازغة تبهج العالم ، والسماء أوثرها صافية فى زرقتها السنية . والنور أن يغذى النبات ويحيي الأزهار أفضل عندى من أن أرى الرياحين منكسة الورود ، والورود ذابلة الكؤوس تحت دفق المطر » .

ولقد كانت مى صلبة العود على الآلام ، كما كانت تعجب من الناس بأصلبهم على الآلام عودا ، وإن ما حملته فى حياتها الخاصة من الألم ، وخاصة بعد موت والديها — وهما عمادها وسندها فى الحياة — لما ينوء بإنسان أن يحمله ، وكانت النتيجة فى النهاية أنها عجزت عن الاحتمال ، وأن صبرها قد وهى من طول ما فعل الزمان بها ، فاستسلمت فى آخر الأمر ، ولكنها كانت — كما تقول هدى شعراوى — فذة فى أحزانها ، غريبة فى همومها وآلامها ، كما كانت فذة فى عبقريتها وبين بنات جنسها .

وظلت مى — أكثر حياتها — تمجد النفس الكبيرة التى تقوى على الألم ولا تنهزم أمامه ، إلى أن كان الألم أخيرا أقوى وأكبر من طاقتها

وبما تحتمله نفسها فألقت سلاحها . ولها فى تمجيدالنفوس الكبيرة الصابرة على الألم قصيدة فرنسية تقول فيها :

« ما أشرفك أيتها الأنفس التى تجردت من الثروة ! وأنت أيتها الأنفس المتجبرة التى لا تحطمها أحداث الدهر !

وما أسمى شموخ الأنف الذى لا يذله الفقر !

وما أنبل القلوب الشهمة التى تثقلها الآلام ولا تخنع .

الفرح يهملك بعد ابتسامه الطويل ، والأخطار تحيق بك من كل صوب ، والشدائد تمزقك ، والدموع السخينة التى تذرفينها فى وحدتك تقرح عينيك وتضرم قلبك . غير أنك ستبقين الكبيرة ، فالشرف مقرون بعذابك النبيل ، والسعادة تفوق الإدراك والوصف » .

* * *

ولم تكن كآبة مى فى أواخر أيامها وحسب ، حيث انتهت حياتها تلك النهاية المؤلمة ، ولكنها كانت كئيبة حتى فى سنوات فتوتها الأولى . وعجيبة تلك الكآبة فى سن مبكرة مع خلو الفتى ، أو الفتاة من تبعات الحياة ومسئولياتها التى تنتج الكآبة والهم .

لقد كانت مى فى أوائل عهدها بالمدرسة طالبة كئيبة حزينة ، يبدو الإعياء على محياها الوسيم ، ويلوح التعب عليها جملة ، كأن همها الكبير أكبر من جسمها النحيل ، وقلبها الرقيق . فهى ، على الرغم من أنس عشرتها ، وحدة ذكائها المتوقد ، وسماحة خلقها ، متبرمة ، حزينة ، مكتئبة .

وتروى مى فى يومياتها حالة من حالات كآبتها وهى فى سن البدر

ليلة تمامه .. أى فى سن الرابعة عشرة . فتقول : « إنى تعبة أنفر اليوم من الحركة ومن كل مجهود — ولو طفيفا — وقد مضيت بعد الفطور أهيىء كتبي الموسيقية لتسكون رهن يدى عند درس البيانو فى الساعة العاشرة ، فالتقيت المرشد لحييته فابتسم ونظر فى وجهى ، ثم عبر لى عما أشعر به فقال :

— أنت اليوم تعبة يا ابنتى ، فمم تشكين ؟

— فخجلت وقلت : أنى لا أشكو ألما معينا ، ولا علم لى بسبب تعبى فابتسم مرة أخرى وقال :

— إذن هى المخيلة ، المخيلة الحادة النشيطة الطيارة التى تتعب صاحبتها ، ومضى يهز أصبعه باسما . . إنه لمملوء بالعواطف الطيبة ، هذا المرشد ، وعنايته مفعمة رقة وعذوبة » .

وقد ألحت عليها الأفكار الحزينة العميقة منذ صباها الباكر ، حتى فكرت فى الموت .. ولم تفكر فيه انتحارا ، ولكن فكرت فيه كمنقذ من آلام الحياة ، وندعهـا تروى ذلك الخاطر العجيب فى قصيدتها الفرنسية بعنوان « من يوميات عائدة » :

( وهكذا انتقلت من تأمل إلى تأمل حتى انتهيت إلى فكرة الموت .

كم ذا سمعت أن هذه الفكرة كانت تعزية القديسين ورجاء لهم ! فما كنت أحاول أن أفهم ، وكنت أنصرف عن ذلك بسرعة لأطمئن وأستريح . غير أنى اليوم انتشرت فى نفسى فكرة الموت مع لذة الشعور بها . انتشار الألحان من الأرغن العازف .

ولكن تلك النظرة التي أرسلتها إلى في الظهر ونحن خارجات من المائدة ! هي تلك النظرة الجافية التي حملتني على البكاء ، وأحزنتني طول النهار ، والمعلمات يسألنني عن حزني ، والبنات يسألنني عن بكائي ، فبم أجيب ؟ ! لو تلفظت كلمة واحدة لأخجلتني غباوتي وكنت موضوع نكتة لهن .

كيف أتخلص من شعوري ؟ كيف أفنيه ؟ كيف أصير صخرة ؟ حدثيني — أيتها الحجارة العسيرة — كيف صرت حجارة ؟ ) .

وهكذا كانت بداية الحياة عند مي كآبة وحزنا ، وكانت خاتمتها كآبة وحزنا ، وعاشت فيما بين ذلك قصيدة حزينة مملوءة بنغمات الأسى، وزفرات اللهيب .

## غروب شمس ...

## ميّ في محنتها

لقد كانت مي بنت الأحزان والكآبة حتى في الساعات التي ترسل فيها بسماتها ، كأنما كتبت عليها الأقدار أن تجلل فرحتها دائما بالسواد . ولا شك أن اختيارها لعنوان « ابتسامات ودموع » — وهو الكتاب الذي يحمل عنوانه الأصلي « الحب الألماني » — يحمل دلالة قاطعة على ما في طبيعتها من اجتماع الحزن والسرور ، والدمعة والبسمة ، والضحك والبكاء .

ألم تحدثنا مي في مقدمة كتاب ماكس مولر أنها كانت تكتئب لغير سبب ؟ وكأن الله شاء أن تكون البداية الكئيبة لحياة مي صلة وامتدادا لنهايتها الكئيبة المؤلمة .

وكانت بداية الحزن الحقيقي عند مي يوم مات أبوها الصحفي المعروف إلياس زيادة صاحب جريدة « المحروسة » . فقد أثر المصاب في نفسها تأثيرا كبيرا ، وكنت من أسرع الناس إلى تعزيتها في تلك المصيبة التي نزلت بها ، والتي كانت أكبر مما تحمله تلك الإنسانة الواهنة ، فأرسلت قصيدة إلى « الأهرام » نشرت، ثاني يوم الوفاة ، قلت منها :

يامي صبرا إذا ما     أبوك حث الركابا
فغـــاية العيش أنا     نودع الأحبـــابا
ومنتهى العمر أنا     نفارق الأصحـــابا

على أن مياً قد لقيت الأحزان قبل ذلك على من فجعتها الأيام فيهم من أصدقائها المخلصين ، فقد كان حزنها على أستاذها وصديقها الدكتور يعقوب صروف بالغاً ، حتى لقد كانت فيمن أبنوه على القبر يوم دفن فى يوم الأحد ١٠ من يوليو سنة ١٩٢٧ . وكانت آخر عباراتها الحزينة فى تأبينه على القبر تلك الكلمات المؤثرات : « أيها الصديق ! أيها الأستاذ ! أيها الكاتب والخطيب ! أيها العلامة والحكيم ! يا رجلا فاضلا الفضل كله ! أيها العظيم بوداعتك وبساطتك وعظمتك ! بعلمك وامتيازك ! أنت بجمودك وسكوتك تقول : « وداعاً أيها الأحياء ! » ونحن نقول بتفجعنا ودموعنا قولنا بإعجابنا وشكرنا : « إلى اللقاء فى حضن الله » .

ولقد وجدت مى زيادة متنفسا للتعبير عن حزنها الشديد فى وفاة أستاذها وصديقها الدكتور صروف مرتين : مرة فى تأبينه على قبره يوم دفن بمقابر مصر العتيقة ، ومرة أخرى فى الحفل الكبير الرائع الذى أقيم لتأبينه فى دار الأوبرا يوم ٣٠ من مارس سنة ١٩٢٨ ، فقد وقفت مى فى ثوبها الأسود الحزين ، وكأنها هى نفسها كانت قطعة من الحزن ، لتلقى كلمة فى تأبين صروف ! وقفت على المنبر الذى وقف عليه تلك الليلة التى لا تنسى جماعة من أهل الرأى والأدب فى العالم العربى منهم وزير المعارف على الشمسى ، والدكتور منصور فهمى ، وأسعد لطفى ، والشيخ عبد العزيز جاويش ، والشاعر أحمد شوقى ، والشاعر حافظ إبراهيم . وكانت كلمتها فى ذلك الحفل اعترافا بجميل الدكتور صروف عليها ، وإشادة بتشجيعه لها ، وأخذه بيدها على معالم الطريق ، وقد ختمت مى كلمتها الرائعة فى تأبين صروف بهذه العبارات تخاطب بها أرملة أستاذها العظيم :

« فلا تطرقى حزناً وأسى ، يا زوجة صروف ! أنت التى قاسمته ساعات

الحياة فى ألوانها البهيجة والقاتمة ، وطعومها المريرة والسائغة : بل تعالى نسر بالخيال لزيارة ذلك الضريح البعيد فى ظل الغصون ، وبينما تتعاون أيدى الرجال القوية النبيلة على ضفر أكليل التكريم والتقدير للفقيد الكبير ، فلنقدم له نحن ، بالنيابة عن المرأة الشرقية ، زهرة الشكران مبللة بدموع القلب ، ولنودعه بهذه الكلمة الشهيرة لفيكتور هوجو ، أيتها الشمس المتغيبة وراء الأفق ، إن أشعتك باقية الأنوار ! » .

ولم تشأ الأيام أن تهادن مياً ، فقد اصطلحت عليها مصائب فقدان الأحبة والأعزاء يوما بعد يوم .. فأستاذها وصديقها الدكتور صروف يموت سنة ١٩٢٧ ، وأبوها يموت سنة ١٩٣٠ ، وأمها المتهدمة الحزينة تموت بعد الزوج بزمن غير طويل ، فلا تكاد مى تحتمل كل هذه الصدمات ، وتتمثل لها ذكرى أبيها وأمها فى كل شىء .. تذكرهما فى كل طلوع شمس ، وتذكرهما فى كل مغرب . . كأنها تعيد سيرة الخنساء شاعرة العرب التى تقول فى رثاء أخيها :

سأذكره لكل طلوع شمس وأذكره لكل غروب شمس

وتذكرهما حين تقع العين منها على أثر من آثارهما ، أو بقية من لوازمهما . وترى فى منديل أمها ، وفى قميص أبيها ما يهيج لها أحر الذكريات ، ويثير منها كوامن الأشجان ، فتتجدد لها اللوعة من حين إلى حين . ومات صديقها وحبيبها جبران خليل جبران سنة ١٩٣١ ، وقد كانت تدخره عدة للزمان بعد أن انتهت حكاية الحب والزواج بينهما ، فأيقنت أن الأحداث لها بالمرصاد ، وأنها لا تطيق عناد الزمان ، فاستسلمت لحزن قاتل ، ويأس شامل ، وكأنها زهدت الأيام وهى فى سن لا تعين على زهد ، ولا تبعث على سأم . فقد كانت حينذاك على

حدود الخامسة والأربعين ، ولم تبلغ — مثلا — الثمانين — حتى يجوز لها أن تسأم تكاليف الحياة كما سئم قبلها — من أربعة عشر قرنا — الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى .

ولست أميل إلى قول القائلين بأن مياً أصيبت بالعصاب والأمراض النفسية الغادرة لأنها كانت عانسا في السن التي تتعرض فيها الكثيرات من العوانس لهذه الأمراض . فإن حالة مي لم تكن من طروء علة نفسية عليها بسبب « الجنس » ولكنها حالة قديمة فطرت عليها ، وركبت فيها مع الطبع ، فهي حزينة مهمومة منذ نشأتها . وهي مفطورة على الكآبة منذ الساعات الأولى من حياتها . وقد كان فيها من الميل للحزن والألم أكثر مما فيها للطرب والسرور . وليس هذا القول من عندنا ، ولكنه مما كتبته هي بقلمها إلى صديقتها « جوليا دمشقية » من رسالة خاصة تقول فيها : « . . . يرافق أولئك جميعاً استعداد كبير للطرب والسرور ، واستعداد أكبر للشجن والألم » . فهذه الصورة الصادقة لمي مما كتبته تصور به نفسها سنة ۱۹۳۱ .

على أنها تعترف قبل ذلك بعشرين عاما — أي في سنة ۱۹۱۱ — بكآبتها ، وتؤكد أن الكآبة هي خاتمة شعور الإنسان إزاء الجمال والقباحة ، والخير والشر ، والعدل والظلم .

وكان لابد لهذا التفكير العميق الحزين من مي طوال حياتها أن يفضي إلى نتيجة لابد أن ينتهي إليها ، فهي فتاة مفكرة ، مهمومة ، حساسة ، مرهفة ، مطيلة التفكير في مفارقات الحياة ، ومتناقضات الكون . وهي لم تؤت موهبة الاحتمال الشديد على مكاره الحيـــاة ، وإن كانت تغالب وتصارع بدافع من كبريائها وشموخ أنفها . حتى لقد كان الهم يوهي

جسدها، ويهد كيانها ، وهي تتجلد ، كأنها ذلك الشاعر العربي المتعالي فوق الأحداث بقوله :

وتجلدي للشامتين أريهمو أني لريب الدهر لا أتضعضع !

والحق أننا نظلم « ميا » ونظلم البقية الباقية من خلصائها وأصدقائها إذا قلنا إنها أصبحت وحيدة بعد موت إسماعيل صبري ، وشبلي شميل ، وولي الدين يكن ، وملك حفني ناصف ، ووالديها ، وجبران خليل جبران . نعم ! نظلم وفاء هذه البقية الصالحة من أمثال أحمد لطفي السيد ، ومصطفى عبدالرازق ، وطه حسين، ومحمد حسين هيكل ، وخليل مطران ، وأنطون الجميل ، وعباس محمود العقاد ، وهدى شعراوي . فكيف تصبح « مي » وحيدة وفي مصر هؤلاء من رواد ندوتها الأوائل ؟ الحق أن الوحدة والعزلة بدأت تتسرب إلى مي من ناحيتها هي ، فقد أحست فراغا كبيرا في الحياة والأحياء ، فأخذت تتسلى عن ذلك بالسياحة والرحلات وهي « الوصفة » الدوائية الناجعة التي يصفها الأطباء لمرضى النفس والأعصاب .

وساحت مي في بعض أقطار أوربا ما بين فرنسا وانجلترا وإيطاليا ، ولكنها لم تجد في الأسفار العلاج الذي قيل لها إنه يشفي مما بها من سقام.

واحتجبت مي عن الكتابة والتأليف بضع سنوات ، من سنة ١٩٣٠ ، حتى كان يوم من أيام سبتمبر سنة ١٩٣٥ فأمسكت القلم وخطت لأحد أقربائها : الدكتور جوزيف زيادة رسالة تصف فيها حالتها ، وصدودها عن الكتابة والقراءة ، وتتساءل كيف تستطيع أن تقاوم مثل هذا العذاب النفسي، وتقول فيها : «إني أتعذب شديد العذاب ياجوزيف ، ولا أدري

السبب ، فأنا أكثر من مريضة ، وينبغي خلق تعبير جديد لتفسير ما أحسه في وحدتي . إني لم أتألم أبدا في حياتي كما أتألم اليوم ، ولم أقرأ في كتاب من الكتب أن في طاقة بشري أن يتحمل ما أتحمل . وددت لو علمت السبب على الأقل ، ولكني لم أسأل أحدا إلا وكان جوابه : لا شيء ! إنه وهم شعري تمكن مني .

لا لا ياجوزيف ! إن هناك أمرا يمزق أحشائي ويميتني في كل يوم ، بل وفي كل دقيقة . . لقد تراكمت على المصائب في السنوات الأخيرة وانقضت على وحدتي الرهيبة التي هي معنوية أكثر منها جسدية ، فجعلتني أتساءل : كيف يمكن عقلي أن يقاوم عذابا كهذا ؟ وكان عزائي الأوحد في مختني هذه مكتبي ووحدتي الشعرية ، فكنت أعمل وأعمل كالمحكومة بالأشغال الشاقة ، لعلي أنسى فراغ مسكني ، أنسى غصة نفسي ، بل أنسى كل ذاتي .

.. إنه ليدهشني حقا كيف أني استطعت أن أكتب هذه الرقيمة ، ولعل الفضل في هذا يعود جزئيا إلى اللفائف التي أدخنها ليل نهار — أنا التي لا عهد لي بذلك — أدخنها لتضعف قلبي،هذا القلب السليم المتين ، الذي لا يزال يقاوم ، واسلم لابنة عمك ماري » .

نعم ! هنا فراغ ووحشة ووحدة تحاول مي أن تملأها بأي شيء ولو كان دخانا تنفثه من لفافتها التي أخذت تدخنها بشره ، ولم تكن قبل ذلك من المدخنات .

وفرضت مي على نفسها العزلة والوحدة ، فلم تفتح بيتها — كعادتها — لأصدقائها القدامى ، بل كانت تفر من لقائهم ، وتهرب من مواجهتهم .

ـ لقد اجترأ صديقها الدكتور منصور فهمي أن يطرق بابها أصيل يوم من سنة ١٩٣٦ ، فاستقبلته إنسانة شعثاء الشعر ، شاحبة الوجه ، مقرحة العين ، كأنها نجم آفل .. وعلى شفتيها بقايا ابتسامة باهتة .. ولكنها لم تقده إلى غرفة الاستقبال ، ولم تشر عليه بالجلوس على مقعد فى مدخل الدار ، فألقى عليها بضع عبارات يؤكد لها وفاء الصديق ، وتقدير المخلصين ، فلم تجبه بل ظلت تغمره بنظرات فيها العطف والحنان ، ثم تمتمت بما يشبه هذه الكلمات ! شكرا ! شكرا ! لا شىء . لا شىء ! أريد النوم .. رب ! لم كانت الخطيئة ؟ !

أية خطيئة تعنيها تلك الإنسانة التى كانت تغفر إساءة المسىء ، وتنسى خطيئة المخطىء ؟ ثم لماذا الهذيان بأمثال هذه العبارات لبعض زوارها : لا ! لا ! لن تأخذ مالى . لن تأخذ حلي . اخرج ! اخرج ! ثم إلى من كانت توجه فى هذيانها المحموم أمثال هذه الأقوال : لماذا لم يأت ؟ لقد أحببته وأخلصت له ، لماذا ؟ لماذا ؟

لقد رئى أن تحمل مى إلى لبنان ، فقد تجد فى قرية وادعة هناك ، فى حضن الجبل أو على ذراه ، ما لم تجده فى مصر .. ولكنها وجدت نفسها فى مستشفى « العصفورية » ، وهو مصح لضحايا الأمراض العقلية ، فلما وجدت نفسها على هذا النحو الذى لم تكن تتوقعه ساءت حالها ، واحتدت ثورتها ، وثارت ثائرتها . ولا شك أن هذا الوضع قد زاد من حالتها سوءا ، ومن أعصابها توترا واضطرابا ، ومن عقلها اختلاطا ، فأصرت فى ثورة عارمة على أن تغادر العصفورية ، ولكنهم أبقوها على الرغم منها ، وكلما ثارت للخروج وهاجت اتخذوا من ذلك أسبابا

لبقائها فى بقعة كريهة إليها لأنها كانت على تمام اليقين، أنها نزيلة بين جماعة من المجانين .

وأضربت مى عن الطعام والشراب ، وكانت تحطم الآنية فى سخط ، وتكسر الأوعية فى هياج، وتمزق الفراش فى ثورة ، إلى أن تخور قواها من طول الصراع فتستسلم فى خذلان .

ونقلت بعد شهور تسعة إلى مستشفى ربيز للدكتور نقولا ربيز بعد أن ثارت صحافة لبنان لهذه النهاية الأليمة للأديبة العربية الكبيرة ، فلقيت من العناية ما أعاد إليها بعض الهدوء ، وإن كانت النوبات تعاودها على فترات من القوة والضعف ، والخفة والعنف ، حتى لقد ثارت حينما نقل عمال المستشفى أن أمين الريحانى جاء ليزورها ، وأبت أن تقابله ، لولا أنه فتح عليها الباب عنوة ، وكان لقاء فيه من مى نقمة وهياج ، وفيه من الريحانى مرارة ولطف . . وساد بينهما صمت بليغ قطعته مى بقولها : لقد ظلمونى يا أمين ، وأذاقونى من الاضطهاد أمره . ثم هدأت مى واطمأنت لصديقها القديم ، فأخذت تحكى له قصة محنتها الأليمة .

وكانت مى يتعاورها المرض والشفاء ، والسلامة والداء ، والفرح والبكاء ، إلى أن استكملت بعض العافية فى لبنان ، فألقت محاضرة فى الجامعة الأمريكية ببيروت عنوانها : رسالة الأديب إلى الحياة العربية ، وكانت المحاضرة بناء على دعوة من إحدى الجمعيات هناك ونجحت مى فى إلقاء المحاضرة، وخيبت ظن الذين توهموا أن حياتها الأدبية قد انتهت، واستقبلها المستمعون بحماسة حين صعدت المنبر ، وحين كانت تلقى كلمتها فى ثبات واتزان وحكمة ووقار .

كانت تلك المحاضرة فى مارس سنة ١٩٣٨ ، وعادت بعد ذلك إلى مصر ، بعد أن رفع الحجر عنها ، وأصبحت تملك التصرف فى نفسها ومالها ، وأخذت تستعد لاستئناف الحياة من جديد ، وعادت إلى القاهرة هذه المرة ولكنها كانت محطمة مما فعلت بها الأيام ، فاستبدلت بشقتها الأنيقة الرحبة شقة صغيرة متواضعة ، ولكنها لم تكن خالية من الأناقة والذوق. وأخذت تكاتب أصدقاءها البعيدين ، وتستقبل حفنة قليلة من أصدقائها القريبين ، من أمثال فيليكس فارس ، وخليل مطران ، وطه حسين ، وبركات بركات شقيق المرحوم أستاذنا داود بركات رئيس تحرير الأهرام ، وأنطون الجميل ، والسيدة أيمى خير .

وفجعت من جديد فى صديقها فيليكس فارس وعبرت عن حزنها عليه لصديقها أمين الريحانى قائلة : « واها ! ما أشد تفجعى عليه ، وما أضعف يدى دون الكتابة عنه . إنى لا أقوى على كتابة خطاب تعزية إلى أسرته ، لأنى أنا فقدته كما فقده أهله » .

وأخذت النوبة النفسية تعاودها من جديد ، وبرمت من جديد بالحياة والأحياء ، إلى أن جاءها نعى أمين الريحانى بينما كانت تنتظر رسالة منه ، فتكاثرت عليها الأحزان ، وتخطفتها الهموم ، وكانت كما قال المتنبى :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادى فى غشاء من نبال
فكنت إذا أصابتنى سهام ... تكسرت النصال على النصال

ولم تستطع تلك الإنسانة الرقيقة الحساسة أن تحتمل أكثر من هذا ، فنقلت إلى مستشفى للأمراض العصبية بالمعادى من ضواحى القاهرة .

ولكنها ما زالت تذبل وتنطفىء إلى أن امتدت إليها يد الردى فى بيتها بعد ثلاثة أيام لم تذق فيها طعاماً ، وكان ذلك يوم الأحد ١٩ من أكتوبر سنة ١٩٤١ .

وغابت الشمس التى كانت تهب الدنيا العربية حزماً من الضوء ، وشحنات من الدفء .. نعم ! غابت شمس مى ، وانتهت أحزانها ومحنتها بالغاية التى ينتهى عندها كل حى . غابت شمس مى إلى غير رجعة ، على حين تغيب الشمس كل مساء لتطلع على الكون من جديد ، فمن لنا أن نودع هنا مياً بمثل ماودعت به هى شمس السماء فى يوم من الأيام :

«أيتها الشمس ! إلى أين تذهبين .. أتذهبين بدورتك الجامحة حول العالم اللامتناهى سالكة أبدا طريقا واحدة ؟ أتسيرين دواما فى غير انقطاع وإلى غير غاية ؟ الأتعاب بعيدة عنك . ولا سبيل للأعباء إليك .. تنظرين كل يوم البكاء والأفراح والولادة والموت ، فتغمرين الأموات والأحياء ، على السواء ، بقبس من نورك السنى .

يرقبك المرء اليوم والحياة ملء بردتيه ، ثم يضطجع فى الغد ميتاً فى أحضان الطبيعة ، فترسلين إليه نورك ليداعب الأعشاب النامية فوق ضريحه . . . »

## مىّ الشرقية

اطلعت مى على الأفكار الغربية — المتطرف منها والمعتدل — وكانت قراءاتها للآداب الأفرنجية واسعة متعددة ، وكانت مكتبتها الخاصة لا تخلو من كتاب جديد فى بحث جديد أو مذهب جديد أو رأى ذهب إليه ذاهب .

وكان ترددها على المكتبة العامة كثيراً ، وخاصة على القسم الأفرنجى ، وكانت كتب الاجتماع تعجبها وتظفر من قلبها بمحل كبير ، ويظهر أثر هذا الاطلاع الواسع العريض فى كتاباتها المختلفة .

وسافرت « مى » إلى أوربا غير مرة ، وشاهدت كثيراً من عواصمها ، ورأت بعينيها أحوالها ومشاهدها ، فلم تأخذ معارفها من الغرب عن طريق الكتاب وحده ، بل رأت أن تستعمل فى ذلك بصرها كما استعملت فى الكتب بصيرتها .

وغريب أن تبدو « مى » هذه محافظة على تقاليدها الموروثة ، وعادات أهلها وقومها ، فما عرف أنها احتقرت تقليداً ، أو ازدرت بعرف شرقى عام . بل عرف أنها كانت تبالغ فى الظهور بمظهر شرقى . وكانت تنعى على جماعة العصريين أو الآخذين مآخذ الفرنجة سبيلهم ، وتتوجع وترثى ظاهراً أو باطناً لما يبدو من أحوالهم .

وبلغ حفاظ مى على شرقيتها وقوميتها مبلغا عظيما ، فمع إتقانها

لتسع (١) لغات أوربية كتابة وقراءة ، ومع تمكنها من تلك اللغات تمكناً ندر أن يجتمع إلا للقليل من الناس ، ومع حلاوة تحدثها — مع ذلك كله لم تتكلم مى غير العربية ، ولم تختر للكتابة غير العربية ، وكان فى استطاعتها أن تكتب فى الفرنسية مثلا وتجيد كما أجادت فى ديوان شعرها الأول المسمى « زهرات حلم » "Fleurs de Rêve"

الحق أن مياً كانت تكتب ببعض هذه اللغات الأجنبية فى الصحف والمجلات الأجنبية ، ولكن معالجتها الكتابة بغير العربية لم تكن تظاهراً منها بالعلم وادعاء منها للمعرفة ، ولكنها كتبت لمن لا يعرفون العربية بلغاتهم التى يحسنونها ويعرفونها ، لعلها تستطيع أن تطلعهم على رأى خاص لها أو فكرة تذهب إليها ، أو لعلها تدافع عن تهمة يتهم بها الشرق فلا تجد سبيلا للدفاع بغير لسان أجنبى .

ومن عجب أن يكون ديوان شعرها الفرنسى « زهرات حلم » هو نقطة التحول التى بدأت منها تتجه اتجاهاً عربياً فى الكتابة ، وكأن « مياً » اللبنانية العربية عز عليها أن تهمل لغة آبائها ، ولسان عشيرتها وتكتب بلسان أعجمى .

على أن ذلك لا يعنى أنها انصرفت عن الكتابة بغير العربية كل الانصراف ، فقد كتبت بالفرنسية من حين إلى حين كما أسلفنا ، وكانت

---

(١) ذكر المرحوم العقاد فى الرسالة عدد ٤٣٥ أن ميا أتقنت خمس لغات ، والحق أنها — كما حدثت هى عن نفسها فى هلال أبريل سنة ١٩٢٨ — أتقنت تسع لغات .

تنظم شعراً فرنسيا فى مناسبات تدفعها إلى النظم . ولها نشيد فرنسى نظمته ترحيباً بالطيار الفرنسى فيدرين بمناسبة مقدمه إلى مصر قبل الحرب العالمية الأولى . ولقد لاقى هذا النشيد ترحيباً من الفرنسيين وتقديراً من الصحافة الفرنسية فنشرته صحف باريس الكبرى مع كلمات الإطراء والإعجاب .

كما كتبت بالأنجليزية رواية عنوانها The Shadow on the Rock ونشرت فى مجلة « سفنكس » الأنجليزية .

كما كتبت مقالا بالفرنسية تخاطب فيه عصفوراً صغيراً ، وتعود بعد ذلك فتكتب مقالا بالعربية فى الموضوع نفسه .

وكانت رسائلها بالطبع إلى كتاب العربية بالعربية نفسها ، وكانت الفرنسية أحب اللغات الأجنبية إليها للكتابة بها .

فمىّ لم تهجر اللغات الأجنبية جملة فى سبيل محافظتها على شرقيتها ، ولكنها — على الضد من ذلك — استعملت هذه اللغات التسع لتدافع بها عن الشرق ، ولترى الناس سر المثالية الموجودة فيه ، ولم تستعملها تظرفاً أو تندراً كما يصنع بعض الضعفاء .

ولقد ذكر الأستاذ العقاد(١) أن الأدباء تذاكروا يوماً فى مجلسها مناقب رجل من أعظم الرجالات فى مصر فشاركتهم إعجابهم به وثناءهم عليه ، ولكنها استأذنت بعد ذلك أن تؤاخذه أمامهم على أمر صغير .

ولم تكن مؤاخذة (مى) هذا الزعيم العظيم إلا لأنه بدأ يحادثها

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٤٣٥

باللغة الفرنسية بعد أن قدمها إليه الأستاذ أحمد لطفى السيد ، وأصر هذا العظيم على محادثتها بالفرنسية ، وأصرت هى على الرد عليــــه بالعربية .

فغضبت « مى » ولم يكن غضبها إلا لأن عظيما مصرياً خاطبها بغير لغته ولغتها .

ولقد حدثنى الدكتور منصور فهمى كثيراً عن محافظة مى وخاصة فيما يتعلق بناحية اللغة ، وذلك يدل دلالة واضحة على نضوج الفكرة الشرقية العالية فى نفسها ، ورسوخ العقيدة القومية فيها .

وبلغ من تمسك مى بشرقيتها أنها كانت — كما حدثتنى الكاتبة الفاضلة السيدة أيمى خير — تقدم إلى ضيوفها ، وجلاسها شراب الورد أو شراب البن فى أقداح على طريقة شرقية محبوبة بحيث يشعر الجالس أنه فى دار شرقية .

وكان فى استطاعة مى أن تجارى العصريين فيما ذهبوا إليه من ضروب التحية الأوروبية وألوان الضيافة الغربية ، ولكنها آثرت أن تظل محتفظة بتقليد يدل على احترامها لتقاليد قومها .

* * *

ولمى رأى سديد فى الاقتباس من عناصر المدنية الغربية ، فهى لا تؤمن بأن هناك مدنيات متعددة للشرق والغرب والشمال والجنوب، ولكنها تؤمن بوجود مدنية واحدة تعاونت الشعوب — على غير

اتفاق — أن تتناوب العمل كل فى جانب من جوانبها الموافق طبيعتها[١] فعند الساميين النبوات والرسالات . وعند الآريين ( الهنود والفرس ) الفلسفة الباطنية والالاهيات ، وعند اليونان الفن والفلسفة النظرية ، وعند الرومان التشريع والفقه ونظم التوسع والاستعمار . وجاء العرب فجمعوا هذه الثقافات المختلفة ،وورثوا هذه المدنيات العظيمة وطبعوها بطابعهم .

وترد مى كثيراً من مظاهر المدنية الغربية الحديثة إلى الشرق القديم ، وتفخر بأن الأشوريين والبابليين أول من وضع أساس الهندسة ومبادىء الفلك والرياضة وحفر الخنادق . وأن المصريين أول من وضع الأنظمة ونسق الإدارة[٢] ، وأن القوانين الحديثة ترجع فى سلسلة النسب إلى تلخيص الفرس قوانينهم من القانون المصرى القديم .

وعلى هذا الأساس لاترى مى[٣] أية غضاضة على الشرق فى اقتباس الأنظمة الأوربية ، والمنافع العلمية ، وأساليب العمران ، ووسائل التجارة . وترى أننا إذا تخلفنا عن الانتفاع بما يبديه الغرب من نشاط وحياة سجلنا البله على نفوسنا ، والخمول فى عزائمنا . وكان أولى بنا أن نرجع إلى ركوب الظعائن فى البيداء والسكنى تحت الخيام .

وحينما تدعو مى إلى مجاراة الغرب فى ميدان الحياة والنشاط

---

(١) كتابها بين الجزر والمد ص ١٧٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٧٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٧٤ .

والكفاح والنضال فأنها لا تنسى شخصية الماضى فى الشرق ولا تنسى مثله العالية ، ولا تنسى طهارة أرضه التى شرفتها الرسالات ، ولاقدسية سمائه التى نزلت منها النبوات .

ولا ترى مى فى قدسية الشرق وعراقته موضعاً لأن يصرفنا ذلك الفخار عن السير فى مضمار الحياة المادية التى نحياها ،وتقول فى عبارتها الجميلة فى كتابها « بين الجزر والمد »:( عندناعادات جميلة ووراثة أثيرة تحسن المحافظة عليها غير أنها لا تكفينا . ليتغن بها الشعراء ولينشدها المنشدون ولينح عليها محبو الندب والنواح .. ولكن مهماز الحياة وراءنا ، واقتباس المحتوم لا يغض من كرامة الأمم لأنها مركبة من روح وجسد.فشعرها وفلسفتها وفنونها وألاهياتهاوأديانها وتذكاراتها الثمينة كل هذا بمثابة غذاء الروح.أما الحياة المدنية منها،الحياةالمحسوسة فلها أساليبها الآلية والمالية والاقتصادية والاجتماعية ) .

* * *

كانت مى محافظة على الروح الشرقية بالرغم من اطلاعها الواسع على الآداب الغربية ، ولا تجد هى نفسها فى الجمع بين الاثنين تعارضاً أو تناقضاً ، بل على الضد من ذلك ترى أن دراسة الأدب الغربى تزيدنا تعرفاً بالعالمواستيحاء[1]. فلماذا لايدرس العربى الآداب الغربية ويظل أدبه عربياً ؟ ألم يأخذ « داتى » فكرةمسرحيته من مصادر عربية ومع

(١) بين الجزر والمد ص ١٧٧ .

ذلك فقد ظل أدبه إيطالياً ؟ ثم ألم يأخذ شعراء فرنسا فى القرن السابع مصادر وحيهم من آداب غريبة عنهم ومع ذلك فقد ظل أدبهم فرنسيا؟

ومن هنا نفهم السر فى حفاظ مى على شرقيتها وعربيتها على الرغم من ازدحام المعارف الأوربية والثقافات الغربية فى رأسها ، فهى لم تأذن لهذه اللغات أن تزاحم مكان العربية ، ولم تأذن لثقافة الغرب أن تطغى على شرقيتها . وهى لم تطلع على الآداب الغربية — كما تقول — لتقتبس بل لتتعرف وتستوحى .

ومى حينما تمجد روحانية الشرق وتسبح بمعنوياته لم ترده أن يكون وطناً للتبتل والزهد ، ودارأ للرهبنة أو تكية للعجزة الوكلين، ولكنها تريده ألا ينسى نصيبه من الدنيا ، وألا يعتزل فى ركن ركين سابحاً فى أحلامه وأوهامه ، ومتغنيا بأناشيد مجده القديم ، ومكتفياً بما كان من غير أمل فيما سيكون .ولها فى ذلك عبارة جميلة:( لقد أعطى الشرق الغرب أدياناً وأخلاقاً وفلسفة إلهية وأنبياء وإلاها فتلقاها الغرب شاكراً وارتقى بها . أفيخجلنا أن ننتفع باختباراته الدنيوية وعلمه ، والدنيا دنيا الجميع كما أن الله خالق الجميع )[١].

ولقد كانت كل كلمة تقولها مى فى سبيل الشرق نشيداً يصلح لأن تتغنى به النفوس الضعيفة فيبعث فيها القوة والكرامة،وكانت أناشيدها للشرق مزيجاً بين الفخار والحماسة ، فهى تفخر بماضيه وتدعو النفوس إلى اليقظة وإلى نفض الكرى عن العيون،حتى يتفتح أمامها جمال العالم الوسيع

---

(١) بين الجزر والمد ص ١٧٩

وتقول: ( بنسيم[1] وطنى امتزج الوحى والنبوات ، ومع أشعة الشمس فيه انتشرت سور الجمال ) .

وتناجى الشرق بقولها :

( أيها الشرق ! يا شرقى الكبير الرهيب الرؤوف

يا شرق الطرب والحيا والنخوة والشدة العاصفة كريح السموم !

إنك لتتجمع تحت نظرى كلوحة مصورة ، فأرى منك الفقر ، والجهل ، والاضطراب، والاحتدام ، والانفعال . ليس فيك فيض الثروة ومعجزات الحضارة. ربوعك خالية مما لدى الأقوياء من صروح ومعاهد ومصارف ومعامل . ربوعك خالية من المتاحف والخزائن والودائع المجلوبة من قصى الأنحاء .

إنك جاهل فقير مفكك الأوصال

ورغم ذلك فأملى بك عظيم كالحياة والحرية ! )

وتدعو الشرق النائم إلى النهوض بقولها :[2]

( ها قد جاء وقت النهوض ! فإلى النهوض رغم النوائب والمثبطات ! إلى النهوض ! حولك الأقوياء يكافحون ويجاهدون ويغنمون . وهم رغم ذلك يئنون فى الظلام « هناك فجر منتظر لم يلح بعد ! »

. . . أنت برج الفجر ، أيها الشرق ، أنت مزجى الأشعة !

فقم واعمل ! قم وارقب من أى أنحائك يلوح مشعل الضياء ) .

(١) ظلمات وأشعة ص ١٤٣ .

(٢) بين الجزر والمد ص ٨ .

كانت مى — رحمها الله — تؤمن بالنهضة الشرقية ، وترى أن دوافعها حاضرة عتيدة ، وأن هذه النهضة لم تكن فوراناً وقتياً ، بل هى ماضية فى سبيلها ، وأن أكبر دوافع هذه النهضة هو الاحتلال الذى نكب به الشرق ، وما دامت الأذهان سائرة فى طريق التنور والتيقظ لمعنى الحرية فستظل النهضة سائرة لا يستطيع أحد مقاومة صداها الرنان المتفشى فى النفوس[1] .

وكانت ترى أن الصراع بين الشرق والغرب سيظل متتابعاً بين الفريقين ، فالغرب يدافع عن ثروته وحياته ، والشرق المتيقظ يطلب كذلك ثروته وحياته[2] .

(١) بين الجزر والمد ص ١٦٩ .

(٢) بين الجزر والمد ص ١٧١ .

# مي والفكرة العالمية

كانت مي شرقية مؤمنة بقيم الشرق ومثله العالية ، وكانت محتفظة بتقاليد الشرق مع حسن الاقتباس عن الغرب فيما يعلي الحياة الشرقية ويكمل نقصها في المادة والآلة والاجتماع وغيرها .

ولقد كانت مي لبنانية بأصلها ، مصرية بنشأتها ، عربية بلغتها . ومن هنا تنازعها وطنان : لبنان وجباله ، والنيل وجماله ؛ إلا أنها آثرت أن توسع نظرتها في التقسيم السياسي فجعلت الشرق كله لها وطناً ، وكلمة الوطن عند مي تعني الشرق كله .

والحق أن مياً كانت موزعة القلب والحب والعواطف بين مصر ولبنان . ولها في « نهر الصفا » المتدفق عند قدم الجبل هناك نشيد يدل على مبلغ تعلقها بالتربة اللبنانية الخالدة ، ولقد جمعت من أعماق النهر اللبناني بعض الحصى الملونة الجميلة ووجهت إليها الكلام قائلة : ( أيتها الجواهر ! سأحملك معي إلى وادي النيل ، لتذكريني بالعواطف الكثيرة التي تلاطمت في فؤادي أمام نهر الصفا . . أنت ذكر الأبدية التي حييت فيها لحظة ) .

وكانت هذه اللحظة التي وقفتها مي أمام النهر المتدفق إلهاماً لنشيد خالد كأنه ترانيم مياه النهر على البطحاء والرمال والصخور . .

لقد أحرقت الرمال الملتهبة قدمي هذه الشاعرة ، ومزقت يديها

أشواك الحياة فأدمتها الجروح الداميات . . فوفدت على « نهر الصفا » بلبنان تستخلص من أعشابه بلسما لجراحها . . وتغسل غبار المادة عن جسدها بمياه النهر المقدسة(١) .

ولها فى مصر كذلك نشيد خالد عنوانه « عند قدمى أبى الهول » أبدعت فيه ما شاء لها الإبداع فى استعراض مفاخر التاريخ المصرى القديم ، وحاولت فى سلسلة من الأسئلة أن تعرف سر أبى الهول الصامت ، وأن تفتح مغاليق قلبه ، وأن تعرف إلى أى حقيقة رمز به الرامزون . وتسأله عن سر الأهرام ، وهل شيدها المصريون منائر للصحراء أم مدافن للفراعنة أم حصون دفاع أم مستودعات كنوز أم مجتمع عشاق(٢) ؟

وكان لمى مشاركة فى مصائر مصر ولبنان السياسية والاجتماعية والأدبية ، فلبنان يشغلها ، ومصر تهمها . ولا أظن أن « المجمع اللغوى المصرى » عناها يوماً أكثر مما عناها « المجمع العلمى العربى بدمشق » أو « المجمع العلمى » ببيروت .

ولا أظن كذلك أن اهتمامها بالأدب فى الشام ومتابعة نهضته كان أقل من اهتمامها بالأدب فى مصر(٣) .

ووراء هذين الوطنين كان يشغلها الوطن الأكبر وهو الشرق الذى طالما تغنت مى بآثاره وأخباره . وعلى أساس هذه النظرة لم تكن مى

(١) ظلمات وأشعة ص ٢١ .

(٢) ظلمات وأشعة ص ١٥٥ .

(٣) بين الجزر والمد من مقال عنوانه : تكلموا لغتكم ص٨٦ .

لتشغل نفسها بمنازعات السياسة المحلية فى مصر أو الشام إلا بالقدر الذى يتيح لها الاشتراك فى أمور وطنها .

ولهذا كانت سياستها التى يصح تطبيقها على كل قطر من أقطار الشرق أن يتاح لهذه الأقطار أن تصحو من رقادها الطويل وسباتها العميق ، وأن يكون الشرق كله كتلة واحدة تقوم وتستيقظ لتعيد الصحو والتيقظ والتنبه إلى النفوس بعد خمود طويل .

وكانت مى تعطف العطف كله على قضايا الشرق السياسية ومسائله، ووسائله لنيل الحرية ، وكان عطفها على القضية المصرية عطفاً محموداً تجلى فيما كانت تكتبه .

وتبدو الفكرة الشرقية واضحة فى مقال كتبته مى بعنوان «اليقظة»(١) تحيى به يقظة الأمة المصرية ونهوضها المطالبة باستقلالها بعد انتهاء الحرب العظمى . فقد انساقت مى من الحديث عن مصر إلى الحديث عن الشرق ، وكان أكثر من نصف المقال مناجاة للشرق واستنهاضاً له على القيام والعمل .

* * *

وتتسع فكرة الوطنية عند مى رويداً رويداً ، فتنتقل من مصر ولبنان إلى الشرق العربى ، ومن الشرق العربى إلى الشرق كله قاصيه ودانيه ، ثم تنتقل من الشرق متخذة لها وطناً أوسع وأرحب ، وأرضاً

(١) بين الجزر والمد ص ١

أطول وأعرض — إلى العالم كله من مشرقه إلى مغربه ، ومن شماله إلى جنوبه . . .

ويظهر أن هذا الانتقال الواسع إلى فكرة العالمية قد وجد طريقه إلى مى بعد السنوات العشر الأولى من حياتها الأدبية ، فقد كانت فى تلك السنوات شرقية الوطن ، ولم تتسع فى خلال تلك السنوات آفاق نظرتها إلى العالم

وبدأ هذا الاتجاه فى « الوطنية العالمية » يظهر عند مى بعد الحرب العالمية الأولى بثلاثة أعوام أو أربعة .

ولذلك أسباب وأسباب . . . فى ميلاد مى وفى نسبها وفى اختلاف مذهب أبويها الدينى ما يعين على اتساع نظراتها إلى الأشياء . .

لقد ولدت مى فى بلد ، وأبوها من بلد ، وأمها من بلد وانتقلت فى السكنى من بلد إلى بلد ، وأشباح نفسها تنتقل من بلد إلى بلد ، فإلى أى هذه البلدان تنتمى ؟ وعن أى هذه البلدان تدافع[1] ؟

ثم تتسع النظرة عند مى فترى أن كل أمة تتحدث عن عظمتها وكل دولة تفتخر بتاريخها ، وكل جماعة تخبر عما أسدته إلى المدنية والإنسانية فتقف متسائلة فى عجب : أى هذه الأمم أحق بالفخر ؟ وأيها أولى بالعظمة ؟ وأيها كان أكبر نصيباً فى الحضارة ؟

وتصبح عواطفها موزعة بين الأمم ، نهباً بين البلاد فتقول : ( ما سمعت وصف بلاد إلا سعى إليها اشتياقى ، ولا حدثت عن بسالة

---

(١) ظلمات وأشعة ص ١٤٠

أمة وسؤددها إلا تمنيتها أمتى ، ولا أصغيت إلى صوت قوم إلا خلته صوت يأسى وأملى .

ولا تخيلت مسافات الأرض وأبعاد الفلك والصحارى والبحار والكواكب والعوالم إلا اهتاجنى الحنين إليها ، كأنها أوطان يردد هواؤها ترنيمة طفولتى ، وتنتظرنى فيها قلوب الأحباب والخلان ) .

ولا شك أن اتساع آفاق الثقافة عند مى كان له أثر فى اتساع آفاق وطنيتها ، فالعالم كله وطن لمى لأنها لا تفهم من الوطنية هذه الحدود الوهمية التى تصطلح عليها الدول لتقيم الفوارق بين بعضها بعضاً .

ولقد تحدثت هى عن ذلك مع الكاتب سلامة موسى[1] فقالت : (لعل معرفتى لتسع لغات قد زادت فى حدود وطنيتى ، وجعلتنى أنظر إلى العالم كأنه وطنى الأكبر . ولعل سياحتى فى أوربا قد زادت فى نفسى هذه العقلية ) .

وترى مى أن هذه النزعة العالمية هى أرقى النزعات ، أو بعبارة أضبط هى نزعة فئة راقية من الكتاب ، وتعترف أن الكاتب من هذه الفئة لفرط رغبته فى الثقافة العالمية يكاد يناقض نفسه عندما تنزع به النزعة الأولى الوطنية[2] .

وقد يكون هناك سبب آخر لفكرة مى العالمية ، ولكنها لم تشر

(١) مجلة الهلال عدد أبريل سنة ١٩٢٨ ص ٦٦٠ .
(٢) المصدر السابق .

إليه فيما أشارت من مقال أو حديث ، وأظن أن الحرب العالمية الأولى وما جرته من الخراب والتهديم بسبب ظهور القوميات والوطنيات الصغيرة كانت عاملا من عوامل التوسع فى الوطنية عند مى .

وكأن منطقها كان يقول : إذا كانت الوطنيات الصغيرة والقوميات المختلفة قد سببت للعالم حرباً ضروساً طاحنة اكتوى بنارها المذنب والبرىء على السواء ، فإن الوطنية العالمية الواسعة الحدود أضمن طريق لنشر السلام وحفظ المودة بين أبناء الإنسانية .

## مى والأديان

ولدت مى من أب ماروني وأم أرثوذكسية فى الناصرة بلد المسيح عليه السلام ، ومن هنا لم يكن عندها مجال للتعصب لأحد المذهبين ، وتكاد العبارة السابقة تكون نص ألفاظها فى حديث لها نشر بمجلة الهلال(١) .

ولم يعرف عن مى تهاون فى أمور دينها أو زيغ فى عقيدتها ، بل كانت متدينة كثيرة التدين ، ولم تزعزع الأحداث الأخيرة التى اصطلحت عليها شيئاً من ثبات إيمانها ، بل زادتها إيماناً وثباتاً . وهى فى ذلك تشبه لدويج فان بتهوفن مع فرق بسيط .. فإن ذلك الموسيقى العبقرى استسلم لليأس وتعرض إيمانه للضعضعة عندما انتابته الآلام ، ولكنه عاد بعد ذلك فصفت نفسه الثائرة وظهر صفاؤها فى ألحانه الأخيرة .

أما « مى » فلم يضعف إيمانها يوماً واحداً ، ولا قطعت الآلام الأخيرة حبل تدينها المتين .

وقد أكد لى ذلك كثير من المتصلين بها ، وخاصة المرحوم العقاد الذى أكبر فيها هذه الناحية(٢) . والذى أكد لى أن مياً لم تكن مؤمنة

---

(١) الهلال عدد أبريل سنة ١٩٢٨ .

(٢) راجع حديث العقاد فى هذا الكتاب .

بقلبها وعواطفها فقط كما يفعله كثير من الناس ، بل كانت متدينة بعقلها وتفكيرها . لم تنخدع مى بما قرأت من كتب الملحدين والهدامين ، وكثيراً ماقرأت كتبهم لتعرف مرامى كلامهم واتجاه حديثهم ولكنها لم تتأثر بواحد منهم ، ولم تجد هذه النزعات الإلحادية طريقاً إليها ، وكانت تناقش فى الدين ، وتناظر فى اللاهوت ، ولكنها كانت دائماً عن صفوف الملحدين بمعزل ، وعن جانب اللادينيين بمنأى بعيد .

ولكن ميا المسيحية المحافظة على تعاليم دينها لم يكن ليضيق صدرها بما رحب من الديانات الأخرى ، ولم يعرف التعصب سبيلا إلى عقلها الواسع وقلبها السمح . فهى تحترم الإسلام وتشيد بفضله ، وتحترم شريعة موسى ، وتحترم كل شريعة تحض على الخير وتدعو إلى السلام والأمان. فى خطبتها التى ألقتها بالنادى الشرقى بالقاهرة سنة ١٩١٤ ، لم يفتها أن تشير إلى موقف الإسلام من المرأة « فرفع من شأنها أى رفعة فى بلاد العرب . إذ حرم وأد الفتيات ، وسواها بالرجل فى جميع الحقوق والواجبات إلا فى الشهادة والميراث ،فان امرأتين تساويان رجلا. وفيما عدا ذلك فهى والرجل سواء فى جميع الحقوق المدنية ، ويقول العارفون إن لها الحقوق السياسية أيضاً . وللمسلمات أن يكن فقيهات . وكانت أول فقيهة منهن عائشة زوجة صاحب الشريعة الإسلامية الذى قال لقوله : خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

وفى خطبة لها فى تكريم الأستاذين محمد الخضرى ومحمد المهدى بمناسبة انتهاء ندبهما لتدريس التاريخ الإسلامى والأدب العربى فى الجامعة المصرية القديمة وقفت مى تشيد بالمسيحية والإسلام وتقول فى سماحة

وإنصاف : « إذا ذكر الإنجيل انحنت الرءوس إجلالا ، وتجمهرت النفوس حباً حول السيد المسيح أستاذ الرحمة والغفران ، وكفى التلفظ باسم القرآن لتهتز القلوب طرباً على وفق الآيات والأسجاع مرتلة مع السور اسم النبي العربي » .

وفى مناسبات الخير والإحسان كانت مى دائماً تلاحظ تلك الأخوة الإنسانية التى تربط بين إنسان وإنسان ، بغض النظر عن اختلاف الأديان : «وبلا تفريق بين المحمدى والعيسوى والموسوى والدهرى» .

ولعل هذه النظرة السمحة إلى الأديان والشرائع هى أثر من آثار العقلية الواسعة التى اكتسبتها مى من دراساتها الأوربية المختلفة ومن أسفارها ورحلاتها ، ومن ظروف مولدها التى قضت عليها ألا تكون متعصبة . ولقد أنصفت « مى » الإسلام حينما تعرضت للكلام عن مبادئه الديمقراطية وأساليبه الديمقراطية فى بحثها الممتع من كتابها « المساواة »[1] .

وترى فى اتخاذ ملوك المسلمين زوجات شرعيات من جواريهم أتم مظهر من مظاهر الديمقراطية ، كما ترى فى ارتفاع أفراد من الطبقة الدنيا إلى أسمى المناصب مظهراً آخر من مظاهرها فى الإسلام . وإن كانت لم توف البحث حقه من هذه الناحية ، ففى القرآن آية هى لب اللباب فى الديمقراطية هى قوله تعالى: (يا أيها [2] الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى

---

(١) المساواة صفحة ٨٤ .

(٢) سورة الحجرات آية ١٣ .

وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ) .

وأنصفت « مى » البوذية كذلك — وهى ديانة غير سماوية — لأنها تدعو إلى المساواة بين الناس .

وتبدو سماحة ( مى ) وبعدها عن التعصب الدينى الممقوت حينما تعالج موضوعاً يتعلق باللغة العربية ، فهنا يظهر تحمسها للغة التى سنبين فى فصل تال مبلغ غرامها بها وإشفاقها عليها ، وهنا تذكر القرآن وفضله على المدنية القومية والحضارة العربية ، وهنا يصح أن ندون نص عباراتها حيث تقول :(إن الذى كان باعثاً على تكوين المدنية العربية هو هو الذى مازال حافظها إلى اليوم : هو القرآن .

لذلك ستظل اللغة العربية حية مادام الإسلام حياً ، وما دام فى أنحاء المسكونة ثلاثمائة مليون من البشر يضعون يدهم على القرآن حين يقسمون )[1] .

كانت مى ترى فى الأديان كلها خيراً على العالم وبراً بالإنسانية ، فهى لهذا تنصفها ، ولا تنكر عليها وجوه الخير والبر والجمال فيها ، ولكنها لم تشغل نفسها بمناقشات تفضى إلى الموازنة بين عقيدة وعقيدة ، ولم تضيع وقتها فى مجادلات تصل إلى تفضيل مذهب على مذهب .

وكانت لبقة كيسة حينما تكتب فى موضوع يتصل بالأديان من

---

(١) بين الجزر والمد ص ٣٦ .

قريب أو بعيد، فالمسيحى يقرؤها وهو راض عنها لأن فكرتها فكرته. والمسلم يقرؤها وهو راض لأنها تنصف ملته وتحترم عقيدته، ولو أتيح لبوذى أن يقرأها فلا أشك فى أنه سيرضى عنها لأنها تكتب لكل إنسان، ولجميع الأديان. ولقد تعرض بعض الكتاب لسخط الجماهير من القراء — وغير القراء — لأنهم لم يلتزموا الحرص فى كتاباتهم، ولأنهم أباحوا لأنفسهم من حرية الفكر ما تضيق به سعة المذاهب.. إلا ميا، فما أثارت مسيحياً وهى متدينة، ولا أغضبت مسلماً وهى مسيحية.

لقد كانت مى — كما قال الكاتب سلامة موسى فى مقدمة كتابها «بين الجزر والمد» — تساير الشباب فى تشوفه إلى صوفية طليقة من القيود المذهبية والفروق الدينية التى كثيراً ما مزقت الوحدة الوطنية والرابطة القومية. وطالما تمنت مى أن[1] (يهدأ يوماً ثائر العواطف المتطرفة، وتتوازن قوى الإنصاف، فيرتفع المرء بإدراكه إلى أفق يشرف منه على جميع النزعات الإنسانية) وتنعى على الناس أن يسموا ماعند غيرهم تعصباً ويسموا ماعندهم غيرة ونخوة وحمية، والحق أنه تعصب فى الحالين، ومماثلة عند الطرفين، ولكن الناس يغالط بعضهم بعضا.

وتنتظر مى اليوم الذى ينسى الناس فيه اختلافات المذاهب، وتتساءل متى يقولون مع الشاعر:

هذى المذاهب كلها دين الهدى ... كأشعة الشمس اقترن على مدى
والملتقى فى مصدر الأنوار[2]

(١) باحثة البادية ص ٤٠.

(٢) باحثة البادية ص ٤١ والشعر لخليل مطران.

# مي واللغة العربية

كانت مي بارعة في بضع لغات أوربية براعة شهد لها المتصلون بها والسامعون لها والقارئون لما كتبت في هذه اللغات .

وكان ديوانها الفرنسي « زهرات حلم » أول ما ظهر من آثارها في الفرنسية ، أخرجته وهي في ميعة صباها ونضرة شبابها ، ففيه كثير من حرارة الشباب وعواطفه وآماله العريضة الواسعة ، وفيه تأنق في صوغ العبارة الفرنسية صوغاً لا يقل عن تأنق الفرنسيين أنفسهم .

نجحت مي في ديوانها ، واطمأنت على قدرتها في الكتابة بالفرنسية ، فظلت بعد ذلك تنشد المقطعات والقصائد والأناشيد ، ولقد أشرنا إلى النشيد الذي صنعته للطيار الفرنسي فيدرين ونشرته صحف باريس الكبرى .

وحدث في عام ١٩١٣ أن دعيت مي لتلقي خطبة جبران خليل جبران في تكريم الشاعر خليل مطران . فألقتها وعقبت عليها بخطبة من كلامها كان لها في النفوس أجمل وقع ، فزادت حفاوة الحاضرين بها من حماستها ، وشجعها ذلك على المضي في دراسة العربية .

واتصلت مي في ذلك الحين بالمرحوم أنطون الجميل ، وكان يصدر مجلته « الزهور » ، فكتبت لها بعض المقالات التي رحبت بها المجلة وفسحت لها صدرها ، ومن هذه المقالات « ذكرى بعلبك » و« الغنى » و « دمعة الروح » و « كيف نقيس الزمان » .

وفى سنة ١٩١٦ بدأت مى تنشر سلسلة من الأبحاث الانتقادية الرائعة عن باحثة البادية المرحومة ملك حفنى ناصف كريمة العالم اللغوى الأديب الشاعر المرحوم حفنى ناصف ، فلقيت هذه الفصول الممتعة ارتياحاً من القراء مكن لها فى شهرتها الأدبية . وأخذ نجمها منذ ذلك الحين يتألق فى سماء الكتابة العربية .

على أنها فيما بين عامى ١٩١٢ ، ١٩٢٠ اعتلت المنابر خطيبة فصيحة ، تارة على منابر لبنان وأخرى على منابر مصر ، وكان لمدينة طنطا نصيب طيب من مواقفها الخطابية ، فزادتها هذه المواقف حباً للغة العربية ، ولعلها كانت تجد من إعجاب السامعين بها وثنائهم عليها ما يشجعها على المضى فى الخطابة بالعربية . وسنعود إلى موضوع مى الخطيبة بعد قليل .

وكانت مى بعد اتجاهها وتحولها إلى العربية محبة لها كل الحب ، شاغلة نفسها بمسائلها ومشكلاتها ، ومقترحة وسائل لإصلاحها وجعلها متمشية مع مقتضيات العصر وتطور الزمان .

ولها مقال يدل على دراسة عميقة واستيعاب لحضارات الأمم عامة وحضارة العرب خاصة عنوانه « حياة اللغات وموتها ولماذا تبقى العربية حية ؟ » تناولت فيه موضوع اللغة والحضارة ، وتعرضت لحضارات اليونان والرومان والعرب بكلام يدل على اطلاع واسع ، وأثبتت فضل العرب على الإنسانية مؤيدة كلامها بأمثلة من واقع التاريخ ومن صحيح الوقائع . وذكرت أن اللغتين اليونانية واللاتينية عدتا فى صف اللغات الميتة منذ سقوط مدنيتهما ، وأن العربية احتفظت بحياتها بعد

زوال مدنية العرب بسبعة قرون ، وردت ذلك إلى القرآن الكريم الذى كان باعثاً على تكوين المدنية العربية والذى ما زال حافظاً لها وللغة العربية إلى اليوم(١) .

لقد أخذت مى ببلاغة القرآن وسحرتها فصاحته ، والقرآن هو أعلى مثال للسان العربى المبين ، لذلك تجدها فى معرض الكلام على اللغة العربية تبدى إعجابها بفصاحة القرآن ، وتعزو استقامة ألفاظ المسلمين وجمال منطوقهم وفخامة أسلوبهم الكتابى إلى استظهارهم آى الكتاب صغارا واستشهادهم بها كباراً (٢).

وكان يعجبها من « باحثة البادية » ومن أقلية لبيبة من الكتّاب استعمال الآية القرآنية عند الحاجة فى أسلوب خاص ، أو محاولة التسامى إلى استعمال جمل ذات تفصيل قرآنى وموسيقى قرآنية(٣) .

ولقد شغلت مى حيناً « بالمجمع اللغوى » القديم الذى كان ينعقد فى دار الكتب المصرية بدعوة من مديرها المرحوم أحمد لطفى السيد ، وكأنها كانت متابعة لجلساته . فلما شغل أحمد لطفى السيد بالسياسة وانضم إلى الوفد المصرى عطلت جلسات هذا المجمع . فعز على مى ذلك التعطل وحثت الأعضاء على أن يجتمعوا فى منزل واحد منهم أو فى مكتبة أحمد زكى « باشا » ، ولامتهم على أن يتركوا مشروعاً جليلا كهذا يغرق فى الماء أو يطير فى الهواء كأكثر مشروعاتنا الشرقية . .

---

(١) بين الجزر والمد ص ٣٥ و٣٦

(٢) باحثة البادية ص ٦٥

(٣) الباحثة ص ٦٥

ولقد أثارت كلمة مى الأولى عن المجمع اللغوى موضوعاً للمناقشة على صفحات جريدة « الأيجبشيان ميل » ، وبدا من هذه الجريدة — أو بعبارة أصح من كاتب فيهـــا — ما أثار غضبة مى ، ومى إذا غضبت غضبة مضرية لم تهتك حجاب الشمس أو تقطر الدما كما قال الشاعر العربى قبلها . . ! ولكنها هتكت أستار الذين تهكموا من مهمة المجمع لوضع أسماء عربية للمسميات الحديثة .

فمى كانت تميل إلى فكرة استعمال ألفاظ عربية بدلا من استعمال كلمات أفرنجية ليست من لغة العرب ولا من أوزانها وصقلها فى قليل أو كثير ، وتدافع مى عن رأيها هذا بقولها ( لماذا لا يجوز للمجمع اللغوى ولكل كاتب عربى أن يؤثر استعمال ألفاظ عربية دون التعبيرات الأفرنجية ؟ أليست الحال كذلك عند جميع الشعوب ؟ ) وتؤاخذ مى الجريدة الإنجليزية على موقفها التهكمى من المجمع اللغوى قائلة : ( ألا تذكر الأجيشيان ميل أن الأنجليز أنفسهم يفضلون الكلمة السكسونية الأصل على الكلمة اللاتينية ؟ وأن كبار كتابهم إذا وجدوا أمامهم كلمتين اثنتين تؤديان المعنى تماماً إحداهما سكسونية والأخرى لاتينية سارعوا إلى استعمال الكلمة الأولى لأنهم يرونها أفصح وأبلغ ، فلماذا ينكر علينا ما هو فى نظرهم عين البلاغة وكل الحق ؟)[١].

والحق أن مياً كانت بليغة فى دفاعها هذا ، وكان الحق كله فى جانبها

---

(١) بين الجزر والمد ص ٤٠

والحجة بين يديها ، وكأنها كانت فى دفاعها تنطق بما قاله شاعر النيل محمد حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية :

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية      وما ضقت عن آى به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة      وتنسيق أسماء لمخترعات ؟

ولقد بلغ من حب مى للعربية وتفكيرها فى النهوض بها إلى ما يساير الزمن السيار والفلك الدوار أنها كانت تهتم اهتماماً عظيما بالمجامع العلمية العربية .

وهذه المجامع لم يكن لها بالطبع صبغة العلوم Science كمجمع تقدم العلوم البريطانى مثلا ، ولكنها سميت بالمجامع العلمية — كمجمع بيروت العلمى أو كالمجمع العلمى العربى بدمشق — على الطريقة القديمة التى تسمى كل متخرج فى الأزهر أو فى القضاء الشرعى « عالماً » .

رأت مى بعض آثار المجمع اللغوى القديم فأحبته ، ويظهر أنها كانت معنية كل العناية بما يدور فيه من مناقشات أو بما يجد من مصطلحاته ، ولقد أثنت على ثبت بمصطلحات علوم الفلسفة الحديثة ، وضعه المرحوم أمين واصف أحد أعضائه[1] .

وفى سنة ١٩١٩ لفجر الحركة القومية والنهضة المصرية اعترضت أشعة هذا الفجر المضىء خيوط من الظلام حاكها جماعة من الذين يرون أن اللغة العربية صعبة التعلم ، وأن العامية أصلح للتعبير وأقدر على أداء مهمة التخاطب والكتابة من العربية . وكان «اسبيرو بك» أحد الذين حملوا معاول الهدم فى أيديهم .

(١) بين الجزر والمد ص ٤٥

فقامت مى وغضبت غضبة مضرية ثانية ، وقالت فى صوت قوى تلوح فى نبراته القوة والاعتزاز بالماضى: (الإصلاح ليس الهدم دواماً . بل هو فى الغالب تبديل وصقل وتكييف ، إذ ليس فى صالح الأمة إنكار الماضى الزاخر بالمجد الأدبى والحكمة) وقالت بعد كلام: (أما نبذها — تعنى العربية — والاستعاضة عنها باللغة العامية فاعتراف بالعجز والخذلان . لأن اللغة تنتعش بانتعاض الأمة وتجمد بجمودها [1]) .

ولقد كانت مى فى دفاعها عن اللغة العربية هذه المرة أكثر قدرة وأوضح حجة من المرة السابقة ، وأظنها كانت محامية داهية .. ومدافعة قوية ، فالأدلة عندها حاضرة ، والأمثلة لديها معدة مهيأة ، وسخريتها الرقيقة الناعمة تلطف من حدة النقاش ، ولذعة الجدال . فهى تقول : ( الشعب يقول « تلتوار »[2] و« ترمبيل » و« سمس » و« سجر » و« ماراتزمو » . أيكون إنعاش اللغة بمثل هذه الألفاظ التى تعد بالمئات؟ أتجديد هذا وترقية ؟ أم هو مسخ وتشويه ؟ )[3] .

كانت مى ترى فى العامية خطراً على الفصحى، ولم تأذن للأولى أن تدخل حرم الثانية وهو مقدس.ولم تجر مع الجارين فى سبيل مناصرة العامية.ولم تحرم مى استعمال العامية فى الشوارع وفى غيرها مما يسهل معه التخاطب بها ،

---

(١) بين الجزر والمد صفحة ٥٢ .

(٢) التلتوار هو الرصيف ، والترمبيل هو السيارة ،والسمس والسجر هما لفظا الشمس والشجر عند بعض العوام الذين يجعلون الشين المعجمة سيناً مهملة والماراتزمو هو مرض الروماتزم .

(٣) بين الجزر والمد صفحة ٥٦ .

لكنها حرمت تسجيلها فى اللغة الراقية خشية أن تفسد عليها جمالها وتهذيبها . ومن هنا نرى الذوق اللغوى عند مى سليما مهذباً . ولم تقتصر سلامته وتهذيبه على ما كانت تكتبه بل ظهر ذلك فى حديثها الذى دل على لطف نفسها وسلامة فكرها .

ولا يفهمن القارىء من هذا الموقف النبيل الذى وقفته مى من اللغة العربية واللهجة العامية أنها كانت متزمتة متصلبة ، أو أنها كانت «شيخة» أكثر من الشيوخ أنفسهم . . . أو أنها كانت متطرفة إلى أبلغ غايات التطرف ، ولكنها كانت قواما فى رأيها مع احترام القواعد والأصول ، ويظهر اعتدالها فى قولها : ( وما نطمع فيه ويعمل له التعليم والتهذيب هو رفع العامة إلى فهم أوسع وأحذق ، والنزول ببعض الخاصة إلى ميدان أسهل ليتم فى اللغة ما هو تام بين المراتب من التمازج )[١] .

ولا شك أن ميا قد عانت — كما يعانى كل متعلم — صعوبة النحو العربى ، وأدركت ما فيه من خلاف فى المذاهب بين البصريين والكوفيين ، والمتقدمين والمتأخرين .. وأدركت كذلك الزمن الطويل الذى يضيع فى فهم مسائل النحو المعقدة وموضوعاته الصعبة ، وهى حين تشير إلى صعوبة العربية لا تنسى أن تشير إلى صعوبة النطق فى الإنجليزية ، وبلبلة الأبجدية الألمانية ، وصعوبة الكتابة الفرنسية صعوبة لا شبه لها فى اللغة العربية[٢] .

---

(١) المصدر السابق صفحة ٥٧ .

(٢) المصدر نفسه .

ولهذه الصعوبة التى لاقتها « مى » فى نحو العربية أثر فى اقتراحها على المجمع اللغوى القديم تلخيص القواعد فى كتاب واف على اختصاره، على نحو ما يفعل الأفرنج ، حتى يتاح لمتعلمها الإلمام بها وصحة الكتابة بها فى زمن قليل[1] .

ولعل مياً — وقد مضى على اقتراحها أكثر من واحد وأربعين عاما — كانت أول المطالبين بتيسير قواعد اللغة العربية ، فالله يجزيها عن أساتذة اللغة وتلاميذهم وعن اللغة نفسها أحسن الجزاء .

---

(١) المصدر السابق صفحة ٥٨ .

# أسلوب مي

لا شك أن مياً تميزت بأسلوب خاص له طابعه وله مميزاته التى جعلته فريداً فى الأساليب .

ولكل كاتب بالطبع طريقته التى يعرف بها وتعرف به ، وخاصة زعماء الكتابة الذين يحبون أن يكونوا متبوعين لا تابعين ، ومقلدين لا مقلدين .

ولقد استطاعت مى أن تخلق لها طريقة خاصة بها فى الكتابة ، وأن تنشىء لها طرازاً من الأسلوب استقل بشخصيتها ، ولم يشركها فيه أحد غيرها ، فإذا تليت عليك فقرة من فقراتها أو جملة من جملها قلت على الفور : هذا أسلوب مى !

ويخطىء الذين يقولون أن مياً كانت تحاكى كتاب المهجر وأدباءه محاكاة مطلقة فيما ذهبوا إليه من أساليب القول ، فإن طبيعتها المحافظة دائماً كانت تأبى عليها أن تنساق إلى المحاكاة المطلقة لجماعة كانت تراهم يمالجون اللغة بحرية تثير غضبات المحافظين[1] .

ولاشك أن لأدباء المهجر وكتابه بعض الأثر فى أسلوب مى — كما حدثنى بذلك المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق، وكما يبدو لمن يقرؤها ويقرؤهم — ولكنها لم تكن مقلدة لهم بما يعدم شخصيتها التى كانت تحرص دائما على استقلالها وظهورها .

---

(١) من خطبتها فى كتاب اليوبيل الذهبى للمقتطف ص٦ .

ولا شك أيضاً — كما حدثني المرحوم مصطفى عبد الرازق في جلسة ثانية — أن مياً تأثرت بطريقة الأستاذ المرحوم أحمد لطفي السيد التي نزع إليها كثير من الكتاب في ذلك الحين لاستوائها واستقامتها ونصوع الفكرة فيها .

واتخذت مي من الطريقتين طريقة خاصة بها ، امتازت بانتقاء اللفظ الجميل الوقع على السمع ، كما امتازت بالتعبير السهل الذي لا يعرف التعقيد ولا يعرفه التعقيد ، وبالوضوح الذي لا يجنح إلى خيال بعيد ، والبعد عن السبح في الإخفاء والتعمية التي تظهر عند بعض الكتاب .

وكان الشاعر خليل مطران معجبا طريقة مي في نثرها ، وهو يسميها الطريقة الاحتفالية ، لأن مياً تحتفل فيها بالألفاظ والعبارات وتعنى بتنميقها وتحليتها .

ومع عناية مي بأسلوبها ، واهتمامها بصقله وتهذيبه ، وحرصها على اختيار اللفظة الملائمة والكلمة المناسبة ، ومع غرامها بالتأنق في الأسلوب كما تتأنق العروس في ثيابها ، ومع اعتمادها على رقة أسلوبها ورشاقة تعبيرها في استمالة قرائها .. مع ذلك كله لم تهمل جانب المعنى ولم تغفل أهمية الفكرة . فمعانيها على قدر ألفاظها ، وفكرتها على قدر كلمتها ، فلا طغيان في جانب على جانب ، ولا اختلال في النسبة بينهما ، فألفاظها ومعانيها يزين بعضها بعضاً . وكأن الشاعر عنى أسلوبها بقوله :

تزين معانيه ألفاظه وألفاظه زائنات المعاني

* * *

ومى حين تكتب تكتب بعقلها وقلبها ، ولهذا تجد أسلوبها أثراً من آثار العقل الرزين ، ونتيجة من نتائج العاطفة الجائشة . ويبدو هذا جلياً فى خطبها التى تعدها بالقلم وتلقيها باللسان . وكثيراً ما نجحت مى فى خطبها لأنها تصل إلى عقول السامعين وتلمس قلوبهم . وسنعرض لذلك حينما نتحدث عن مى الخطيبة .

وفى أسلوب مى النثرى نغمات من الموسيقى المتجانسة المتساوقة ، فلا تحس وأنت تقرؤها نبواً أو « نشازاً » وكأن كلماتها فصلت تفصيلا ورتلت ترتيلا . فهى شعر إلا أن القوافى لم تقيده ، والأوزان لم تغلله .

ويبدوهذا الجمال الأسلوبى واضحاً عند مى حينما تكتب فى موضوع يمت إلى العاطفة أو يتصل بالوجدان . فهنا ترق مى ويرق معها أسلوبها . و ( نشيد نهر الصفا ) هو أكثر الأمثلة صلاحاً للتدليل على ما نقول ، وكذلك مقالها « الساعة المفقودة » و « يا سيدة البحار » و « دمعة على المغرد الصامت »[1] .

ولو أن فى المقام انفساحاً ، وفى هذا المجال الضيق المحدود اتساعاً لنشرنا بعض ما سما من أساليب مى فى كتبها أو خطبها أو مقالاتها .

لقد كانت مى تكتب متأنقة محتفلة ، ولم تكتب عند الفكرة تخطر عليها أو الرأى تذهب إليه ، ولكنها كانت تكتب حين يطاوعها الأسلوب وتنقاد لها الطريقة ، وتواتيها اللفظة . ولهذا شاع

---

(١) ظلمات وأشعة .

فى أسلوبها الجمال ، وظهر فى كتابتها نوع من الخفة واللطف قل أن يتاح لكاتب يعتمد على العقل فيما يكتبه .

ومى فى احتفالها بأسلوبها تذكرنا بالشاعر الجاهلى زهير بن أبى سلمى فى تنقيحه لشعره ومراجعته له . ولم يطغ اللفظ والاهتمام على مى الكاتبة فينسيها قيمة المعنى الذى تريد الكتابة فيه . وهنا يحضرنا — على طريق المضادة — كتّاب المقامات الذين أولعوا باللفظ وعنوا بالكلمة فجاءت كتابتهم ضئيلة المعانى ، وزادها التعمل غرابة أوسقها فى الألفاظ .

ولم تكن مى ترى الكتابة أمراً هيناً ميسوراً ، ولكنها تراها أكثر الفنون دقة وعسراً[١] ، وترى أن اكتشاف الكاتب الذى عنده شيء يقوله للأسلوب الذى يعبر به أصعب من اكتشاف القطب ! لأن نقل حركات النفس الخفيفة اللطيفة بوساطة الكلمات البشرية الكثيفة ليس مما يسهل عمله[٢] .

ولا خلاف فى أن مياً تأثرت فى أسلوبها بالطريقة الأوروبية وخاصة فيما يسمى بالشعر المنثور Blank Verse .

وذلك واضح فى كل ما كتبت ، وخاصة فى كتابها «ظلمات وأشعة» . ويقل استعمالها لهذه الطريقة حينما تبحث موضوعاً أدبياً ، أو تنقد ، أو تتعرض لحوادث التاريخ ومدارج الحضارات .

---

(١) باحثة البادية صفحة ٥٨

(٢) المصدر نفسه

لم يكن أسلوب مى الطريف الجديد إلا بدعة فى الأساليب العربية ، فلا تجد فيه نثر الجاهلية وسجع كهانها .. ولا تصادف فيه أثراً من طريقة « عبدالحميد الكاتب » وتلاميذه ، ولا ترى فيه طريقة ابن العميد والقاضى الفاضل ومن كان بينهما ، ولا تجد فيه ركاكة كالتى شاعت فى العصر التركى ، ولا ترى فيه تطرف السوريين فى أمريكا — وخاصة فى المهجر الشمالى الذى قل فيه الاحتفال باللغة وقواعدها — وإباحتهم التى يعتبرها المحافظون من اللغويين تهجما على قداسة اللغة العربية .

نعم لا ترى فى أسلوب مى واحداً من هؤلاء ، ولكنك تراهم فيه جميعا .

. أما أسلوبها حين تتناول بحثاأدبياء أو موضوعا اجتماعيا فقد كان فى غاية من السلاسة والسهولة والوضوح ، فالفكرة عندها واضحة ظاهرة ، لا تتصيدها من وراء الغيوم أو من خلف الضباب ، والعبارة عندها سهلة لا تعقيد فيها ولا إبهام ، واللفظ عندها سائغ حلو الوقع على الآذان ، فإذا قرأتها لا تمسك نفسك من الإعجاب بهـــا ، والاقتناع بمذهبها .

وفى عبارات « مى » حين تكتب أو حين تخطب موسيقى تستسيغها الأسماع ، ولقد كانت تجيد العزف على بعض الآلات الموسيقية ، فلا غرو إذا راعت فى أسلوبها الترنيم والتنغيم .

ولها ذوق جميـــل فى اختيار اللفظ الجميل ووضعه إلى ملاءمه ومشاكله ، كما يصنع اللآل فى الأحجار الكريمة والجواهر الثمينة ، يضم

منها ما تشاكل ويجمع ما تماثل ، ويؤلف من ذلك عقداً جميلا .

وماعرف عن مى أنها أغربت فى استعمال لفظة كما يصنع المتحذلقون من الكتاب ليدلوا على الناس بمبلغ علمهم ومذخور كلامهم ، ولكن ميا كانت تتحرى اختيار بعض ألفاظ قليلة الاستعمال لتخلع عليها الحياة من جديد ، ولتديرها على الألسنة والأقلام عودا على بدء . وجهادها فى ذلك معروف مشكور . وقد تعدل عن لفظة مألوفة أو صيغة من الاسم والفعل معروفة إلى لفظة أخرى وصيغة ثانية أقل دوراناً على الألسنة وشيوعاً على الأقلام أو أكثر إمعانا فى العامية .

فهى تقول الرياح تعتول[١] بدل تعول، وتقول « حولك الأقوياء يتكالحون » بدلا من يكالحون ، وتقول البرنيطة بدلا من القبعة .

وكان لها غرام باستعمال صيغ المبالغة من اسم الفاعل، ولعلها بذلك تقصد إلى التهويل والمبالغة والتأثير فى نفس سامعها أو قارئها ، فالجرمانى عندها « مبطاش »[٢] لا باطش ، واللاهث والهاتف عندها لهاث وهتاف بصيغة فعال للمبالغة[٣] ، وتقول على نفسها « أنا التى ترانى طروبة طيارة[٤] » بدلا من طائرة .

كما أغرمت باستعمال صيغة « أفعل » دلالة على الوصف لا على التفضيل ، ولعل هذه الصيغة كانت تقع من نفسها موقعا حسنا . فقد

---

(١) ظلمات وأشعة صفحة ٩٠ .

(٢) ظلمات وأشعة صفحة ٣٣ .

(٣) ظلمات وأشعة صفحة ٢٦ .

(٤) ظلمات وأشعة .

آثرتها وأدارتها على كلامها . فهي تقول « يتركه جثة فى قبضة الموت « الأغبر »[١] والصبح « الأنور » والنادى « الأسنى »[٢] .

ولقد تأثرت مى فى بعض مقالاتها على العموم وخطبها على الخصوص ببعض النداءات الوطنية والهتافات القومية التى كانت تدور على كل لسان، ويهتف بها كل فم . فترى ميا حين تكتب أو حين تخطب تستعمل أشباه هذه العبارات : « تحيا مصر » « يحيا الشرق » « لتحيوا جميعاً » « فلتعش مصر حرة مستقلة » [٣] « يحيا الشبان » .

ولا نعلم أن كاتباً فى العصر الحديث ردد هذه النداءات فى كتبه وخطبه كما رددتها « مى » . ففى كل محاضرة لها هتاف ، ولكل خطبة لها نداء . فكما كانت كتاباتها فى الأعم الغالب تسبيحاً باسم الشرق وجلاله، كذلك كانت هتافاتها نشيداً للشرق فى آلامه وآماله .

ومن الغريب أن ميا المحافظة المعتدلة الغيور على العربية ، الخائفة عليها من سيل العامية الجارف، المدافعة عن المجمع اللغوى القديم ومهمته، الذاهبة إلى وضع أسماء لمصطلحات العلوم والفنون على طريق النحت والاشتقاق والتعريب، المعالجة مسائل اللغة ووسائل إصلاحها فى كتبها وخطبها ومقالاتها وأحاديثها — من الغريب أن ميا هذه كانت تستعمل ألفاظاً أفرنجية لم تجر على وزن أو بناء عربى ، فتستعمل

---

(١) كلمات وإشارات صفحة ٦٨ .

(٢) ظلمات وأشعة صفحة ١١٨ .

(٣) كلمات وإشارات صفحة ٤ ، ١٢ ، وبين الجزر والمد ص ١

الهارمونى "Harmonie" والسوناتا والكانتاتا (١).

ولعلها لم تهتد إلى اصطلاح عربى لأمثال هذه الألفاظ فآثرت — كارهة — استعمالها بنطقها الأفرنجى إلى أن يهىء الله من يدل عليها. ودليلنا على ذلك أنها بعد سنة ١٩٢٣ أخذت تضع المصطلح العربى الجديد . وبعد قوسين بعده تضع اللفظ الأفرنجى . فتقول : تساوق الألحان "Harmonie" والنغم "Melodie" (٢). وأحيانا كانت تضع اللفظ الأفرنجى مكتوبا بحروف عربية ثم تضع بعده المصطلح العربى ، فتقول : الشعر الليريكى أو الغنائى ، والشعر الديدكتيكى أو التهذيبى ، والدراماتيكى أى المفجع ، والأبيكى أى القصصى الحماسى (٣) .

---

(١) كلمات وإشارات ص ٦٣ .

(٢) بين الجزر والمد ص ١٢٧ .

(٣) بين الجزر والمد ص ١٥٣ .

## مي حين تتهكم

ومادمنا فى سبيل الحديث عن أسلوب «مى» فلا بأس من الإشارة إلى طريقتها فى المهاجمة والتهكم والنقد .

كانت لمى بعض نظرات وآراء فى الإصلاح الاجتماعى ، وخاصة فيما يتصل بالمرأة ، واللغة ، والشرق . وكان لابد لها لتوجيه إصلاحها فى الطريق الذى يضمن له النجاح أن تهاجم عادة سخيفة ، أو تنحى باللائمة على أمر غير مقبول ، أو تنتقد ما هو موضع للانتقاد .

ولكن مياً امرأة قبل أن تكون كاتبة ، وفتاة رقيقة قبل أن تكون ناقدة عنيفة . ولهذا كان نقدها رقيقاً ، وكان لومها وعتابها لطيفاً رفيقا ، وكان تهكمها لا يجرح شعوراً ولا يؤذى إحساسا ولا يمس كرامة . وكانت سخريتها — إذا سخرت — هى ضرورة المغضى الكريم، لا عمل الشامت اللئيم .

رأت انتشار كلمة « فلان ومدامته » « فغمزت » مستعمليها بقولها: ( لا يخفى على ذوى « المدامات » وغيرهم )[1] .

وسمعت رجلا عربياً يزعم اللغة العربية ثقيلة على لسانه ، وأن بعض حروف الحلق فيها كالحاء والخاء يؤذى السمع والحلق! فعز ذلك الانسلاخ

---

(١) بين الجزر والمد صفحة ٦٢ .

البغيض على « مى » وكتبت مقالا عنوانه : « تكلموا لغتكم » وظلت تلذع هذا العربى بسخريتها العنيفة قائلة : ( إنه من الطراز الحديث المكرر ثلاثا ، فتح فاه فتحة أنيقة تليق بالقرن العشرين ... وطفق حضرته يتكلم الفرنساوية جاعلا الراء منها غينا غناء )[١] .

وتعتب على المجمع اللغوى القديم لركود طرأ على حياته ونشاطه فتقول :( وصلنا إلى المجمع اللغوى الذى تتخاصم صحف العاصمة لأجله وهو فى غيبوبة الأحلام )[٢] .

وحدث أن وقع ثلاث سرقات فى يوم واحد من أيام القاهرة ، وكانت هذه الحوادث موضوعاً للحديث والتندر والتفكهة فى الصحف وعلى ألسنة الناس ، فتناولت مى هذه الحوادث بنقد أليم رفيق لرجال الشرطة قائلة[٣] :( والبوليس ؟ لاتوقظوه إنه نائم بالسلامة كطفل برىء .... ) .

وما كان أقدر مياً على التهكم اللاذع فى المواقف الحرجة التى قد تؤول فيها الكلمة وتفسر العبارة ، وتحمل على غير محملها .. فحين فرضت سلطات الحماية البريطانية الرقابة على الصحف والكتب والمطبوعات ضاق الكتاب والأدباء والصحفيون بها ، فكانت الرقابة تحاسب على كل كلمة ، بل تكاد تحاسب على الخاطر قبل أن يترجمه صاحبه إلى

---

(١) بين الجزر والمد ص ٧٨ .
(٢) بين الجزر والمد ص ٥٥ .
(٣) سوانح فتاة ص ٦٠ .

ألفاظ .. وقد لاحظت مى فى لغة الدواوين الحكومية سقما وتهافتاً وركاكة لا تليق بالرسائل والمكاتبات التى تمثل لسان الدولة الرسمى، فانتهزت فرصة صدور رسالةصحيحة سليمة من إحدى الجهات،وكتبت تتمنى لدواوين الحكومة أن تتوب عن اللغة والأسلوب السقيمين المستعملين فى أوامرها ومراسلاتها ، ثم أتبعت ذلك قائلة : ( أسمعك مزمجرا يا سيدى الرقيب ! وقد اقترب قلمك من جملتى هذه يقصدالفتك بها ! فأصغ إلىّ غير مأمور : لا أنت جندى ألمانى ، ولا أنا جندى فرنسوى ، ولا هذه الصفحة كنيسة ريمس ! فكن حليما ، ولا تحذف منها شيئاً ) .

هذه عبارة تهكمية لبقة ، انتهزت فرصة الحرب بين جبهتين فى إحداهما ألمانيا وفى الأخرى فرنسا — أعنى الحرب العالمية الأولى . فدخلت على الرقيب من هذا المدخل اللبق الكيس لتصل به إلىغرضها السليم من نقد الركاكة فى لغة الدواوين .

ولم تقف مى عند هذا الحد ، بل زادت مخاطبة الرقيب قائلة : ( ثم أرجو أن تذكر أنى بدأت تلك الجملة بكلمة « لو » ، وهل أنت من يخفى عليهقول الفرنسيس بإمكان وضع باريس فىزجاجةإذا مااستعملت كلمة « لو » ؟ ولا أظنك محتجا على وضع باريس فى زجاجة،علىشريطة أن تكون الزجاجة غير ألمانية لئلا تملأ بالغازات السامة. وأنىلموافقة على ذلك . وكل هذا الكلام أقوله لأنسيك شطب تلك الجملة الأثيمة — أنساكها الله ! ! ) .

فهذا تهكم رقيق غير غليظ ولا ثقيل ، وهو لون من الدعابة القلمية التى يتوصل بها الكاتب إلى غرضه من القول دون أخذه بالتأثيم والتجريم ..

ولقد كانت القاهرة فى سنة ١٩١٦ مدينة تصنع بها الأمطار ما لا يتصوره العقل، من إغراق ، ووقف للمواصلات ، وأوحال تزحم الطريق ، وتزكم روائحها الأنوف . فأرادت مى أن تنبه مصلحة التنظيم إلى واجبها فى رفع هذه السبة عن العاصمة ، فكتبت كلمة عنوانها : «سلام الله يا مطر عليك !» وختمتها بالإشارة إلى شطر البيت القديم :

سلام الله يا مطر عليها وليس عليك يا مطر السلام !

فقالت : « يحق لبعض المصريين — من جانب آخر — أن يقروا الشاعر القديم فى قوله : « وليس عليك يا مطر السلام » . يحق لهم ذلك إذا ما رأوا الأحياء غير الأوربية فى هذه المدينة . والأحياء الأوربية وغير الأوربية من الأمور التى تسوسها مصلحة التنظيم . ومصلحة التنظيم — كما تعلم أو كما لا تعلم أيها المطر — دائرة من دوائر الحكومة ، فإذا ذكرناها بغير الثناء والتعظيم والتبجيل ، كان نصيبنا منها نصيبك من شاعر ليلى على الأقل ! » .

وحينما لاحظت مى فى سنة ١٩١٦ أن بعض كتاب الصحافة يتملقون قراءهم — والتملق طبيعة فى النفس البشرية الضعيفة — أرادت أن لا تدع هذه الظاهرة تمر دون إشارة إليها ، أو تعليق عليها ! فكتبت مقالا عنوانه : ( بين الأدب والصحافة ) قالت فيه : « أصبح الصحفيون

زمرة قوية تخشاها الأرض ومن عليها ! فهم ينتقدون القوانين ، ويحاجون الحكومات ، ويسنون أوامرهم للبشر ، ويبسطون آراءهم لأولى الحل والعقد ، حتى إذا شعروا بأن الفكرة التى يبدونها بعيدة عن ذهن القارىء ، عمدوا إلى أسماء التحبب ، فدعوه تارة « القارىء اللبيب » وطورا « القارىء الكريم » وحيناً « القارىء العزيز » إلى غير ذلك من النعوت الطيبة التى ترضى الجميع .. ! فيقنع القارىء بأنه لبيب وكريم وعزيز .. فعلى كل لبيب كريم عزيز أن يفكر أن ماجاء فى المقال هو الحقيقة بعينها » .

وشهدت القاهرة فى منتصف سنوات الحرب العالمية الأولى ارتفاعا فى عدد حوادث السرقات ، من البيوت ومن الدكاكين على السواء .. وحركت هذه الظاهرة شعور أديبتنا الذكية اللماحة ، فكتبت مقالا بعنوان: « الحركة بركة » تسخر فيه من رجال البوليس الذين لايؤدون واجبهم على أكمل وجه ، وتتهكم منهم على طريقتها البارعة فى السخرية والتهكم ، وتقول : ( .... أما البوليس فلا اعتراض على وقفته : يقف فى النهار بكرامته وعلى مقربة منه تتخاصم الناس ، وتتصادم المركبات ، وهو — ولله الحمد — واقف بالسلامة ، منصوب قوامه ألا من طرفيه ، كالألف المتقنة الصنع ، وهذا يزيده شبها بإله الحدود القديم عند الرومان ! أستغفر الله ! لست أعنى أنه يظل واقفاً كالتمثال ! كلا ، ثم كلا ! أنه يمشى أحيانا ، ويرفع يده مسلما على بعض المارين فى المركبات ، وطرف حديث مع الإخوان لا يزعجه ، بل بالعكس . وهو مع ذلك متمم أمور وظيفته ، فإذا رأى قبيل المساء حوذيا لم ينور شمعتى

مركبته صاح إله الحدود الجديد ، باسطاً ذراعيه إلى الأمام وقال : نور يا أسطى !! ) .

ولا يفوت « ميا » فى موقف الجد والوقار أن تثير سخرية ، أو ترسل نكتة لاذعة ، تفعلها لتروح عن القارىء إن كانت كاتبة ! وعن السامع إن كانت خطيبة . ففى مقال لها عن وصف غرفة تابعة لمكتبة الجامعة المصرية القديمة ، تعرضت هناك لاجتماع نسوى بين طالبات الجامعة ، ووصفت ثرثرة النساء فيه وضجتهن التى لا تنقطع ، وخرجت من ذلك بهذه النتيجة اللاذعة : ( من عجائب الحديث النسائى أن السيدات إما يصغين جميعاً ولا تتكلم منهن واحدة ، وهذا نادر ! وأما يتكلمن جميعاً فى آن واحد ولا تصغى منهن واحدة . . ) .

هذه كانت مى رحمها الله فى نقدها وسخريتها وتهكمها ودعابتها ، كانت ناعمة رقيقة لينة ، كالشوكة اللينة ، تخز ، ولكنها لا تدمى .

# مى على أعواد المنابر

لقد عرفت المنابر ميا خطيبة عربية فصيحة ، كما عرفتها الأندية الأدبية ومعاهد الدرس وقاعات المحاضرات محاضرة من طراز رفيع .

ولقد كنا نسمع هذا البيت الجميل الرائع :

ولو ان مشتاقاً تكلف فوق ما     فى وسعه لسعى إليك المنبر

فنرد هذا الضرب من الكلام إلى الإغراق فى المبالغة ، والتغالى فى المدح .. ولكن ميا أكدت لنا فى خلال حياتها الأدبية أن المنابر قد تشتاق أصحابها ، وأن المواقف الخطابية كانت تقبل عليها ساعية ، وتميل إليها داعية .

فتارة تراها واقفة تحت ظلال « الأرز » ، وفى ضهور الشوير بلبنان تشكر فى بيان جميل أولئك السادة الذين اجتمعوا لتكريمها ، واحتفلوا هناك بظهورها بينهم[1] وتعد مى هذا التكريم منهم غير منحصر فى فردها أو مختص بشخصها ، ولكنه موجه إلى تشجيع الفتاة الشرقية عموما . ولقد كان تكريم مى فى سنة ١٩١١ دليلا على اعتراف وطنها بالتماع الأشعة الأولى من نجمها . فإنها كانت فى ذلك الحين شادية .

ويتألق نجم مى فى الخطابة رويداً رويداً فتقف فى مساء ١٥ أغسطس سنة ١٩١٢ بقرية ( بكفيا ) فى لبنان ، وتخطب احتفالا بيوم عيد

---

(١) ظلمات وإشارات ص ١ ، ٢ ، ٣ .

العذراء فتقف معددة مآثر الشرق، وتقول فى افتخار واعتزاز : (شرقنا جميل، ولكن الروح الشرقية التى تحييه أجمل منه، ومياه الشرق عذبة، وأعذب منها العواطف الغزيرة المتدفقة فى صدر[1] الشرق) .

وتنقلب مى فى ذلك الحفل قيثارة تتردد على أوتارها ألحان من جمال الشرق، وأنغام من وحى عظمته وجلاله، ولا شك أن « ميا » أطربت سامعيها تلك الليلة، لأنها كانت تغنى على أوتار قلوبهم .

وتسوق الأقدار السعيدة ميا إلى مصر بعد ذلك فى سنة ١٩١٢ . فلا يكاد يستقر بها المقام حتى تشتهر بالخطابة وتعرف بالإلقاء، وتود منابر مصر أن تسمعها كما سمعتها منابر لبنان .

وهنا أتيحت لها الفرصة، وهيئت لها المناسبة، فقد أنعم على الشاعر خليل[2] مطران بالوسام المجيدى الثالث، وأقيم لتكريمه حفل أدبى جليل فى دار الجامعة المصرية القديمة، ولقد شهد خديوى مصر « عباس حلمى » ذلك الحفل، كما شهده شقيقه « الأمير » محمد على .

وهنا يبعث جبران خليل جبران من نيويورك بكلمة تتلى فى الحفل فيقع اختيار اللجنة على مى لإلقائها، فتلقيها وتعقب عليها بخطاب بليغ، شغل الناس بالحديث عنها أكثر مما شغلهم بالحديث عن المحتفل به[3]. ولم يكن موقفها فى تكريم مطران أول مواقفها الخطابية على الإطلاق

(١) كلمات وإشارات ص ٦ .

(٢) كلمات واشارات صفحة ١٣ .

(٣) من خطبة الدكتور طه حسين فى حفلة تأبين مى بدار الاتحاد النسائى

— كما أشار إلى ذلك بعض مؤبنيها — ولكنها وقفت قبل ذلك فى لبنان وقفات مشرفات ، كما ذكرنا قبل ذلك بقليل .

وسعت المنابر بعد ذلك النجاح العظيم إلى مى تطلب منها الكلام.. فوقفت سنة ١٩١٤ فى الثالث والعشرين من شهر أبريل تحاضر إذا شئت وتخطب إذا شئت فى موضوع المرأة والتمدن ، وكان منبرها تلك الليلة فى « النادى الشرقى » ، وكان سامعوها جمعاً كبيراً من الرجال والشبان ، والسيدات والآنسات .

وقفت مى تلك الليلة تسرد تاريخ المرأة الطويل ، فأثنت على السيد المسيح الذى كان أول من عطف على المرأة وأسمعها كلمات الإشفاق والغفران . . ولم تنس — كعادتها فى الإنصاف وشأنها فى السماحة — أن تنصف النبى العربى محمدا — عليه السلام — لأنه رفع شأنها ، وسواها بالرجل فى جميع الحقوق والواجبات — إلا فى الشهادة والميراث — وحرم وأد البنات[1] .

---

(١) كلمات وإشارات ٣٤ .

# موضوعات الخطابة عند مي

لما اشتهرت مى وأخذ نجمها الأدبى فى الصعود كان لها بحكم ذلك الاشتهار علاقات وصلات مع كبار الرجال من أهل الفضل والحسب ، والعلم والأدب ، وكان لها علاقات وصلات مع جماعات الخير والبر ، وجمعيات المعروف والإحسان .

ولهذا كنت ترى ميا الخطيبة إما مكرمة لأديب كما صنعت مع خليل مطران «بك» الشاعر ، وإما محتفية بمؤسسة خدمت العلم والأدب كما فعلت سنة ١٩١٦ فى تكريم «مطبعة المعارف» لمرور خمسة وعشرين عاما على إنشائها[١] . وإما شاكرة لمجهود بذله عالم فى سبيل العلم كما صنعت فى تكريم الكونت دى جلارزا المستشرق الأسبانى وأستاذ الفلسفة فى الجامعة المصرية[٢] .

ويدخل فى هذا النوع من التكريم خطب التأبين التى كانت تجيد إلقاءها ، فى نغم يثير أحزان السامعين ، وما تأبين الأموات إلا نوع من تكريمهم بعد وفاتهم وتقديرهم بعد انقطاع ما بينهم وبين الحياة من أسباب .

ولا يفهمن من ذلك أن ميا كانت كالنائحة المستأجرة تبكى على

---

(١) كلمات وإشارات .

(٢) كان تكريمه فى ١٩١٧ فى فندق شبرد برآسة الأمير حيدر فاضل .

كل ميت ، أو تنوح على كل راحل ، وتعدد مآثر الذاهبين . . لا ! لم تكن مى لترخص دموعها إلى حد الابتذال . ولكنها لم تقف خطيبة باكية ، ونائحة مؤبنة إلا حين تشعر هى بالخطب ، أو تحس هى بثقل المصاب ، أو ترى هى وجوب التقدير .

وقفت تبكى باحثة البادية — السيدة ملك حفنى ناصف — فى الحفل الذى أقامته السيدات المصريات برياسة هدى شعراوى فى دار الجامعة المصرية سنة ١٩١٩ ، لمناسبة مرور عام على وفاة الباحثة[١] . وكانت خطبتها فى تأبين صديقتها نوعا من الوفاء لها ، ونوعا من حث السيدات الشرقيات على أن يحتذين حذوها فى جهادها للمرأة، وإخلاصها للغة ، وحبها للوطن .

ووقفت تبكى المرحوم الدكتور يعقوب صروف أحد منشئ مجلة « المقتطف » فى الحفل الذى أقيم لتأبينه « بدار الأوبرا » فى ٣٠ مارس سنة ١٩٢٨[٢] . فكانت كلمتها عداً لمآثر الدكتور صروف ، وتسجيلا لجهاده الطويل المضنى فى خدمة العلم والأدب ، وثناء على إكرامه للمرأة فى رواياته الثلاث التى ألفها وهى : ( فتاة مصر ) و ( غادة الفيوم ) و ( أميرة لبنان ) ، واعترافاً بتشجيعه لها وفسح المجال فى المقتطف لكتاباتها .

---

(١) كلمات وإشارات ص ١٢٦ .

(١) مقتطف شهر مايو سنة ١٩٢٨ .

وهكذا كانت مى الخطيبة وفية لصديقتها ( الباحثة ) ووفية لأستاذها الدكتور صروف .

وكانت مى تبدو ليلة تأبين صروف فى ثوب أسود جمله بياض وجهها ، وحسن قسماتها واعتدال وقفتها ، والشجن المرسل فى تسلسل نغماتها واتساق نبراتها ، وكان ذلك أول عهدى بمى ، وأول لقاء لها .

ولقد خطبت مى فى الإحسان وحثت عليه ، وكانت فى سبيل ذلك لا تألو جهداً ، ولا تدخر وسعا ، فيوما تعد خطبة فى حفل أقامه نادى الاتحاد السورى لمد يد رحيمة كريمة لإغاثة سورية الجائعة سنة ١٩١٦ ، ويوما تلقى كلمة فى جمعية ( ثمرة الاتحاد القبطية ) فى يوليو سنة ١٩١٦ ، لمساعدة اليتيمات الفقيرات ، ويوما تلقى خطبة فى مدينة طنطا وفى حفل أقامته جمعية الاتحاد والإحسان السورية مساء ١٤ يونية سنة ١٩١٤ [١] .

ولكل نوع من هذه الخطب عند مى أسلوبه ، وطريقته فى الإعداد والإلقاء ، ففى التكريم ترى اعترافها بقدر المكرمين بادياً فى صوتها كما يبدو فى كلماتها ، وفى الثانية ترى الحزن العميق يبدو فى كل لفظة ، ويلوح فى كل إشارة ، وفى الإحسان ترى لها كلاما يلين الصخور القاسية ، ويستدر الدموع الرحيمة ، ويجعل الشحيح الضنين يجود بنفسه قبل ماله ، ويبدأ الناس بالعطاء قبل أن يبدأوه بسؤاله [٢] .

---

(١) كلمات وإشارات .

(٢) راجع خطبها الآتية : « فى طنطا » « سوريا الجائعة » « حفلة ثمرة الاتحاد » « الدموع » فى كتابها كلمات وإشارات .

وما كان أقوى ميأ الخطيبة حين وقفت تحث على مساعدة المنكوبين المحرومين فى سورية الجائعة[1] .

ولقد كانت مى تطنب فى الخطب حين يوجب المقام الإطناب ، وتوجز عندما يستدعى المجال الإيجاز، فكانت لفصاحتها وبلاغتها وذكائها وحذقها عليمة بمقتضيات الأحوال ، ولكل مقام عندها مقال . .

(١) كلمات وإشارات ص ٧٢ .

# مىّ في محاضراتها

لم تكن مى فى محاضراتها أقل نجاحاً منها فى خطبها ، فقد كانت تعد موضوع المحاضرة إعدادا طيباً ، وتستوفيه بحثا ودرسا ، وتشبعه معاودة ومراجعة ، وكانت منظمة فى تفكيرها ، مرتبة فى تقسيمها ، فلا يتعب السامع فى متابعتها حتى يصل منها إلى النتيجة التى تريده أن يصل إليها . وكان لها من حسن إلقائها ، واستواء وقفتها ، ووضوح عبارتها معين على فهمها وتقديرها .

ولعل أولى محاضراتها العامة كانت تلك التى ألقتها فى الجامعة المصرية سنة ١٩٢١ إجابة لطلب جمعية ( فتاة مصر الفتاة ) . وكان موضوع المحاضرة جذابا شائقا يغرى بالاستماع ويدفع إلى حسن الإصغاء ، وهو ( غاية الحياة ) . ولقد وفقت مى فى معالجته على ضوء تجاربها واختباراتها وقراءاتها الكثيرة ، ونادت فيها ( بأن تكون مجموعة أعمال المرأة غاية جليلة يقوم بها النساء عاليات الجباه تحت أكاليل العزم والجهاد ، وقد اختفت من عيونهن خيالات الخضوع والمسكنة ، وحلت محلها نظرة من لم تعد عبدة المجتمع ، ولا عبدة الحاجة ، ولا عبدة الرجل ، ولا عبدة قلبها وهو أعظم جائر مستبد )[1] .

---

(١) غاية الحياة ص ٢١ .

وكان كتابها الصغير عن ( السيدة وردة اليازجى ) فى الأصل محاضرة ألقتها فى جمعية الشابات المسيحيات فى مايو سنة ١٩٢٤ ، وهى دراسة لهـذه الشاعرة الأديبة على النحو الذى جرت عليه مى فى دراسة ( باحثة البادية ) و ( عائشة التيمورية ) .

# مي الشاعرة
# وآراؤها في الشعر العربي

لم تهيء الأقدار ميا الكاتبة الأديبة المحاضرة الخطيبة لتكون شاعرة فى العربية يوضع اسمها بجوار اسم الخنساء فى القديم ، وعائشة التيمورية وفدوى طوقان ونازك الملائكة والدكتورة عاتكة الخزرجي وغيرهن فى العصر الحديث .

ولكن ميا كانت شاعرة فى اللغة الفرنسية ، ولها فيها ديوانها الأول زهرات حلم "Fleurs de Rêve" الذى طبعته ونشرته فى مقتبل شبابها ومطلع صباها .

ولها قصائد كثيرة مخطوطة نظمتها بالفرنسية . وكان فى نيتها طبعها كما فعلت فى ديوانها الأول ، لولا أن الحظوظ السود عاكستها ، والآلام الكثيرة غالبتها ، والمنية عاجلتها .

أما الشعر العربى فلم تحاول مى نظمه ، ولا يعرف الذين اتصلوا بها أنها شغلت بمعالجته ، ولعل صعوبة الوزن والقافية لهما فى ذلك دخل كبير . فقد كانت مى شاعرة فى نثرها المصبوب على قوالب الشعر المنثور . ولم ينقص ذلك الشعر المنثور إلا الوزن والقافية ليكون شعراً عربياً جميلا .

ولم يمنع سكوت مى عن نظم الشعر العربى أن يكون لها فيه رأى بل آراء ، فقد قرأت كثيرا منه فى عصوره المختلفة من جاهليه إلى إسلاميه

إلى عباسيه إلى حديثه . . وقرأت المعلقات مذيلة بشرح ألمانى[١] من وضع المستشرق «وولف» ، وقرأت كثيرا من شعر المتنبي وأبي العلاء ، وكانت تقرأ الشعر الحديث وتعلق على بعضه ، وتحتفظ برأيها فى بعضه. ولها نقد للنشيدين القوميين اللذين وضعهما أحمد شوقى « بك » ومحمد الهراوى[٢] ولقد يعجبها البيت لأحد الشاعرين فتذكره بالثناء ، أو لا يعجبها المعنى لواحد منهما فلا ترحم فى نقده . وعدت من الغلو البديعى الذى هو من ألزم عيوب العربية قول الشاعر الهراوى :

فيا ابن النيل هز لواء مصرا وهيء فى النجوم لهـا مقرا

كما عدت قوله فى وصف النيل :

يطوف بمائه عرضاً وطولا ويبسط فيضه عاما فعاما

من القول السائغ الجميل .

ونقدها للشعر يدل على سلامة ذوقها ، وجمال روحها ، ولا غرو فقد كانت مى شاعرة فى مرسل نثرها ، ومطلق كلامها ، ولعل المرحوم ولى الدين يكن شاعر الرقة والحنين قد أنصفها بقوله لها من رسالة بعث بهـا إليها ( .. . ولا أقول أنت حمامة الدوح فتلك عجماء وأنت معربة ، ولـكنى أقول أنك بلبل الشعر ، الصادح فى روض الحياة )[٣] .

* * *

(١) بين الجزر والمد ص ٩٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٧٥ .

(٣) سوانح فتاة : تقديم الـكتاب .

كانت مى ترى أن الوجهة المعنوية للشعر العربى لم تبرز بوضوح إلى الوقت الذى أبدت فيه رأيها ، وإن كان يرمى إلى التحرر يوماً فيوماً من الأسلوب القديم ، والتعبير القديم ، والقيود الصناعية التى قيد أنصار القديم أنفسهم بها[١] .

كانت ترى أن شعراء العصر الحديث ميزتهم أمور لم تتح لسابقيهم، فمشكلات العالم تقلق بالهم ، والمعانى الجميلة فى الطبيعة والمجتمع تنبه مشاعرهم، وإحساسهم بروح الوجود أكثر من إحساس أسلافهم[٢] .

ومى تؤمن الإيمان كله بالجماعات الأدبية المنظمة كجماعة للشعر أو رابطة للنثر مثلا ، وترى فى وجود مثل هذه الجماعات تحديدا للأغراض الأدبية التى ظلت مبهمة بمصر إلى وقت ما ، وكثيرا ما عابت على مصر — فيما قبل بضعة وثلاثين عاما خلت — خلوها من جمعية للشعر والنثر[٣] .

وأسفت لانحلال « الرابطة الأدبية » فى دمشق التى كان يرأسها « خليل مردم بك » لأن هذه الرابطة على قصر عمرها الذى لم يزد على سبعة شهور كانت تعنى باثنتين فى توجيه الشعر العربى الحديث : جدة معناه ، ومتانة مبناه . مع عنايتها بترجمة روائع الآثار الفرنجية إلى اللغة العربية[٤].

---

(١) بين الجزر والمدر ص ١٤٧ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) بين الجزر والمد ص ١٤٨ .

(٤) المصدر نفسه .

وكثيرا ما أثنت مى على « الرابطة القلمية » فى نيويورك ، وكثيرا ما كانت تذكر رئيسها الكاتب الشاعر جبران خليل جبران بالخير والثناء .

ورأى مى فى جبران حسن جميل ، فترى أنه إن كان فى عصرنا شخصية جامعة مبدعة فشخصية جبران مثالها ، وأن هذا الشاعر الفنان يحدث ببيانه الخاص عن حقائق حيوية راسخة[١] ، وترى أن هذا الشرقى اللبنانى متغلغل بأدبه فى نفسية الشعوب ، متكلم بلسان جميع الشخصيات ، معبر عن جميع الخوالج[٢] .

وكانت مى ترى أن الصلة بين شعراء مصر وشعراء العرب المحدثين من غير المصريين ليست قوية من حيث تفاعل الأفكار ، وإنما هى متشابهة من حيث الدوافع القومية والمناهج البيانية[٣] .

والمتنبى وأبو العلاء المعرى عندها أشد شعراء العربية تأثيرا فى الشعر العربى الحديث ، أما الأول فمن ناحية المفاخرة ( ويدخل فى ذلك المديح ) ، وأما الثانى فمن ناحية النزعة الفلسفية التى يغلب فيها الاستياء[٤] .

وكثيرا ما كانت تستشهد بكلامهما . كما كانت تحفظ كثيرا من شعر الشعراء الثلاثه شوقى وحافظ ومطران .

---

(١) المقتطف عدد يناير سنة ١٩٢٩ ص ١٣ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) بين الجزر والمد ص ١٥٧ .
(٤) المصدر السابق .

وإلى ذلك أشار المرحوم الدكتور يعقوب صروف فى رسالة بعث بها إلى الأمير شكيب أرسلان يصف كتابها « المساواة » قال ( .. وقد قرأت كثيراً من الكتب فى اللغات التى تحسنها ، الفرنساوية والإنكليزية والإيطالية، حتى لقد تستشهد فى كلامها معى بأبيات من شكسبير أو بيرون كما تستشهد بالمتنبى والمعرى ، وحفظت أيضاً كثيرا من قصائد شوقى والمطران وحافظ )[١] .

وما كانت مى تحب المفاضلة بين شاعر وشاعر ، سواء أكان ذلك فى القديم أم الحديث ، وفى الشرق أم فى الغرب . فهى على حد تعبيرها نعمت فى كل شاعر بما كان عنده أوفى وأعم ، فغذت به أحد ميولها . فلا وجه عندها للمفاضلة، ولا محل عندها لعقد موازنة. وتظن مى[٢] — وهى على حق فيما تظن — أن كل واحد من هؤلاء الشعراء — المختلفين مذاهب ومشارب ، وبيئات ومنازل — يعطينا صورة عصره وبيئته بل صورة الإنسانية فى جميع العصور وجميع البيئات ملونة بلونه متكلمة بصوته .

(١) معجم المطبوعات العربية ليوسف إليان سركيس .
(٢) بين الجزر والمد .

# ميّ والموسيقى

الشعر والموسيقى صنوان ، وإذا لم تكن مى شاعرة بالأوزان والقوافى فهى شاعرة بطبعها ، شاعرة بأحساسها ، شاعرة بعواطفها التى سجلتها فى شعرها المنثور الذى سماه الشاعر خليل مطران نثرا احتفاليا ، ونسميه نحن فى دروس الأدب العربى نثراً فنياً .

ولقد كانت مى — كما أخبرنى الدكتور فؤاد صروف — موسيقية بارعة ، وكان لها غرام بالتوقيع والتنغيم ، وبارعة فى اللعب على بعض الآلات الموسيقية .

وأخبرنى الأستاذ أيضا أنها لما كانت بسبيل الكتابة فى المقتطف عن «بتهوفن» وسمفونياته ، كانت توقع هذه السمفونيات بنفسها ليتهيأ لها الجو الصحيح الصادق الذى تستطيع أن تكتب فيه عن ألحان هذا الموسيقى العبقرى العظيم .

وكانت مى تجد فى كل همسة فى الكون ، أو حفيف فى الشجر ، أو هينمة فى النسيم ، أو زئير فى العاصفة نغمات موسيقية رائعة تصغى إليها فى لهف ، وحنان ، وإقبال وانهماك ، وهى فى ذلك تذكرنا بالأديب هنرى دافيد ثورو الذى كان يجد فى أصوات كل نأمة فى الطبيعة لحناً موسيقياً طروباً . وما كان أكثر ما تحمل أصوات الطبيعة وأنغامها مياً إلى عالم علوى بعيد ، تتخلى فيه حينا عن الأرض بما تحمله من إثم ووزر واضطراب ، لتنعم لحظات بالملأ الصافى الهادىء فى عليا السموات .

وما أبدعها وهى تعبر عن نشوتها بموسيقى الطبيعة بهذه الكلمات: « هذا يوم بهى ! الموسيقى فى هذا المساء على أبدع ما عهدت . لابد أن يكون فى السماء جوقة موسيقية بارعة تعزف من الألحان الربانية ما لم تسمعه من هذه الأرض أذن ، ولم يخطر شىء منه على قلب بشر .

إن الموسيقى لتخاطبنى بلغة ليس أقرب منها إلى إدراكى وعواطفى. إنها تنيلنى أجنحة وتطير بى إلى عوالم لا يطرقها غيرها . أشكرك اللهم لأنك فطرتنى على حب الموسيقى وحب الجمال ! » .

حتى « كنار » مى الذى حبسته فى قفص ، وهيأت له من الراحة ، والأمن ، والفراش الوثير ما لم يجده فى الفضاء المنطلق الفسيح .. حتى هذا الكنار الذى كان رفيقا لمى وصديقا لها .

كانت أصوات تغريده لحنا موسيقا حنونا تقول فيه مى: « فى الصباح كنت أفتح عينى فيستقبل استيقاظى بالغناء ،وتسيل موسيقى أنغامه على قلبى فتذيبه وتسكره معاً » .

ولقد ظهرت روح مى الشرقية، وحفاظها — الذى تكلمنا عنه سابقاً — فى معالجتها لموضوع الموسيقى والألحان الذى أحسنت كل الإحسان معالجته، وأجادت كل الإجادة الكتابة فيه .

ودافعت مى عن الموسيقى الشرقية دفاعا يستحق ترحم الشرق عليها، ووفاء أهل هذا الفن الجميل لها .

اسمعها تقول فى مقال عنوانه ( فى عالم الألحان ): ( يعيرنا الغربيون

أن ليس فى الموسيقى الشرقية أفكار ولا وصف ولا تصوير ولا تصور ، ولا أوبرا . سبحان الله ! وما حاجتنا يا ترى نحن ذوى الأعصاب الطروبة الذين يشجينا شدو القصب ، وتنهد النهر ، ونوح الحمام ، ما حاجتنا إلى اشتباك الألحان وضوضائها ؟ نحن نتمنى لموسيقانا أن تظل شرقية محضة ، تعبر بأنغامها العميقة الحزينة عن خفايا القلب الشرقى وحنينه ولوعته ، وتلمس نفوسنا بترجيعها البسيط فتهتدى فيها إلى مستودع العواطف الشجية وينبوع العبرات السخينة )[1].

ولا تنكر مى أصالة الموسيقى الأوربية وبناءها على قواعد راسخة من العلم والفن ، ولكنها فى الوقت نفسه لا تنكر بساطة الموسيقى الشرقية وجمالها ، ذلك الجمال الذى أوحى إلى (كاميل سان سانس) أن يؤلف لحناً هو مزيج من جملة ألحان مصرية ، ويسميه (تذكارات الأسماعيلية) ، كما أوحى أيضاً أن يؤلف قطعاً مقتبسة من ألحان فارسية .

ولم يمنع تقدير مى للموسيقى الشرقية وحبها لها من نقدها وإظهار عيوبها حتى يتاح للمصلحين إصلاحها ، والنهوض بها إلى مستوى فنى رفيع . فهى تنتقد الأصوات الشاذة عندنا وكثرتها كثرة ظاهرة ، وتنتقد المغنى حينما يخطىء فى تقسيم أوقات الإنشاد وتوازن الآهات والأدوار .

وتحمد مى فى الموسيقى الشرقية الجديدة التجديد الأخير الذى دخل عليها ، وهو ضبط الألحان بالعلامات الأفرنجية ، بعد أن كانت

---

(١) بين الجزر والمد ص ١٢١ .

ـــ كالشعر القديم ـــ تنتقل بالتواتر والتداول من جيل إلى جيل .

وكثيرا ما تمنت مى أن تعود الموسيقى الشرقية الحديثة إلى ما وصلت إليه من الإتقان المتناهى عند المصريين والأشوريين والعبرانيين بشهادة الآلات التى وجدت منقوشة على آثارهم ، مصورة على جدران معابدهم وهياكلهم[1] .

(١) بين الجزر والمد .

## دور مىّ فى النهضة النسائية

رأيت أن مياً كانت وفية لشرقها ، وفية للغتها . وظهر وفاؤها للشرق واللغة العربية فى مواقف مختلفات ومظاهر متباينات ، وأنها كانت تنتهز الفرصة للحديث عنهما فى كل مناسبة .

فالوفاء فى مى طبيعة فيها وفطرة فطرت عليها .

ولقد كانت مى الفتاة الوفية لجنسها النسائى ، فما تركت مناسبة للحديث عن المرأة إلا انتهزتها ، ولا تركت فرصة للنهوض بالمرأة إلا اختلستها . ولها فى سبيل ذلك جهاد مشكور وسعى محمود .

رأت مى السيدة الجليلة المرحومة هدى شعراوى لأول مرة فى حياتها سنة ١٩١٤ [١] فى قاعة المحاضرات بالجامعة المصرية القديمة ، وتبينت مقام السيدة ومنزلتها فى وطنها ، وعرفت مكانها ومبلغ أثرها ، فتقدمت إليها فى اعتداد واعتزاز وفى ثقة بالنفس وإيمان بالواجب تعرض خدمتها عليها ، وتقول لها : يا سيدتى لا تظنى أن صغرى يمنعنى من القيام بالواجب ، وأن حداثتى تعوقنى عن الانضمام تحت لوائك خادمة لقضية المرأة .

فقبلتها السيدة الجليلة وقبلتها ، وكان سرورها بها عظيما لأنها استشفت من وراء كلماتها صدقها وإخلاصها .

---

(١) من حديث لهدى شعراوى ومن خطبتها فى تأبين مى .

وانتظمت مى فى صفوف المجاهدات فكان ذكاؤها عجيبا وعمق تفكيرها أعجب ، وكانت روحها عظيمة وإحساسها أعظم ، حتى لقد قالت عنها هدى شعراوى (كنت أفزع أحيانا من تجمع كل هذه الصفات فيها ، وأخشى عليها تأثير تلك القوى الجبارة التى كانت تتنازع جسمها وقلبها وروحها )[١] .

وكأن الأفق الضيق المحدود لخدمة جماعة بذاتها وحصر الجهود فيها لم يعجب[٢] ميا ، فرأت أن تخدم المرأة فى مجال أوسع ، وفى أفق أرحب ، وفى ميدان أكثر انفساحا لآمالها وأمانيها ، ونشاطها وذكائها . فارتقت المنابر وهى مثال راق للمرأة الشرقية ، ودخلت ميادين الأدب وهى قدوة صالحة للمرأة العربية ، واستسلمت فى جهادها إلى قلبها الذى يصيب من الأمر الكلى والمفاصل ، وإلى لسانها الفصيح المبين الذى يجذب كل سامع .

وكان جهادها المنفرد وجهودها الأوحد فى سبيل المرأة مما تقوم به الجماعات الكثيرة . وكان جهادها الأدبى بنوع خاص خير إعلان عن المرأة ، وأقوى دعاية لها .

إن وفاء مى للمرأة الشرقية — مسلمة كانت أم غير مسلمة — لايحتاج إلى التدليل عليه ، وهل يحتاج النهار الواضح إلى دليل ؟

ألم تكتب مى عن « السيدة وردة اليازجى » كتابا كان فى الأصل

(١) خطبة هدى شعراوى فى تأبين مى .
(٢) نفس المصدر .

محاضرة عن شعر هذه السيدة الكريمة ونثرها ومقامها الأدبى بين النساء ؟

ألم تكتب مى عن « باحثة البادية » كتابا كان فى الأصل مقالات نشرت بالمقتطف عن «الباحثة» المسلمة المصرية الكاتبة الناقدة المصلحة؟ ألم تعقد فصلا ممتعاً فى كتابها للموازنة بين قاسم أمين الرجل وباحثة البادية المرأة ؟

ألم يشهد الدكتور يعقوب صروف لمى لمناسبة ظهور هذا الكتاب بكون أبحاثها ( أنموذجاً جديداً للنقد فى العربية )[١] وبأن الكتاب (فى موضوع واحد هو أهم المواضيع الاجتماعية فى هذا القطر ، ألا وهو المرأة المصرية وكيف تصلح شئونها فتصلح بها البلاد )[٢] .

ألم تكتب مى عن «عائشة التيمورية» فصولا مستفيضة فى «المقتطف» موزعة بين عامى ١٩٢٤ ، ١٩٢٥ لو جمعت وطبعت مستقلة لكانت كتاباً لا يقل قيمة وإمتاعاً للنفس وفائدة لتاريخ الأدب عن كتابيها عن الباحثة ووردة اليازجى ؟

بلى ؟ لقد أنصفت مى المرأة الشرقية حينما أنصفت ثلاثاً من أديبات الشرق يمثلن مصر الخالدة ولبنان الخالد .

ورأى مى فى عمل المرأة ووظيفتها فى الحياة رأى المصلحة العاقلة ، لا رأى الغِرّة الجاهلة .

---

(١) باحثة البادية المقدمة .

(٢) المصدر السابق .

راعها من المرأة الحديثة أن تنسى وظيفتها المقدسة، ومكانتها السامية. وأفزعها أن ترى النساء منشغلات عن الأطفال، منصرفات عن المنازل، معرضات عن التربية، مقبلات على اللهو واللعب، عاكفات على الزينة والتبرج، غارقات فى مجالسهن الثرثارة وأحاديثهن الفارغة.

راعها ذلك من المرأة العصرية فخاطبتها قائلة [١] : ( عودى من نزهاتك الطويلة وزياراتك العديدة وأحاديثك السخيفة. عودى واركعى أمام الصغير واستميحيه عفواً !

لقد خلقت امرأة قبل أن تكونى حسناء. وكيفتك الطبيعة أماً قبل أن يجعلك الاجتماع زائرة ).

وللآنسة مى رسالة إلى الفتاة المصرية — وهى تقصد المرأة العربية عموماً — تقول فيها : « الحياة أمامك، أيتها المصرية الصغيرة، ولك أن تكونى فيها ملكة أو عبدة بالكسل، والتواكل. والغضب، والثرثرة، والاغتياب، والتطفل، والتبذل. وملكة بالاجتهاد، والترتيب، وحفظ اللسان، والصدق، وطهارة القلب والفكر، والعفاف، والعمل المتواصل. فإن عشت عبدة بأخلاقك كنت حملا ثقيلا على ذويك فكرهوك ونبذوك، وإذا عشت ملكة أفدت أهلك ووطنك وكنت محبوبة مباركة، فأيهما تختارين ؟

* * *

---

(١) ظلمات وأشعة ص ٣٦.

كانت مى تصف مدنية الأمس بأنها مدنية عرجاء[١] ، لأنها لم تستند إلا على جنس واحد من جنسين خلقهما الله ليكمل أحدهما الآخر ، وكانت شديدة الفرح بالنهضة النسائية فى مدنية اليوم لأنها ليست مدنية الرجل وحده ، بل هى[٢] مدنية الإنسانية كلها .

ولشد ما كانت مى تتألم أشد الألم حين ترى المرأة العربية فى عصرها مهملة منسية ، لا يفكر فيها أحد ، ولا تظهر فى المجتمع كما يظهر الرجال . وكان يحز فى نفسها أن ترى الرجال يغلبون المرأة على أمرها ، فينبذونها من المجتمع نبذ النواة ، كأنها كم مهمل ، لا شأن لها ، ولا خطر . ولقد لاحظت يوما فى حفل الأربعين لوفاة فتحى زغلول باشا ١٩١٤ أن المرأة لم تكن ممثلة فى الحفل ، ولم تدع إليه ، ولم تشترك فيه مع أن المرأة هى صانعة الرجال الأبطال ، وهى أم النوابغ العباقرة . ودهشت مى أشد الدهش لأن أحمد لطفى السيد أشاد فى كلمته الرائعة لتأبين فتحى زغلول بفضل والدته التى أنجبته وهى فلاحة من الريف ، فكان ذكر الأم فى هذا المقام اعترافاً جميلا من لطفى السيد بأثر المرأة فى صنع الرجال ، وسرعان ما أثرت هذه المفارقة العجيبة فى نفس مى ، فأمسكت القلم وكتبت إلى المرحوم أحمد لطفى السيد رسالة فى جريدة المحروسة التى كان يصدرها والدها تقول فيها : ( فى نفسى كلمات جائلات منذ ثلاثة أيام ، إذا حاولت الإفصاح عنها باللسان أو بالقلم تبعتها حتى علامة الاستفهام .

---

(١) كلمات وإشارات ص ٣٦ و ٣٧ .

(٢) كلمات وإشارات ص ٣٧ .

أرفعها إليك لأنك كتاب حي يرجع إليه الباحث فى ساعة الحيرة والتردد . ولقد جرأنى على إبداء فكرى أنى وجدت فى خطبتك الجميلة ذكرا لوالدة فقيد مصر ، وذكرت من أجلها جميع الأمهات القرويات الساذجات اللاتى أعطين لمصر أعاظمها . لم تضرب صفحا على جهلهن وبساطتهن ، ومع ذلك فقد اعترفت بأنهن مهذبات فتحى باشا وأمثاله . كأنك أردت أن تنبه السامع والقارىء إلى أن الخواطر العظيمة — كما قال فوفينارج — تأتى من القلب، وأن على هذا يكون ذكاء القلب أعظم ذكاء .

أما سؤالى فها هو : لماذا لم يكن للنساء نصيب فى حضور حفلة التأبين؟ حفلة جليلة أقامتها مصر لتأبين فتاها ، ومصر كسائر بلاد الله — على ما أظن — تتألف من رجال ونساء . لم تكن الحفلة قاصرة على هيئة الحكومة أو على طائفة المحامين والعلماء ، بل كانت عمومية جامعة بين المحمدى والعيسوى ، والشرقى والأجنبى على السواء . غير أنكم نبذتم منها جنساً واحداً : وهو الجنس الذى منه رفيقة مهـــد فتحى باشا ورفيقة نعشه : — والدته وزوجته. نبذتم ذلك الجنس الذى يعيش بعيداً فى ظل النصر الشامل يوم يكون الرجل غالباً قاهراً ، حتى إذا نهش اليأس نفسه وأدماها الألم ، وخالطتها وحشة الموت ، عاد إلى جنب الجنس الذى لم يخلق إلا ليكون شقياً : الجنس النسائى .

قالوا إن مثالا حياً واحداً هو أنفع من ألف درس نظرى تمليه كتب المتقدمين والمتأخرين ، ويلقيه أبلغ الفصحاء من المتكلمين . فإذا شكا الرجال بحق — أو بغير حق — ثرثرة النساء وخفة نفوسهن

وميلهن إلى الزخرف والزركشة والدنتلا واعتبروهن غير حريات بأن يشاركنهم فى الحياة القومية ، فما بالهم لا يسعون بالتقريب بين الأفهام وحذف مابين مدارك الجنسين من مسافة يزعمونها شاسعة .

غريب أن تبخلوا على المرأة بحضور اجتماع يرفع نفسها إلى أسمى درجات التأثير المفيد ، ويلفت عقلها إلى هيبة العلم وعظمة الفضل ، ويعلمها إجلال الوطن ورجال الوطن؛ مع أنكم تسمحون لها بالذهاب إلى هذه الأوبرا نفسها لحضور الروايات التمثيلية ، روايات قد يكون لبعضها أثر طيب فى الذهن ولكنه بعيد عليه أن يلبس من نفسها الموضع الذى كان ذلك الاجتماع قد يلبسه .

قد تقولون أن المرأة لاتفهم معانى التأبين كما يفهمها الرجل، فأجيب أننا اهتممنا بالخطب والقصائد اهتماماً عظيما ، واستعملنا عند قراءتها ملكتى النقد والاستحسان. وهذا ينم عن استعداد فينا غير قليل، تتجاهلونه عمداً ، أو تجهلونه سهواً وأهمالا .

وإذا قلتم إن فتحى باشا كان عالماً مفكراً وأن العلم والتفكير من خصائص الرجال ، أجبت أن العالم الحقيقى والمفكر المخاص هو ذاك الذى يكتب للرجال والنساء بلا تفريق ، ويود أن تكون كتاباته هدى ووحيا لجميع أفراد الأمة ، بل يود أن يكون ذلك لشعوب العالم أجمعين . ولا شك أن فتحى ذلك الرجل . إذ لا رأيت أنا ولا رأى أحد على غلاف كتبه كلمة كهذه : « محظور على النساء » أو « حقوق المطالعة محفوظة للرجال » . . . . . . . لو حضر النساء هذا الاجتماع لأخذن عنه أمثولة طيبة ، وحفظن منه فى نفوسهن أثراً جليلا .

ولقد كان لهذه الصرخة الجريئة الواعية من الآنسة مى أثر كبير فى محافل الرجال، فكأنها كانت ناقوسا منبها أضيف إلى كثير من النواقيس التى رددت مطالب المرأة العربيـــة أو نادت بحقها فى أثبات مكانها وشخصيتها وكيانها فى عالم لا مجال فيه لتخلف النساء عن الرجال .

ولما رأت مى من باحثة البادية — ملك حفنى ناصف — جرأة فى المطالبة بحقوق المرأة وتحريرها لم تتمالك من الإعجاب بها وتأييدها لحركتها على غير معرفة شخصية بها ، وقد كتبت لها أولى رسائلها إليها تحييها على حركتها ، وتعلن انضمامها إلى جهودها وجهادها ، وتشجعها على المضى فى طريق التحرر الشاق الطويل . وتقول لها : (قولى ياسيدتى: تكلمى ! ضمى يدك البارة إلى الأيدى التى تحاول رفع هذ الجيل من هذه الحيرة والتردد . ساعدى فى تحرير المرأة بتعليمها واجباتها . إن صوتا خارجا من أعماق القلب ، بل من أعماق الجراح ، كصوتك ، قد يفعل فى النفوس ما تفعله أصوات الأفكار . لا يهمنا أن تخفى تلك اليد النحيفة وراء جدران خدرك ، وأن تحجبى هيئتك الشرقية وراء نقابك الشعرى ، مادمنا نسمع صوتك فى صرير قلمك ، ونعرف منك الروح العالية . فهنيئاً لوطن يضم بين أبنائه مثيلاتك : وهنيئا لصغار يشتقون وعود الهناء من ابتساماتك ، ويسكبون حياتهم فى قالب حياتك ) .

ولم تتوان مى عن مؤازرة المرأة العربية فى أى مكان أو فى أى أرض من بلاد الله أو بلاد العروبة . فقد ناصرت فى مصر عائشة التيمورية ، وملك حفنى ناصف ، وكانت مع زعيمة النهضة النسائية هدى شعراوى إلى نهاية الدرب . . . وأيدت جوليا طعمة دمشقية ، ووردة اليازجى

وسلمى صائغ الأديبة اللبنانية والأم المثالية. وكان تأييدها لهؤلاء بالرسائل الخاصة، أو الرسائل العامة، أو الدراسات، أو الكتب، أو المشاركة العملية لهن فى الجهاد. ومن رسائلها الخاصة إلى سلمى صائغ الرسالة الآتية بتاريخ ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٣ : ( أنت ربيع ياسلمى ! أنت ربيع بلادنا الملون، المنشد، الشفاف، الخصيب. فى هذه النسمات رياح تهب وتعصف. إلا أن الربيع يتغلب عليها ويخرسها كما تخرس أصوات الأجراس — أجراس العيد — كل همهمة، وتعلو فوق كل زئير وكل زفير. أنت ربيع ! وفى سماء الربيع منك يحلق جناحا « الأمومة ». أنت أم لبنانية صالحة فى أفق ربيع لبنانى جميل ).

وكانت مى من أوائل النساء العربيات اللائى أدركن أن المرأة لا يفهمها إلا المرأة، وأن علل النساء لا يعرفها إلا امرأة مثلهن لأنها أدرى بعلة أختها وبنت جنسها. وأن للرجل ميدانه الذى لا يجوز أن يتخطاه إلى ميادين النساء. ولها فى ذلك عبارات حكيمة واعية، منها عباراتها فى رسالة منها إلى باحثة البادية تقول فيها : ( تتوالى الأيام ونحن فى ضلال مبين. الرجل يجاهد فى حرب الاقتصاد الدائمة. الرجل تائه فى مهامه الأشغال، فإذا كتب بحث فى العموميات. وإذا جال قلمه فى الخصوصيات فهو لا يستطيع البلوغ إلى نور الوجدان النسائى، لأنه يكتب بفكره، بأنانيته، بقساوته. والمرأة تحيا بقلبها، بعواطفها، بحبها.

علاتنا مستعصية لا يشفيها إلا طبيب يعرفها، والمرأة بعلة جنسها أدرى، فهى تستطيع معالجتها، ولا تطلب هذه الخدمة الشريفة من

فتيات لا يعرفن من الحياة إلا ما يصوره لهن الخيال المخيم بطلائه على منابت العواطف المخصبة. هذا اعتراف ساذج صادق. الفتيات لا يداعبن القلم إلا لينثرن الدموع أو ليصورن الابتسامات . وما تجاوز ذلك علامات استفهام متتالية وأن لم يرفيها من الاستفهام شيئاً . لكن الزوجة والأم التي أعطيت ذكاء وفطنة وعلماً وشعوراً قوياً تدرك بواسطته كل ما في الحياة من حلاوة ومرارة، تلك تستطيع وضع المرأة في مركزها السامي ، وتلك تقدر أن تعمل في مزج نصفي الشخصية المتألمة ، شخصية المرأة ، وشخصية الرجل ) .

وكان كل صوت ترفعه مي في سبيل تحرير أخواتها كأنه آت من الماضي السحيق يروي قصة الظلم الذي تألب على هذا المخلوق الضعيف، ويردد صيحات التأبي على الضيم ، تلك الصيحات التي كان لها في عشرات السنين التالية أثرها الشديد . وطالما أحست مي نفسها هذا الصوت فعبرت عنه أجمل تعبير من خطاب لها في النادي الشرقي سنة ١٩١٤ حيث تقول : ( أتكلم الآن بحرقة كأني صوت المرأة الصامت منذ أجيال . وتستمعون إلي بإشفاق كأنكم نفس الرجل المشتتة منذ ابتداء الدهور. النفس الكبيرة المبعثرة تستجمع قواها للإصغاء ، والصوت الخافت الذي لم يتعود إلا همس الطاعة وتمتمة التمرد المبهم يرتفع الآن آتياً من بعيد ، من عمق أعماق الدهور السوداء ! من أقصى أقاصي الخليقة العجيبة ! آتيا من القبور ، من البحار ، من عناصر الحياة جميعاً ، صارخاً ! أيها الرجل ! لقد أذللتني فكنت ذليلا ، حررني لتكن حراً ، حررني لتحرر الإنسانية ) .

ونادت مى بتعليم المرأة ، ولم تكن فى ندائها إلا صدى لتقدم زمانها ، لأن صيحات قاسم أمين ومن جاء بعده من المصلحين لم تذهب هباء ولم تضع سدى ، ومن كلامها فى ذلك (١) : (قالوا إن المعارف لم تخلق للمرأة وإن العلم يذهب بجمالها وتواضعها ولطفها ، وأنه يجعلها متكبرة جافة محتقرة العائلة هازئة بالرجل ، وها نحن نراها إذا تعلمت زادت جمالا وحنانا أكيداً واحتراماً للعائلة وإجلالا للرجل) .

ولم تكن مى لترى فى تعليم المرأة مسوغاً لها يجعلها فى حل من تقاليد المجتمع الراقى ، فكثيراً ما حاربت هذه الفكرة فى مقالاتها وخطبها . فهى ترى تعليمها لتكون «أماً» للطفل بروحها وعواطفها ، لا أماً له بثديها وجسدها .

ولو أتاحت الأقدار «لمى» الفتاة أن تكون أماً لكانت أعلى مثال للأمهات الراقيات ، والوالدات الصالحات .

---

(١) المصدر السابق صفحة ٣٩ .

# مي الكاتبة

سجلت مى اسمها فى تاريخ الأدب العربى كاتبة مجيدة ، ومؤلفـــة كثيرة الإنتاج .

أما إنتاجها فالبرهان عليه واضح غير خفى ، تشهد بذلك كتبها الثلاث عشرة التى أخرجتها المطابع وأدرك القراء ما فيها من جمال وخير ، وبحث ودرس ، وجدة وطرافة .

أما جودة كتابتها فهى مسألة قد يختلف فيها الرأى تبعاً للذوق الشخصى والميل النفسى ، ولكن الناس أجمعوا على تمجيد كتابتها، وكان القراء يجدون فيها راحة ولذة، لأنها صادرة عن صدق ، ناتجة عن إخلاص مستقاة من عاطفة وإحساس .

وقد أعجب بمى القارىء العادى لسهولة تعبيرها وصدق تفكيرها ، كما أعجب بها الخاصة لارتفاع فنها ، وحسن ذوقها ، وجمال تأنقها .

فمصطفى عبد الرازق يصف كتابتها بالأناقة كما كانت أنيقة فى شأنها كله[1] . والدكتور منصور فهمى يعجبه من كتابتها الصقل الجميل ، والنغم المتساوق ، وحسن اختيار اللفظ ، وجمال رصف العبارات[2]. وخليل مطران يقول عنها إنها ( تكتب مصورة وملحنة ، ومقسمة للكلام

---

(١) حديث مصطفى عبد الرازق فى هذا الكتاب .

(٢) حديث الدكتور منصور فهمى فى هذا الكتاب .

على تقاسيم شعر خفى تتحرك به النفس[١] ) . والدكتور يعقوب صروف يقول إنها جارت أكتب الكتاب الأوربيين فى البحث والانتقاد[٢] وأن أسلوبها غاية فى الإحكام ، وأنها أوتيت بلاغة فى التعبير عما فى نفسها ، وقدرة على ابتكار المعانى وإفراغها فى قوالب جديدة واستعارات أنيقة .

والشاعر ولى الدين يكن يقول لها : ( فصولك الغضة تعلو بالمدارك وتنير[٣] جوانب النفوس فلا تدعيها كالأوراق التى تخضر فى الربيع وتذوى فى الشتاء ، اجمعيها جنية غضة ، وكللى بها رؤوس هذه الأعوام .. الناس فى حاجة إلى هذه الأنغام الإلهية ) .

وكذلك أجمع الذين عرفوا مياً أو قرأوها على علو كعبها فى الكتابة.

ولمى غير كتبها الثلاث عشرة مقالات كثيرة متفرقة نثرت فى مجلات مختلفة وصحف سيارة ، أهمها المقتطف والهلال والأهرام والزهور والمحروسة .

* * *

ترجمت مى عن ثلاث لغات أوربية ثلاث روايات مختلفات: رواية « رجوع الموجة » وقد نقلتها عن الفرنسية ، « والحب فى العذاب» وهى رواية تاريخية عن الإنجليزية ، « وابتسامات ودموع » وهى رواية عن الألمانية ترجمتها مى فى بدء تعلمها اللغة الألمانية .

(١) من حديث خليل مطران فى هذا الكتاب .

(٢) باحثة البادية : المقدمة ص ١ .

(٣) سوانح فتاة : المقدمة .

ولقد نفدت الرواية الأولى من السوق فى زمن قصير ، وطبعت الرواية الثالثة طبعتين زادت فى ثانيتهما مى بعض الزيادات وغيرت بعض التغيير .

والفرق بين طبعتى رواية « ابتسامات ودموع » أن الأولى منهما كان فيها بعض التصرف من مى ، ولعل عدم تمكن مى من اللغة الألمانية حينئذاك قد ساعد على ذلك . أما الطبعة الثانية فقد تقيدت فيها المترجمة بالأصل معنى وتعبيراً محاولة — كما تقول — إبرازه إلى العربية بصيغته الشعرية البسيطة خالياً من الاستعارة الغربية والتنميق الشرقى[1] .

أما كتاباها « باحثة البادية » و « وردة اليازجى » فهما من نوع النقد الأدبى الممتاز ، طبع أولهما مستقلا فى كتاب سنة ١٩٢٠ بعد أن نشر متفرقاً فى مجلة المقتطف ، وأضافت إليه الكاتبة عند طبعه كثيراً مما له علاقة بالموضوع .

وطبع الثانى فى كتيب صغير بمطبعة البلاغ بعد أن ألقى محاضرة فى جمعية الشابات المسيحيات سنة ١٩٢٤ ونشر تباعاً فى المقتطف .

وتعترف مى فى كلمتها[2] فى تأبين الدكتور يعقوب صروف بفضله عليها وتشجيعه لها على دراسة هاتين الأديبتين ، مما شجعها على متابعة الكتابة عن عائشة التيمورية فى سلسلة من المقالات فى المقتطف لم ينتظمها إلى اليوم كتاب واحد .

---

(١) ابتسامات ودموع ص ١٧ طبعة ثانية .

(٢) المقتطف مايو سنة ١٩٢٨ ص ٥٦٩ .

أما كتابها « المساواة » فهو بحث اجتماعى يدل على اطلاع واسع ودراسة ممحصة ، ونظرة صحيحة ، ونفوذ إلى حقائق التاريخ واستيعاب تام لحوادثه وأحداثه . تكلمت فيه مى عن الطبقات الاجتماعيـــة ، والأرستقراطية ، والعبودية والرق ، والديمقراطية والاشتراكية السلبية ، والاشتراكية الثورية ، والفوضوية والعدمية .

وتظهر شخصية مى الـكاتبة مستقلة واضحة فى هذا الـكتاب ، ويخيل إلى أن الأمير شكيب أرسلان استكثر الـكتاب على مى وظنه ترجمة لا وضعاً ، بدليل ما كتبه المرحوم الدكتور صروف إلى عطوفته فى ذلك الشأن ( . . (١) وأرجح أنها لم تترجم شيئاً ترجمة ، لأنها تتكلم معى فى كل المواضيع الأدبية والفلسفية كما تكتب ، فإنها قوية الذاكرة إلى حد يفوق التصور ، وقد قرأت كثيراً من الـكتب فى اللغات التى تحسنها ) . « والمساواة » نشر تباعاً بالمقتطف ، ثم نشر مستقلا فى كتاب طبع بالمطبعة الرحمانية .

أما كتابها « سوانح فتاة » فهو مجموع كلمات وخطرات فى موضوعات مختلفة لم يجمع بينها نسب . ولعلها تلك الكلمات التى كانت تنشرها مى فى الصحف من حين إلى حين ، نشرته إدارة الهلال سنة ١٩٢٢ لحققت بذلك رغبة قديمة للشاعر ولى الدين يكن الذى اقترح على الـكاتبة فى سنة ١٩١٣ أن تجمع تلك الفصول ولا تدعها كالأوراق المخضرة فى الربيع الذاوية فى الشتاء .

---

(١) معجم المطبوعات العربية ليوسف أليان سركيس .

ولدار الهلال فضل أى فضل فى تشجيع مى ونشر كتبها ، فقد نشرت لها كذلك كتابها « بين الجزر والمد » الذى يمتاز عن « سوانحها » بتقارب موضوعاته وائتلافها ، فهو صفحات عطرات فى اللغة وحياتها ، والمجمع اللغوى ومهمته ، ونقد الكتب ، ومعرض الصور ، وعالم الألحان ، والشعر القصصى الحماسى . وعندى أن هذا الكتاب القيم لا يستغنى عنه أديب ولا طالب أدب .

ونشرت دار الهلال لمى غير غير ذلك كتابين أحدهما « كلمات وإشارات » ، والثانى « ظلمات وأشعة » ، وقد طبع الكتابان فى عام واحد « سنة ١٩٢٣ » . أما الأول فهو مجموعة من الخطب تدور حول المرأة والإحسان ، والتكريم والتأبين ، ففيها من مى الرحيمة دموعها وحنانها ، ومن مى الفتاة شجاعتها وإيمانها ، ومن مى الوفية آيات الوفاء ودموع الرثاء . وقد قدم للكتاب بكلمة بليغة موجزة الأستاذ أميل زيدان أحد صاحبى « الهلال » .

أما الثانى « ظلمات وأشعة » ، فقد قسمته إلى ثلاثة كتب : من كوة الحياة ، ونحو مرقص الحياة ، وفى مرقص الحياة ، وهو مجموع مقالات مختلفة الموضوعات . ففى مقال « نشيد نهر الصفا » تظهر وطنيتها وحنينها لمراتع صباها ، وفى مقال « بكاء الطفل » يظهر رأيها فى وظيفة الأم وواجبها ، وفى مقال « كن سعيداً » تظهر فلسفة مى فى السعادة وتصورها على اختلاف الحالات ، وفى بقية المقالات ما يدل على آرائها ونظراتها فى الحياة .

## منتدى مىّ

وقف الشاعر خليل مطران فى تأبين مى يقول من قصيدته:

أقفر البيت أين ناديك يا مـ ـى إليه الوفود يختلفونا
صفوة المشرقين نبلا وفضلا فى ذراك الرحيب يعتمرونا
فتساق البحوث فيه ضروباً ويدار الحديث فيه شجونا
وتصيب القلوب وهى غراث من ثمار العقول ما يشتهينا

فوصف نديها أو «صالونها» الأدبى شعراً بأحسن ما وصفه الواصفون . ثم أشار إليه العقاد فى مرثيته الشعرية بقوله :

سائلوا النخبة من رهط الندى أين مى هل علمتم أين مى ؟
الحديث الحلو واللحن الشجى والجبين الحر والوجه السنى
أين ولى كوكباه ؟ أين غاب ؟

والحق أن الوفود كانت تختلف إلى منتدى مى بين عالم وأديب ووزير ، فيزول التفاوت من بينهم ، ويجمع بينهم الأدب اللباب ، ويؤلف بينهم على اختلافهم فى المراتب ، وتفاوتهم فى المناصب .

ومى فى وسط الجمع تدير الحديث وتوجه الكلام ، وتقبل على الزوار فى بشاشة تنسيهم أنهم ضيوف ، وتقدم لهم شراب الورد سائغاً للشاربين. وكان من(١) أصدقائها الذين لا يتخلفون عن شهود منتداها المرحومون

---

(١) مجلة الهلال أبريل سنة ١٩٢٨ .

الدكتور شبلى شميل ، والدكتور يعقوب صروف ، وإسماعيل « باشا » صبرى ، وولى الدين يكن ، ومحمد حسن نائل المرصفى ، ومصطفى عبد الرازق ، والدكتور منصور فهمى ، وأحمد لطفى السيد ، وعباس محمود العقاد .

أما الأحياء — بارك الله فى أعمارهم — فمنهم الدكتور طه حسين .

وكان حديث منتداها كما وصفه المرحوم مصطفى عبد الرازق[1] فى جو يفيض أدباً وفناً وفكاهة وجداً ، ويفيض صفواً لا يكدره مكدر ، وكان مجلسها لا لغو فيه ولا تأثيم .

ذلك حديث منتداها ووصف زوارها . . أما المنتدى نفسه فهو رحب فسيح ، تأنقت هى فى اختيار أثاثه ، وظهر ذوقها السليم فى الطرف المنثورة فى جوانبه ، والصور المعلقة على جدرانه ، والتماثيل القائمة فى أركانه . وليس منتدى مى أو صالونها « بدعة » فى مصر كما ذكر سلامة موسى فى حديث له معها نشر بالهلال سنة ١٩٢٨ ، وليست مى هى التى أسست لأول مرة فى تاريخها الحديث هذا الصالون ، كما ذكر الدكتور طه حسين فى الخطاب الذى ألقاه يوم تأبينها ، فقد سبقتها إلى ذلك الأميرة نازلى[2] التى سفرت فى المجتمعات ، واشتركت مع الرجال فى مجالسهم ومجامعهم ، وجعلت فى قصرها[3] شرقى قصر عابدين ندوة يفد إليها

---

(١) من خطبة له فى حفل التأبين .

(٢) من حديث لى مع المرحوم جبرائيل تقلا « باشا » صاحب الأهرام .

(٣) صحح الدكتور طه حسين رأيه فى الحديث المنشور فى هذا الكتاب .

العلماء والأدباء ، يجادلون ويناظرون ، ويبحثون ويتشاورون فى العلم والأدب والاجتماع ، وخاصة فى السياسة التى شغلت رواد مجلسها فى ذلك الحين .

والمشابهة بين صالون مى وصالون الأميرة نازلى تكاد تكون تامة من حيث المناظرة والمناقشة والمحادثة ومقام الوافدين ومكانة المجتمعين، ومن حيث تصون الأحاديث من كل ابتذال، وارتفاعها عن كل صغيرة، ومن حيث المناقشة فى موضوع المرأة والرجل . فقد كانت الأميرة أول المشجعين لقاسم أمين العاطفين على حركته فى سبيل تحرير المرأة . إلا أن الصالونين يختلفان فى مسألة واحدة هى السياسة ، فلقد كانت المناقشات السياسية فى منتدى مى طارئة ، وفى منتدى الأميرة كانت أصيلة ثابتة .

وليست أندية النساء بدعة فى التاريخ الإسلامى قديمه وحديثه ، وليست النساء البرزات المتحدثات إلى الرجال بحديثات فى تاريخ الأمة العربية فى جاهليتها وإسلامها .

فلقد اشتهر فى الجاهلية الخطيبات كما اشتهر الخطباء ، ومنهن هند بنت الخس وهى الزرقاء ، وجمعة بنت حابس[1] .

واشتهر فى الجاهلية نساء من المحكمات فى الشعر يجلسن بين الرجال ويسمعن القصيد ، ويحكمن فيه لشاعر على شاعر ، ومنهن أم جندب زوجة امرىء القيس التى حكمت بينه وبين علقمة الفحل ، وكان حكمها لعلقمة على زوجها فطلقها[2] .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ج ١ ص ٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٣ .

وفى الإسلام كانت عائشة أم المؤمنين زوج النبي عليه السلام وبنت أبى بكر الصديق تحفظ شعر لبيد [١] وتتمثل به فى المجالس ، وتتكلم فى مسائل الفقه ، وفيها يقول النبي عليه السلام « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

وظهرت فى مكة امرأة برزة جزلة اسمها « خرقاء » ، وكان عندها سماطان من الأعراب تحدثهم وتناشدهم بلا ريب ولا سوء ظن [٢] .

وكانت عمرة امرأة أبى دهبل [٣] الشاعر جزلة يجتمع إليها الرجال للحادثة وإنشاد الشعر والأخبار، ولقد عرفها زوجها — قبل الزواج — فى أحد مجالسها فتزوجها .

ومجالس السيدة سكينة بنت الحسين بن على فى المدينة معروفة تفيض بذكرها كتب التاريخ والأدب ، فلقد ترجم لها ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان، وذكر طرفاً من نوادرها وأخبارها فى مجالسها ومواقفها بين الشعراء والأدباء . وكانت تعرف كيف تأسر قلوب الرجال فى أدب ظاهر وعفة باطنة ، ولم يتعرض جمالها وملاحتها . وطرة شعرها التى نسبت إليها — فقيل طرة سكينية — ولم يتعرض مكانها وفضلها للقيل والقال ، وما عرفت عنها ريبة فى حياتها ، بل وصفها المؤرخون بأنها كانت أفضل نساء عصرها ، وأحسن سيدات جيلها [٤] .

---

(١) كتب التاريخ والسيرة .

(٢) كتب الأدب .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية .

(٤) خطط على « باشا » مبارك ، ووفيات الأعيان .

هؤلاء النساء الجزلات البرزات المتحدثات إلى الرجال وكثير غيرهن ممن ذكرتهن كتب التاريخ والأدب ، لم تتطرق إلى مجالسهن ريب أو شكوك ، ولم تصل إليها الوساوس . وكان الاجتماع بين الرجال والنساء للمحادثة والمذاكرة على هذه الصورة بلا ريبة ولا سوء ظن لم يبلغ إليه الناس إلا فى الأمم الراقية وفى أرقى جمعياتهم[١] .

ومن الحظ الحسن لأنصار الأندية النسائية أن صاحباتها فى تاريخ الأدب العربى كن على جانب من الحرص فى المخالطة والحذر فى الاجتماع ، إلا ما كان من منتدى ولادة بنت المستكفى . . فقد أهملت فيه جانب الاحتراس مما أدى إلى العلاقة بينها وبين أبى الوليد بن زيدون الشاعر الأندلسى الذى نظم لها القصيدة النونية المشهورة التى مطلعها[٢] :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

* * *

ولقد أشار أكثر الذين أبنوا ميا أو تحدثوا عنها إلى « ناديها » أو صالونها ، ويكادون يجمعون على أنه كان مثالا راقياً للمجتمعات الأدبية الراقية ، ويصف المرحوم مصطفى عبد الرازق مجلسها بأنه لا لغو فيه ولا تأثيم[٣] .

وأظن أن مادار فيه من الأحاديث ، وما عولج فيه من المسائل ، وما روى فيه من الشعر ، وما نوقش فيه من مسائل العلم والأدب ،

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان .
(٢) نفح الطيب وكتب الأدب .
(٣) من خطبته فى التأبين .

وما بدا فيه من المشارب والميول ، وما ظهر فيه من النفوس والعقول، كل ذلك يصور لنا ناحية جميلة ممتعة من تاريخ الأدب فى العصر الحديث .

وليس عباس العقاد وخليل مطران وحدهما هما اللذين سجلا صالون مى فى شعرهما ، فقد سبقهما إلى ذلك المرحوم الشاعر الرقيق إسماعيل صبرى «باشا» وكان قد اضطر إلى التخلف عن زيارة الصالون فى موعده الأسبوعى يوم الثلاثاء ، فكتب إليها البيتين التاليين :

روحى على دور بعض الحى حائمة كظامىء الطير تواقا إلى الماء !
إن لم أمتع بمى ناظرى غداً أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء !

* * *

ولقد زار اثنان من أفاضل الأمريكيين «ميا» فى ندوتها ، الأول هنرى جايمس القصصى الأمريكى وشقيق وليم جايمس العالم النفسى المشهور ، والثانى ابن الشـــاعر لونج فلو Long fellow الأمريكى . ولا شك فى أن ميا كانت معهما مثالا للمرأة الشرقية المثقفة ، ولا أشك كذلك فى أنهما أعجبا بعقلها الواسع وذكائها الكثير .

# محب بين الكتب

لقد كان عند الآنسة مى أشياء جميلة محببة ، فقد أحبت كنارها الجميل الوديع ، وأحبت الزهر منضور الجمال فى الرياض والبساتين كما أحبته حبيسا فى الأصص والآنية ، يسقى الماء من حين إلى حين ، لتدب فيه الحياة والنضارة من جديد .. وأحبت الموسيقى ؛وكانت تجيدالعزف كما تجيد الإصغاء إلىاللحن الرفيع ، ثم إلى اللحن الحزين . وكانت ألحان الموسيقى ترتفع بها فى نشوة علوية لتأخذها من الأرض إلى عليا السموات . وقد عبرت مى عن ذلك بقولها : « أن الموسيقى لتخاطبنى بلغة ليس أقرب منها إلى إدراكى وعواطفى . أنها تنيلنى أجنحة وتطير بى إلى عوالم لا يطرقها غيرها . أشكرك اللهم لأنك فطرتنى على حب الموسيقى وحب الجمال » .

وفوق هذه المحبوبات الثلاث التى شغفت بها الآنسة مى ، أحبت القراءة والكتاب ، فكان « الكتاب » أليفها وسميرها فى كل لحظة وفى كل خلوة . فأذا فرغت من شئون حياتها الخاصة — ولم تكن كثيرة إلى الحد الذى يشغل — لجأت إلى كتاب تقرؤه ، وتقضى بين سطوره الساعات تلو الساعات ، وهى تجد فى قراءته لذة ومتعة لا يعدلها لذاذة ولا متاع .

ومن سخريات الأقدار وعجائب مفارقاتها أن « ميا » التى أحبت الكتاب منذ طفولتها الواعية فى المدرسة ، ماتت على سرير الردى

والكتب منثورة على النضد بجانبها ، كأنها أبت أن تودع العالم دون أن تكون آخر نظرة من عينيها ملقاة على دفتى كتاب .

فقد شهدت وفاتها بمنزلها الحزين الموحش بالقاهرة — لا فى مستشفى المعادى كما ذكر ذلك بعض الذين كتبوا عنها — وداعها لهذا العالم وعلى المنضدة بجانب سريرها أربعة من الكتب ، هى جرازيلا للشاعر الفرنسى لامارتين ، والدليل إلى حلبى التائه بالإيطالية ، وصورة دوريان جراى لأوسكار وايلد بالانجليزية ، وكتابها بالعربية عن ملك حفنى ناصف وعنوانه « باحثة البادية » .

عجبا كل العجب ! عصبة من الأمم ، أو عصبة من الكتب بالعربية والانجليزية والفرنسية والإيطالية ، تلتقى كلها فى ساعة الاحتضار لتؤكد أن الإنسان الذى يريد أن يثقف نفسه لا يبالى بأية لغـــة يقرأ ، ولا عن أى قوم يأخذ ، فأن الجنس لله ، والفكر للجميع .

وعبرة أخرى نأخذها من وجود هذه الكتب الأربعة على نضد بجانب سرير الموت عند الآنسة مى ، وهى أن أزمة النفس ، والروح ، والجسم ، والداء العياء ، وخفوت ذبالة السراج فى آخر مراحلها لا تمنع نفسا متعطشة إلى المعرفة من أن تقرأ ، وتستعرض أفكار المؤلفين الأحياء والأموات ، ولو كان ذلك على سرير الموت .

وكذلك كانت « مى » فى أثناء محنتها العقلية النفسية العصيبة فى لبنان فى سنتى ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ ، فقد كانت تقطع وحدتها الموحشة الكئيبة بعض الحين بقراءة كتاب ، أو تدوين فكرة .

ولما عادت مى إلى مصر بعد رحلتها المرضيـة الكئيبة فى مستشفى

العصفورية ومستشفى « ربيز » ، وعاد إليها نشاطها الفكرى بعض الشىء عادت إلى القراءة ، ثم عادت إلى القلم لتكتب ، وكأنها كانت تختبر مقدرتها على الكتابة بعد أن كان ما كان . فتمسك قلما وورقة وتخط بضعة أسطر ، ولكن نفسها المتحطمة لا تقوى على الاستمرار ، فتضيق صدرا بالكتابة ، وترمى القلم بعيدا ، وهى تنادى فى ألم :

— أيها القلم ! إليك عنى . فقد ضقت ذرعا ، وسئمت هذه الوحدة المظلمة ، أننى أريد أن أخرج من هذا الأسر الذى أنا فيه ، أريد أن أخرج حتى من ثيابى . آه ما أثقل الحياة ! فإذا زايلتها هذه النوبة النفسية بعد نزهة خارج البيت ، عادت لتمتع عينها بالنظر إلى لوحة فنية ، أو لتقرأ فصلا من كتاب ، ولا تزال كذلك حتى تعاودها الأزمة النفسية من جديد .

وكانت مى تقرأ كل شىء ، فإذا أعجبها الشىء المقروء مضت فيه إلى غايته . وإذا لم يعجبها أو لم يصادف من قلبها حبا ألقت به بعيدا . وإذا كانت قراءتها للكتب تقدم لها غذاء فكريا أصيلا ، فأنها كانت تختار من المجلات ما تجد فيه هذا الغذاء . ولهذا كانت لا تهتم بالمجلات الرخيصة العابرة ولا تلقى بالا إليها ، على حين كانت تقرأ مجلتى الهلال والمقتطف بنهم وحرص بالغ على الاستيعاب . وكانت معجبة أشد الإعجاب بالمقتطف ورئيس تحريره أستاذها الدكتور يعقوب صروف ، وقد كتبت إليه فى سنة ١٩١٩ حينما أهدى إليها مجموعة المقتطف التى صدرت منذ إنشائه إلى ذلك الحين : (والآن ألتفت إلى الزاوية اليمنى ، فأرى الأثر النفيس الذى

وضعته يدك الكريمة فى تاريخ نهضتنا أولا ، ثم فى مكتبى هذا الصغير ، لحق لى القول بأن مقتطفنا صار مقتطفى أنا .

فتحت اليوم أحد الأجزاء ، فرأت عينى صورة رجل ترصع الأوسمة صدره ، فقلت فى نفسى إن أوسمتك أنت فوق جميع الأوسمة جمالا . كل سنة من سنى المقتطف وسام خالد على صدرك لا ينال الصدأ من تبره ، ولا تعرف الغش درره ، بل أن ما فيه من السناء أبدى التألق على كر الدهور ) .

ولقد استطاعت مى بوساطة « الكتاب » والقراءة أن تتعرف إلى كثير من الأدباء والمفكرين ، وأن تعقد بينهم أسباب المودة الفكرية . فكان الكتاب هو وسيلتها إلى عقد هذه الصلات الروحية الغالية ، وأول ما نذكره فى هذا الباب هو تعرفها إلى الشاعر المفكر جبران خليل جبران فى مارس سنة ١٩١٢ . فقد كانت كتب جبران فى ذلك الحين منتشرة على نطاق واسع بين قراء العربية . وكانت مقالاته بجرأتها وطابعها التجديدى الفريد ، وأسلوبها المبتكر على الذوق العربى ، تلفت النظر وتثير الدوى فى كل أرض عربية . فقرأت مى أكثر مقالاته ، وتابعتها فى كل صحيفة ومجلة . وقرأت قصته التى عنوانها « مرتا البانية » فأعجبت بها وبطريقة تفكيرها ، وأرادت أن تعبر عن هذا الإعجاب بكلمة تكتبها وترسلها إليه .. وكانت حتى هذه اللحظة تعرف من أنبائه ما تناثر إلى أذنها فى مصر . تعرف أنه لبنانى هاجر إلى العالم الجديد . وتعرف أن له قلما وفكرة وذوقا ، فنيا وموهبة فى الرسم ، فأمسكت القلم ، وكتبت إليه أولى رسائلها إليه . وكان من تخطيطها لفكرة مبادأته بالكتابة إليه

أن تعرفه بنفسها ، فبدأت رسالتها الأولى بتعريف عن اسمها الأصلى « مارى » الذى حولته إلى « مى » لتوقيع كتاباتها العربيـــة ، وإلى « أيزيس كوبيا » لتوقيع كتاباتها الفرنسية . وحشدت له فى تلك الرسالة طائفة من أنبائها الخاصة ، وطريقـة كتابتها ، ولون معيشتها ، ومشروعاتها الأدبية المستقبلة ، كأنها كانت تراسله منذ زمن طويل ، وكأن هذه ليست أول رسالة يتحفظ فيها الإنسان من أن ينطلق فى البوح دفعة واحدة !

ورد عليها جبران خليل جبران بالطبع ، فكانت أولى رسائله إليها . ومن هذه النقطة كانت البداية للكاتبة والمعرفة الوثيقة بين الاثنين .

وكذلك كان تعرف الآنسة مى إلى « باحثة البادية » المرحومة ملك حفنى ناصف بنت الشاعر الرقيق المرحوم حفنى ناصف . فقد كانت تقرأ لها رسائلها ومقالاتها عن المرأة المصرية ، فلما وقع لها كتاب «نسائيات» الذى ألفته باحثة البادية ، قرأته قراءة واعية ، وأمسكت قلمها وكتبت إليها — على غير سابق معرفة — رسالة تقول فيها :

« ترنمت باسمك قبل أن أعرفك . واتخذت ذكرك عنوانا لنهضة المرأة المصرية ، قبل أن أطالع مقالاتك ، لأن أصوات الجمهـور قد اتفقت فى الثناء على فضلك . غير أنى عثرت بالأمس على مجموعة كتاباتك النفيسة ، فانحنيت عليها ساعات طويلات فيها خيل لى أنى أقلب صفحات نفسك المتفكرة المتوجعة .

« بالأمس لمست نفسك وقرأت أفكارك ، فعثرت على جراح بليغة وددت تقبيلها بشفتى روحى ، وما أطبقت الكتاب إلا وأنا ألثم بنانى

على غير هدى ، ولم يكن ذلك إلا إجلالا لصفحات قلبتها ، وحبا لنفس استجوبتها فعرفتها » .

وبلغ من إعجاب مى « بالكتاب » — أى كتاب — أنها كانت تشير دائما إلى قيمته فى الفكر وأثره فى التعليم . وقد انتهزت مرة فرصة الاحتفال بمرور ٢٥ عاما على « مطبعة المعارف » فى فندق الكونتنتال فألقت خطابا لبقا قالت فيه :

« لكن المطبعة ضرورية خصوصاً لتخليد الكتاب . . الكتاب ! سنى المواهب ، مفجر ينابيع النهى ! الكتاب ، ذلك الصديق الأمين . . تلك الثروة التى لا تفنى . . تلك القسوة الصامتة ، المهيبة ، المهذبة التى لا تعرف جدالا . ما أعذب عبوس الكتاب فى نفسى محب الكتاب ! وما أخلصه جوهرا ، وأكرمه أستاذا .

الكتاب الذى يرفعنا فوق صغائر الحياة ، ويعلمنا كيف ننمى فينا أشرف القوى الإنسانية : الإخلاص ، والذكاء ، والإرادة . ويقودنا قليلا قليلا إلى أعلى ذرى الإدراك والعرفان . . إلى « أوليمبس » العظمة الشماء حيث أيوب ، وأسخيلوس ، وشيشرون ، ودانتى ، وسرفانتس ، والمعرى ، وشكسبير ، وكنت ، وهوجو يسكبون فى فكرنا أفكارهم ، وتصير نفسنا كبيرة بلمس أرواحهم ، فتتسع ، وتتسع ، ثم تتسع حتى تحضن الفضاء ! » .

هذه هى مى القارئة ، المحبة « للكتاب » ، المقدرة لقوته فى تكوين الشخصيات ، والارتفاع بالإنسان إلى أعلى الآفاق ، وأرحب الساحات .

# الشعر فى رثاء مى

ما كان أسرع الأدباء والكتاب الذين أحسوا الفجيعة فى مى فرثوها . ونظرة سريعة إلى صحف ومجلات شهرى أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٤١ توضح لنا أثر نبأ وفاتها المفجع فى نفوس أولئك الذين كانوا يقدرونها ويعطفون عليها فى محنتها ، ويودون لو كان لرواية حياتها ختام غير هذا الختام .

ولقد أقيم فى دار الاتحاد النسائى الذى كانت ترأسه المرحومة هدى شعراوى حفل تأبين ازدحم فيه المكان على سعته بالمشاركين فى هذا المصاب الذى جاء والحرب العالمية الثانية فى ثالث أعوامها الشداد . . والتقى فى ذلك الحفل عرب وغير عرب ، والتقى فيه الرجال والنساء ، والتقى فيه الشباب والشيوخ وكلهم جاء ليستمع إلى كلمة وفاء أو رثاء يلقيها صديق أو أديب .

وكان للشعر مجاله فى ذلك الحفل ، فاستمعنا إلى قصائد من شعر خليل مطران وأحمد محرم وعباس محمود العقاد وغيرهم .

وقد كانت قصيدة العقاد صورة رائعة دقيقة التفاصيل للآنسة مى ، صور فيها ذكاءها الألمعى كالشهاب ، وشيمها الرضية العذبة ، وحجاها النافذ بصواب الرأى ، وجمالها القدسى الذى لا يعاب . ثم تحسر على هذه المزايا كيف تدفن فى التراب .

وكذلك كانت قصيدة خليل مطران الذى كان كالعقاد من رجال صالونها الأدبى الذى أشرنا إليه فيما سبق من صفحات .

وقد يكون من باب التسجيل لمآثر الشعر فى الوفاء أن ندون هنا نص قصيدتى مطران والعقاد .

## آه من التراب !

وقصيدة العقاد من الخماسيات ، تتنوع فيها القافية فى كل رباعية ، ثم تتحد فى الشطر الخامس الذى تلتزم فيه القافية على مدار القصيدة كلها ، والأربع الشطرات الأولى من كل خماسية موحدة القافية ، ولكنها تختلف من خماسية لأخرى . ولعل هذا التنوع وعدم التزام قافية واحدة على هيئة القصيد العادى قد أتاح للمرحوم العقاد أن يفتن فى تلوين صورة مى وفى الإحاطة بظلالها وأضوائها على خير ما يكون التلوين والتصوير :

أين فى المحفل « مى » ياصحاب ؟     عودتنا ههنا فصل الخطاب
عرشها المنبر مرفوع الجناب     مستجيب حين يدعى ، مستجاب
أين فى المحفل « مى » يا صحاب ؟

سائلوا النخبة من رهط الندى     أين «مى» هل علمتم ؟ أين مى ؟
الحديث الحلو واللحن الشجى     والجبين الحر والوجه السنى
أين ولى كوكباه ؟ أين غاب ؟

أسف الفن على تلك الفنون     حصدتها ـ وهى خضراء ـ السنون
كل ما ضمته منهن المنون     غصص ما هان منها لا يهون
وجراحات ، ويأس ، وعذاب

شيم غر رضيات عذاب        وحجى ينفذ بالرأى الصواب
وذكاء ألمعى كالشهاب        وجمال قدسى لا يعاب

كل هذا فى التراب . آه من هذا التراب !

كل هذا خالد فى صفحات        عطرات فى رباها مثمرات
إن ذوت فى الروض أوراق النبات        رفرفت أوراقها مزدهرات

وقطفنا من جناها المستطاب

من جناها كل حسن تشتهيه        متعة الألباب والأرواح فيه
سائغ ميز من كل شبيه        لم يزل يحسبه من يجتنيه

مفرد المنبت معزول السحاب

الأقاليم التى تنميه شتى        كل نبت يانع ينجب نبتا
من لغات طوقت فى الأرض حتى        لم تدع فى الشرق أو فى الغرب سمتا

وحواها كلها اللب العجاب

يا لذاك اللب من ثروة خصب        نير يقبس من حس وقلب
بين مرعى من ذوى الألباب رحب        وغنى فيه وجود مستحب

كلما جاد ازدهى حسنا وطاب

طلعه الناضر من شعر ونثر        كرحيق النحل فى مطلع فجر
قابل النور على شاطىء نهر        فله فى العين سحر أى سحر

وصدى فى كل نفس وجواب

حى « ميا » إن من شيع ميا        ، منصفا ، حيا اللسان العربيا

وجزى حواء حقاً سرمدياً وجزى مياً جزاء أريحيا

للذى أسدت إلى أم الكتاب

للذى أسدت إلى الفصحى احتساباً والذى صاغته طبعاً واكتسابا

والذى خالته فى الدنيا سرابا والذى لاقت مصاباً فمصابا

من خطوب قاسيات وصعاب

أتراها بعد فقد الأبوين سلمت فى الدهر من شجو وبين

وأسى يظلمها ظلم الحسين ينطوى فى الصمت عن سمع وعين

ويذيب القلب كالشمع المذاب

أتراها بعد صمت وإباء سلمت من حسد أو من غباء

ووداد كل ما فيه رياء وعداء كل ما فيه افتراء

وسكون كل ما فيه اضطراب

رحمة الله على « مى » خصالا رحمة الله على « مى » فعالا

رحمة الله على « مى » جمالا رحمة الله على « مى » سجالا

كلما سجل فى الطرس كتاب

تلكم الطلعة ما زلت أراها غضة تنشر ألوان حلاها

بين آراء أضاءت فى سناها وفروع تتهادى فى دجاها

ثم شاب الفرع والأصل ، وغاب

غاب والزهرة تؤتى الثمرات ثمرات من تجاريب الحياة

خير ما يؤتى حصاد السنوات بعثرتهن الرياح العاصفات

ورمتهن ترابا فى خراب

ورد ما عندك يا هـــذا التراب كل لب عبقرى أو شباب
فى طواياك اغتصاب وانتهاب خلقا للشمس أو شم القباب
خلقا ، لا لانزواء واحتجاب ...

ويك ! ما أنت براد ما لديك أضيع الآمال ما ضاع عليك
مجد « مى » غير موكول إليك مجد « مى » خالص من قبضتيك
ولها من فضلها ألف ثواب . . .

## لجيعـــة الشرق

أما قصيدة خليل مطران التى ألقاها فى حفل تأبينها بدار الاتحاد النسائى فهى قصيدة موحدة القافية ،وقد صور فيها مياً : منتداها وبيانها وأدبها وقلبها الفياض بالخير والحب ، وصوتها الذى ملأ الأسماع ، وانصرافها إلى الجد على حين انصرف غيرها من الغيد إلى اللهو ، ومحنتها بفقد أبويها ووحدتها بعدهما ــ وهو يتفق هنا مع العقاد ــ ولكنه لا يشير إلى ما وقع عليها بعد ذلك من غبن وظلم إلا إشارة عابرة :

قد تولى رفاقنـــا وبقينا يعـــلم الله بعدهم ما لقينا
هل من الصاب فى كئوسك سؤر قد سقينا يا دهر حتى روينا
أوداع يتلو وداعا ، وتأبيـــن على الأثر معقب تأبينا ؟
أيها الشاعر الذى كان حينا يتغنى ، وكان ينحب حينا
حطم العود إن كر الليالى لم يغادر فى العود إلا الأنينا

* * *

أن يلم الردى بمى غداة ... يا لقومى بأى خطب دهينا ؟
طالع السعد هل تحول نوءاً ... يبعث الريح والسحاب الهتونا
فإذا ما أقر أمس عيونا ... قرح اليوم بالدموع العيونا
نعمة ماسخا بهـا الدهر حتى ... آب كالعهد سالباً وضنينا
أيهذا الثرى ظفرت بحسن ... كان بالطهر والعفاف مصونا
لهف نفسى على حجى عبقرى ... كان ذخراً فصار كنزاً دفينا

* * *

إيه يا مى أسرف اليتم تبر ... يحا بروح كان الوفى الحنونا
فقدك الوالدين حالاً فحالا ... جعل البيض من لياليك جونا
ورمى أصغريك رامى الكبيريـ ... ـن فذاقا قبل المنون منونا
أقفر البيت ، أين ناديك يا مـ ... ـى إليه الوفود يختلفونا ؟
صفوة المشرقين نبلا وفضلا ... فى ذراك الرحيب يعتمرونا
فتساق البحوث فيه ضروباً ... ويدار الحديث فيه شجونا
وتصيب القلوب وهى غراث ... من ثمار العقول ما يشتهينا

* * *

فى مجال الأقلام آل إليك الســ ... ـبق فى المنشئات والمنشئينا
أين ذاك البيان يأخذ بالألـ ... ـباب فيما تجلين أو تصفينا
فى لغات شتى ، وفى لغة الضا ... د تجيدين صوغ ما تكتبينا
أدب قد جمعت فيه علوما ... يخطىء الظن عدها وفنونا

وتصرفت فيه نظما ونــثراً    باقتدار تصرف الملهمينا
تبتغين الصلاح من كل وجه    وتعانين شقوة المصلحينا
وحى قلب يفيض بالحب للخير    ر ، ويهدى إليه من يهتدونا
ويود الحياة عزاً وجهداً    لا يود الحياة خسفا وإينا
فهو آنا يبث بثاً رفيقاً    يملأ النفس رحمة وحنينا
وهو آنا يثور ثورة حر    عاصفا عصفة تدك الحصونا
يبصر العقل، يكشف الجهل، يوحى الـ    ـعدل ، يرعى الضعيف والمسكينا

* * *

أين ذاك الصوت الذى علك الأسـ    ـماع فى كل موقف تقفينا ؟
لجمع الشرق فى خطيبته الفصـ    ـحى ، وما كان خطبها ليهونا
أبلغ الناطقات بالضاد عيست    بعد أن أدت البلاغ المبينا
أطربته ، وهذبته ، وحثتـ    ـه على الصالحات دنيا ودينا
بكلام حوى الطريفين تنغيـ    ـما كما يستحب ، أو تلوينا
قدرته لفظاً ، ولحظاً ، وإيمـ    ـاء بما ودت المنى أن يكونا

* * *

ذاك فى العيش ما شغلت به والـ    ـغيد تلهو ، وأنت لا تلهينا
لم تروى إلا الجليل ، وجانبـ    ـت الأباطيل واتقيت الفتونا
وجعلت التحصيل دأباً ، وآتيـ    ـت جناه ، فطاب للمجتنينا
فعليك السلام ذكراك تحيا    وبرغم البعاد لا تبعدينا

* * *

لاتحاد النساء فى مصر فضل أكبر الناس منه ما يشهدونا
قدم اليوم فى الوفاء مثالا من مساعيه بالثناء قمينا
فهو يرعى به لمى حقوقاً وهو يقضى على البلاد ديونا
ياهدى ! أنت رحمة وهدى للشـــرق ، فابقى له ، وأفنى السنينا

* * *

# أحاديث عن مىّ

١ ــ الشيخ مصطفى عبد الرازق

٢ ــ هدى شعراوى

٣ ــ الدكتور طه حسين

٤ ــ عباس محمود العقاد

٥ ــ السيدة أيمى خير

٦ ــ أنطون الجميل

٧ ــ الدكتور منصور فهمى

٨ ــ إبراهيم عبد القادر المازنى

٩ ــ الشاعر خليل مطران

## مصطفى عبد الرازق*

لم أتكلف فى الوصول إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق مشقة أو عنتاً ، فبيته ومكتبه مفتوحان لكل قاصد . وهو وزير من طراز الصدر الأول من بنى العباس فى سماحة الخلق ، وبشاشة الوجه ، وسجاحة النفس ، ورحابة الصدر . لا تفارق الابتسامة اللطيفة ثغره ، ولا يزايل التهلل والإشراق جبينه ، فهو كما قال عبيد الله بن قيس الرقيات فى مصعب بن الزبير :

. . . شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

ولقد شرفنى (المقتطف) بأن آخذ منه الحديث عن ( مى ) فشرفنى الشيخ باستجابة الدعوة وتحديد الموعد .

وشرفنى — للمرة الثانية — بلقاء وشيك ، واستقبال سريع ، فما جرى على غير سجيته ومأنوس بشره ومألوف بره ، وكان فى يومه خيراً من أمسه . وفى الغد بكرت فى الحضور حتى يكون حظى من التحدث أعظم ومداى من الحديث أفسح ، وهنا طال المجلس ، وامتد

---

(*) ولد المرحوم فى أبى جرج بالمنيا ، وتخرج فى الأزهر ، وتتلمذ على الشيخ محمد عبده ، وأكمل دراسته فى فرنسا . كان وزيرا للأوقاف فشيخا للأزهر ، وتوفى سنة ١٩٤٦ . وله مؤلفات كثيرة .

مجال الحديث وهو يستمع إلى أسئلتى عن ( مى ) فيجيب عنها فى هدوء الفيلسوف ، وألمعية الأديب ، وتمكن العالم .

فما ضاق بسؤال ، ولا تعرض لبعض الجواب وسكت عن بعض ، ولكنه كان يستوفى الإجابة فى دقة ورفق وأناة ، وفى بصر بمواقع الكلام ومرامى الحديث ، وفى أناقة فى اللفظ وسلامة فى التعبير وسمو فى التفكير .

والأدب والعلم فى بيت عبد الرازق ميراث الأجداد إلى الأبناء ، وإليهم انتهى القضاء الشرعى فى البهنسا بمديرية المنيا ، ومن هنا تعرف السر فى احتفائهم بمن يمت إلى الأدب بنسب أو يتصل منه بسبب ، وإن كان بشرهم وإيناسهم قد عم كل طبقة .

رأيت فى زيارتى الثالثة له شيخاً فى مكتبه ، وقد أدناه صاحبنا منه وقربه إليه ، والشيخ يميل على جوانبه كأنه يميل على أبيه . . فعرفت كيف استطاع مصطفى عبد الرازق أن يجتذب القلوب ، ويأسر النفوس ، ويجعل الناس مجتمعة على محبته .

ومصطفى عبد الرازق أديب قبل أن يكون فيلسوفاً ، وشاعر قبل أن يكون كاتباً ، ولقد مدح وهو فتى ناشىء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده على أحد مواقفه بقصيدة .

وتظهر شاعريته فى رقة حاشيته ، ولطف جانبه ، وسلامة ذوقه فى قيامه وقعوده ، وتسليمه ووداعه ، واستواء هيئته ، وحسن بزته . وفى حلاوة حديثه وعذوبة صمته .

ولعله ترك قرض الشعر من زمن بعيد وعمد إلى النثر ، أو لعله يضن بشعره أن ينشر . ولكن الذى لا شك فيه أن فيه من الشاعر السامى ، الرقة والإحساس والشعور ، وفى وجهه شاهد من الخبر

وهو كاتب من طراز رفيع ، وله فى كتابته سمتان : إحداهما دقته التى كانت نتيجة اشتغاله بتدريس المنطق والفلسفة الإسلامية فى الجامعة المصرية ، والأخرى هذه الأناقة فى التعبير ، وذلك الاحتفال بالأسلوب دون قصـــد إلى تعمد أو تكلف . فالأناقة طبعه ، والرقة سجيته فى شأنه كله .

* * *

ولقد وقف مصطفى عبد الرازق فى حفل تأبين ( مى ) يلقى كلمته ، ويستعيد « من ذكرياته » فى صوت خاشع رزين ، وفى جو تجلله المهابة والوقار . ولقد اجتمع فى أثناء كلمته وقار ذكرى مى بوقاره هو ، والتقى جلال الموقف مع جلال العلم ، فإذا الجمع ساكت ، وإذا الأبصار خاشعة ، وإذا كلمته فى إلقائها المتزن ، ووزنها المعتدل ، وصدقها وإخلاصها تثير فى السامعين مكامن الشجن ، ولواعج الحزن .

ولقد تخير لكلمته فى الحفل استهلالا بارعا ، كما يتخير الشاعر فى قصيدته روائع المطالع . ما أجمل وأروع ذلك المطلع من كلمته حيث يقول : ( شهدنا مشرق مى وشهدنا مغيبها ، ولم يكن طويلا عهد مى ، على أن مجاهد الأدبى كان طويلا فى الحياة عريضاً ) .

وذكرنى توديعه لتلك الشمس المشرقة الغاربة على قصر عهدها

وصغر عمرها بالكلمة المشهورة لفيكتور هوجو : (أيتها الشمس المتغيبة وراء الأفق ؟ إن أشعتك باقية الأنوار ) وهى الكلمة التى ودعت بها (مى) المرحوم الدكتور يعقوب صروف فى حفل تأبينه بدار الأوبرا .

ومصطفى عبد الرازق بتأبينه ( مياً ) فى حفلها ، وبالحديث عنها إلى المقتطف يضرب أحسن الأمثلة فى الوفاء ورعاية حقوق الصداقة وواجبات المودة . وهو يعرف كيف يتخير الأصدقاء حتى من تلاميذه ، ويقول فى مقدمة كتاب معروف ترجمه واحد منهم : (إذا لم يكن لنا من تلاميذنا أصدقاء ، فليس لنا فى الناس من صديق ) .

وسيرة مصطفى عبد الرازق تتعطر بها المجالس ، وهى تمتاز إلى الجانب الخلق الرفيع منها بجانب الدأب والتحصيل والاطلاع الدائم المتصل ، وقد أشار إلى مكانه فى النهضة التجديدية الحديثة الدكتور تشارلز آدمز مؤلف كتاب ( الإسلام والتجديد فى مصر ) وذكر طرفاً من ترجمته وآثاره .

* * *

١ — سألته : « كيف نشأت الصلة بينكم وبين « مى » ، وما رأيكم فى ناديها الأدبى وإدارتها الحديث فيه ؟ » .

فأجاب : رأيتها أول مرة فى حفلة « بالكونتنتال » للاحتفال بمرور خمسة وعشرين عاماً على إنشاء مطبعة المعارف . والواقع أن الزمن أنسانى كيف نشأت الصلة ، ولكن الذى لا ينسى أننى بعد هذا

كنت من المترددين على ناديها الأدبى . والحق أن ( ميا ) لم تكن تغشى الحفلات الاجتماعية والأندية كثيراً ، فكان الاجتماع للمتصلين بها فى ناديها الخاص الذى جعلته فى بيتها ، وكان المجتمعون يستطيعون أن يقدروا جميع مواهبها الأدبية والخلقية . أما من الناحية الأدبية الفنية فلأنها كانت هى التى تتولى إدارة الحديث فى المجمع ، وكان تنوع الأحاديث وسموها وسلامتها من كل ما لا تخلص منه عادة المجامع يدل على مقدار كفايتها الأدبية ، وقيمتها الأخلاقية .

وكانت ( مى ) تدير الحديث ولكن من غير أن تظهر بمظهر المتزعمة فى النادى ، أو المتصدرة فى الحفل ، مما يدل على ناحية من نواحيها الخلقية الجميلة .

٢ — فسألته : « ما رأيكم فى تحصيل مى للعلوم ، وإكبابها على الدرس وغرامها بالمطالعة ؟ » .

فأجاب : أظن أن أحداً ممن عرف الآنسة « مى » لا يشك فى أنها كانت متنوعة الثقافة ، وأنها كانت مشغوفة بالتحصيل والاستفادة والمطالعة . وكانت دراستها — فيما أعتقد — دراسات أدبية . أعنى أنها تذهب إلى ناحية التفكير الأدبى أو الاجتماعى أو الأخلاقى من غير أن تنزع إلى نزعة التخصص التى تدعو إلى الدخول فى معضلات المسائل العالية أو فى استعمال الأساليب الفنية فى التعبير . وليس هذا الذى ذكرت غضاً من قيمة « مى » العلمية ، لأنه إذا كان أثر العلماء المتخصصين أثراً كبيراً فى ترقية الفكر الإنسانى ، وترقية الحضارة الإنسانية ، فإن أثر

العلماء المتأدبين فى ترقية الفكر الإنسانى وفى ترقيـة الحضارة ليس أقل شأناً .

ولعل الأفكار والأبحاث العلمية التى لها صبغتها الفنية لا تصل إلى دور العمل ودور النفوذ إلى عقول الشعوب وقلوبها إلا بوساطة الأدب .

٣ — فسألته : « ما ذا كانت لغة الحديث عند ( مى ) فى نديها وفى خلال مناقشاتها ؟ » .

فأجاب : أما حديث ( مى ) الغالب فكان باللغة العربية ، وكان بالعربية الفصحى ؛ ومع تأنق ( مى ) فى شأنها كله ، وفى حديثها على الخصوص ، فأنها كانت تصل إلى جعل اللغة العربية الفصحى لغة حديث فى مجمع راق ليس كل شاهديه من أنصار العربية الفصحى ، من غير أن يشعر أحد من سامعيها بأن حديثها أقل سلاسة أو أظهر تكلفاً من حديث المتكلمين باللغة العربية العادية ، أو المتكلمين بأى لغة من اللغات الحية الراقية .

وأظن أن مياً خدمت بهذه الناحية من نواحيها اللغة العربية خدمة كبيرة ، لأنه إذا كانت الجرائد والمجلات أعانت على التوفيق بين منازع الراغبين فى استعمال اللغة العربية بأساليبها الموروثة وبين منازع الراغبين فى استعمال اللغة العامية ، أو ما يشبه اللغة العامية ، فإن مياً أسدت هذه الخدمة نفسها إلى اللغة العربية فى ناحية لا تصل إليها الجرائد ، وهى ناحية التخاطب والتحاور ، فكما أسدت الصحف والمجلات خدمة التوفيق بين هذه المنازع عن طريق الكتابة ، فأن ( مياً ) أدتها عن طريق الحديث والمخاطبة .

٤ — فسألته : « ما رأيكم فى الكآبة التى استولت حيناً على مى ؟ هل كانت أصلا فيها أم طارئة عليها ؟ وهل ساعد تفكيرها العميق على إسعافها فى أحزانها أو إسعادها ؟ » .

فأجاب فى إيجاز : لا أعتقد أن مياً كانت بأصل فطرتها كئيبة ، وقد يكون مجهودها العقلى أعان الظروف السيئة التى صادفتها فى سنيها الأخيرة على ما جد لها من كآبة وحزن .

٥ — فسألته : « ما أحب كتب « مى » أو آثارها القلمية إليكم ولماذا ؟ » .

فأجاب : لعلى لم أسأل نفسى هذا السؤال قبل اليوم ! ولكن فى حفل تأبينها سمعنا قطعة من قطع ( مى ) الأدبية ألقتها فتاة لها صوت « مى » فخيل إلى ساعتئذ أن هذه القطعة هى أحب ما كتبت « مى » إلى نفسى .

٦ — فسألته : « هل كانت « مى » من المحافظات على التقاليد ، المتمسكات بموروث العادات ؟ وإذا كان ذلك فاسر ذلك الحفاظ منها على الرغم من تشبعها بالثقافة الغربية ؟ » .

فأجاب : إذا كانت المحافظة على التقاليد درجات ، فان « مياً » لم تكن فى طرفيها ، وأعنى أنها لم تكن فى أول حدود المحافظة ولا فى نهاية حدودها . ولعلنا — فى جيلنا — لم نكن نرى « مياً » من المحافظات ، ولكن معانى المحافظة والتجديد تتغير وتتغير بسرعة ، ولعل ما كان معتبراً من التجديد فى أوائل هذا القرن أصبح فى أيامنا هذه يعتبر محافظة . وقد أصبحت خطوات الزمن أسرع من خطوات المفكرين الذين يطلبون التجديد عن روية وأناة . «فمى» كانت مجددة فى حكم الرأى

العام لأول عهدها ، ثم تطورت الظروف بأسرع مما تطورت مى . لأن « مياً » كانت مفكرة ، وما أظن الظروف تراعى فى تطوراتها تفكيراً .

٧ — فسألته : « لقد دافعت مى عن الإسلام وديمقراطيته فى كتابها ( المساواة ) . فهل درست مى شيئاً عن روح الإسلام وحقيقته وفلسفته ؟ وإذا كان ذلك فمن كان معلمها ؟ » .

فأجاب : ما أظن أن مياً كانت تجهل من الإسلام ما يجب على أديب مثقف أن يعرفه من شئون دين له فى تاريخ الفكر البشرى ، والحياة الأدبية فى البشر ما للإسلام .

ولم تكن ( مى ) متعصبة لدين ، ولكنها كانت متدينة ، ولم تمس نزعات الفكر الحر المسرفة أحياناً — التى كانت تحيط بها — صميم إيمانها .

٨ — فسألته : « لا مجال بالطبع للمفاضلة بين عائشة التيمورية وباحثة البادية والآنسة مى . ولكنى أسألكم عن رأيكم إجمالا فى أثر هؤلاء الكواتب والشواعر فى الأدب العربى » .

فأجاب : الواقع أن اعتبار ظروف الزمن والأحوال الاجتماعية المحيطة بالأشخاص له أثر كبير فى تقدير قيمتهم ووزن أثرهم فى الجماعة أو فى الأدب .

فالزمن الذى نشأت فيه عائشة التيمورية باعتبار المستوى العلمى والأدبى لم يكن مستعداً لأن ينشىء أديبة كمى ، ولم يكن مستعداً لأن

يحتمل نزعة من نزعات النهوض النسائى كالنزعة التى أوجدتها باحثة البادية ، أو النزعة التى أوجدتها « مى » .

فإذا كانت « مى » أوسع ثقافة أو أكبر مظهراً فى الحياة الأدبية من سابقتيها ، فينبغى ألا ينسى عند الحكم فى ذلك أنه يرجع إلى اختلاف التطورات واختلاف البيئات ، بل اختلاف الحياة كلها فى هذه الأجيال الثلاثة التى تمثلها الأديبات الثلاث .

٩ — فسألته : « ما أثر الآداب الأفرنجية فى الآنسة مى وفى طريقة كتابتها ؟ » .

فأجاب : للآداب الأفرنجية من غير شك أثر ظاهر فى أسلوب مى وفى طريقة معالجتهـــا للموضوعات التى عالجتها . ولعل أثر الآداب الأوربية الذى وصل إلى مى من طريق الكتاب السوريين فى أميركا — كتاب المهجر — لا يقل عن أثر مطالعتها للآداب الأوروبية ذاتها . ولى ومن يحذو حذوها من الأديبات والأدباء مذهب فى الكتابة العربية لا يزال حيا يزاحم فى ميدان التنافس بين الأساليب الجديدة التى يلتمس كل واحد منها النصر فى سبيل التغالب . والله أعلم لأيها يكون النصر .

ومن يدرى ؟ فقد يكون للحرب القائمة ونتيجتها أثر حتى فى أساليب التفاهم بين الناس .

## هدى شعراوى

السيدة هدى شعراوى هى زعيمة « الاتحاد النسائى » ، ومثال حداق للمرأة المصرية المثقفة ، الموزع قلبها بين يد تسديها أو صنيعة تقدمها أو بر تدخره عند الله .

سمعتها تفتتح حفل تأبين « مى » وعليها هالة من وقار ، وسمات من كرامة ، وفيها ثقة واعتداد ، واطمئنان واعتزاز .

وكان الحزن يبدو فى نبرات صوتها وقسمات وجهها ، ومن خلال سطور كلمتها . وكانت تروح على مسرح الحفل وتغدو ، وتقوم وتقعد ، لأن نظام الاجتماع كان موكولا إليها ، ونجاح الحفل كان مرده إلى فضل نشاطها وحسن تنظيمها .

وبلغ تأبين مى فى دار « الاتحاد النسائى » غاية النجاح ، وانتهى الحفل ، وطوى البساط وانفض الجمع الحاشد الذى وفد ليسمع الإنسانية تؤبن « ميا » الإنسانة ، وليرى رياض الأدب تبكى على « مى » الزهرة ، وليشترك فى الوفاء لفتاة كان من طبيعتها الوفاء لشرقيتها وجنسها ووطنها . وجميل من هدى شعراوى أن تخص « ميا » بتكريمها بعد موتها كما كرمتها فى حياتها . فأنها فى الحق أولى الناس بتقدير العاملات وتكريم النابهات .

ولقد سمعتها بعد الحفل تتحدث إلى الدكتور طه حسين فى شأن فتاة فقيرة تساعدها على إتمام تعليمها ، وتعينها على تحقيق آمالها . ويظهر أن هذه الفتاة واسعة الآمال ، عريضة الأمانى . وكنت أستشف

من كلام هدى شعراوى إلى «مراقب الثقافة بوزارة المعارف» معانى الرحمة التى طبعت عليها ، وألمس فى كلماتها الرحيمة القوية ، عطف المرأة فى جنانها ووجدانها ، وقوة المرأة فى اعتقادها وإيمانها .

ومن عجب أن السيدة « هدى » — التى تعين الفتيات على التعليم ، وتمدهن بأسباب دخول المدارس والانتظام فى المعاهد — لم تدخل مدرسة فى حياتها ، ولم تتعلم فى معهد . . بل انتقلت المدارس إليها فى بيت أبيها ، وجاءها المدرسون والمدرسات فى معاهد طفولتها ومراتع صباها .

وهى أول مصرية نادت بالسفور عمليا ، وتركت المحاجين يتناظرون والمجادلين يتناقشون ، ونزعت البرقع فى صيف سنة ١٩٢٠ بعد أن عادت من تمثيل مصر فى مؤتمر الاتحاد النسائى برومة ، وكان ذلك آخر عهدها بالحجاب .

ونشاط هدى شعراوى فى سبيل المرأة المصرية ، وفى سبيل البر والإحسان ، لا يقف عند غاية ، ولا ينتهى عند أمد . فرأست « جمعية المرأة الجديدة » التى أسستها بعض المعلمات سنة ١٩٢٠ . وأسست فى سنة ١٩٢٤ « الاتحاد النسائى » ، وهو ناد ومدرسة ومشغل . وتقيم من حين إلى حين سوقاً خيرية لمشغل الاتحاد ، وهى سوق ناجحة رابحة .

والسيدة «هدى» تعطى ولا تتحدث ، وتحسن ولا تتكلم . وتتصدق ولا تمن . لأن الإحسان فيها لله لا لغرض ، والمعروف فيها للمعروف لا لوجه آخر . . . تبرعت مرة بمبلغ ألف جنيه « للمرأة الجديدة » ولم تذكر منه شيئاً ، وتتبرع غير ذلك بالمئات وعشراتها ، فلا تتحدث عن

نفسها، ولكنها لا تستطيع أن تجعل الناس لا يتحدثون عنها . . .
فلا قيمة عندها للمال ، ولكنه العمل الصالح يربى على الأعمال ، ويزيد على كل مال .

بعد انتهاء حفل مى بأيام ، كنت عند صديق وأستاذى أنطون الجميل فى مساء عاصف فيه من الحرب أنباء وأخبار . . وإذا به يرينى رسالة من هدى هانم شعراوى تشكر له اشتراكه بجهده ووقته فى حفل تأبين مى . وإذا به يقول : لست أدرى يا أخى أينا أحق بالشكر وأجدر بالثناء ؟

فهدى شعراوى لم تر فيما صنعته هى ما يستحق شكراً أو يستوجب ثناء . وهذا مثل منها فى الإنكار والإيثار . ولكنها طبعا نسيت أنها خلعت من جلال شخصيتها ، ومعروف مكانتها على حفل « مى » ما أفاض عليه الجلال والوقار .

فبدت « مى » فى هذا الاحتفال فى جلال الموت ، وخشوع الذكرى وسواد الإطار ، كما كانت تبدو فى أدبها وكتبها وندبها فرحة القلوب وبهجة الأنظار .

* * *

١ — سألتها : « كيف عرفت مياً . وما أولى ذكرياتك عن مقابلتك الأولى لها ، وما الأثر الذى تركته فى نفسك ؟ »

فأجابت : ترجع معرفتى بمى إلى ما يزيد على خمس وعشرين سنة ، هى وحقبة طويلة من العمر وفسحة مديدة من الزمن كما ترى ، إلا أنها

قصيرة بالقياس إلى مى ، والورود دائماً قصيرة الأعمار ، قليلة الآجال ، وهل كانت مى إلا وردة ناضرة مملوءة بكل معانى الحياة والقوة . وهل كانت مى إلا زهرة من تلك الأزهار الجميلة التى تتفتح ساعات أو أياماً فى روض الحياة ثم لا تلبث أن يعاجلها الذبول ، أو كوكباً متألقاً فى سماء الدنيا ساعة ثم يدركه الأفول ؟ .

* * *

ترجع معرفتى بمى — بالضبط — إلى شهر أبريل من سنة ١٩١٤ . فقد كنا فى ذلك الحين ننظم سلسلة من المحاضرات للسيدات فى الجامعة المصرية القديمة .

وكان يختلف إلى بهو المحاضرات عدد مختلف من كرام الأوانس وفضليات السيدات ، دفعهن الشوق إلى العلم ، ورمى بهن إلينا التوق إلى المعرفة والثقافة ، وقادهن مصباح من الأمل . ذلك الأمل الذى كان يختلج فى صدر المرأة المصرية فى إبان حركتها وفى مقتبل نهضتها .

وبينما أنا فى سبيلى إلى مغادرة بهو المحاضرات بعد إلقاء المحاضرة إذا بعينى تقع على فتاة تميزها من بين ذلك الجمع النسوى حركات رشيقة ، وروح لطيفة خفيفة ، وينبعث من عينيها السوداوين أشعة قوية من ذكاء خارق ، وألمعية حادة ، وفطنة نادرة .

وتجتمع هذه المخايل كلها فى وجه جمله الله بصباحة خاصة ، وسمة متميزة ، وميزه بأسارير مشرقة عن ابتسامات عذاب ، كابتسامة الزهرة للشمس والماء والهواء فى فصل الربيع . .

رأيت هذه الفتاة تقترب منى قليلا ، وتفد صوبى وتستوقفنى قائلة : (سيدتى هدى : أنا معجبة بمشروعك مقدرة لما تبذلينه من جهد . لذلك أضع نفسى تحت تصرفك . ولا تظنى يا سيدتى أننى صغيرة لا أستطيع المعاونة، أو لا أقدر على المساعدة . . أنا كاتبة وشاعرة . أنا أكتب فى الصحف وأنشر فى المجلات . أنا « مى » ولا أظنك يا سيدتى إلا قرأت شيئاً مما كتبته . ألا تعرفيننى ؟ ) .

وكانت هذه الكلمات الصريحة المملوءة بالشجاعة الأدبية والاعتداد بالنفس والثقة بالشخصية ، والتى تنم فى الوقت نفسه على روح مفعمة بالنية الخالصة والقصد الحسن — كانت باعثتى على أن أضم تلك الفتاة إلى صدرى ، وأن أقبلها قبلة الإعجاب بها والرضى عن نبل مقصدها وشرف غايتها .

وأبديت لتلك الفتاة التى عرضت نفسها لخدمة غرضنا النبيل إعجابى بمعرفتها وسرورى برؤيتها واغتباطى بانضمامها إلى صفوف حركتنا كاتبة بقلمها ، وموحية بفكرها ، وملهمة بشاعريتها . . .

ولم يمنعنى صغر سنها وحداثة عمرها من أن أرحب بانضمامها إلينا ، ومن أن أتوقع منها الجهد الكبير والعمل العظيم . وهل يمنع السن الصغير فضلا ، أو تحجب الحداثة حلماً ونبلا ؟ ألم يقل الشاعر :

فما الحداثة من حلم بمانعة ... قد يظهر الحلم فى الشبان والشيب

ثم ألم يقل الشاعر الآخر :

ورب صغير لاحظته عناية ... من الله فاحتاجت إليه الأكابر

٢ — فسألتها : « ما النواحى الجميلة التى كانت تعجبك من الفتاة مى والمميزات فى الخلق وفى الخلق التى امتازت بها ؟ » .

فكان الجواب : لقد رأيت فى مى إنساناً غير عادى ، لقد حباها الله — وهو واسع الفضل — بعقل كبير ، ولكن قلبها كان أكبر من عقلها . فقد كان ذلك القلب يتسع لمعان شتى من الرحمة والعطف والحنان، وكانت مى عالية النفس ، فما عرفتها تدنت إلى دنية أو تنزلت إلى سفل . وكانت واسعة آفاق التفكير ، فما عرفتها وقفت عند حد محدود . وكانت بعيدة الإدراك فما رأيت منها قصوراً فيه . ومع تلك الصفات المحبوبة ، والمزايا الموهوبة كانت بعيدة عن الغرور ، منزهة عن الانخداع ، فما عرفتها زهيت بعلم أو تاهت بذكاء أو أدلت بتفكير . ولكنها كانت تعرف قدر نفسها فى تواضع جميل ، وبساطة محبوبة . ولم تكن مى على وسامتها ووضاحة وجهها جميلة بالمعنى الصحيح للجمال ، ولكن نفسها كانت أجمل من وجهها ، وروحها أجمل من صورتها . فكانت بين الجميلات لا تبدو أقل منهن فتنة ولا أضأل نصيباً من الجاذبية . لقد كان يجمل مياً بين الجميلات ، ويزينها بينهن شىء خفى وسر مستبهم لعله هو الذى حير الشاعر فقال :

يدعى الجمال ولست أدرى ما هو  شىء به فتن الورى غير الذى

وليس فى الأمر عندى سر مستغلق ولا خفى مبهم ، فسر جمال مى كان فى روحها ، والجمال المعنوى الروحى هو ضرب من الجمال يسمو على كل جمال .

٣ — فسألتها : « هل صرفت الثقافة الأوربية والحضارة الغربية

سمياً عن المثل الشرقية العالية ، وهل اندفعت مى فى تيار المحدثين تذهب مذاهبهم فى التمسك بكل ما هو غربى ، والتنصل مما هو شرقى ؟ » .

فكان جوابها : لقد وجدت فى مى من الاعتصام بالشرق والحفاظ على الشرقية ما يجعلنى أذكر مع الفخر أنها كانت المثل الأعلى للفتاة الشرقية الراقية المثقفة . لقد نهلت مى حقاً من موارد الغرب ووردت حياضه وأخذت كثيراً من طرائقه واتجاهاته ، ولكن ذلك كله لم ينسها حق أهلها وفرض وطنها — وقد كان الشرق كله لها وطناً — فما أضاعت عادات أهلها ، ولا احتقرت تقاليد قومها ، ولا فنيت فى الغرب كما يفنى فيه المستضعفون .

لقد كانت مى معتزة بقوميتها ، مفتخرة بنسبتها ، متمكنة من لغتها العربية ، فاهمة للكثير من دقائقها وأسرارجمالها ، وكانت محافظة كل الحفاظ على شخصيتها الشرقية فما ضيعتها أو نزلت عنها أو لبست ثياباً غيرها لا توائمها . وكانت عقائد قومها محل احترامها وموضع إكرامها ، فما غمزت أو لمزت على نحو ما يفعل الغامزون اللامزون . ولكنها كانت تتألم لعيوب الشرق ، وتبكى على ضعفه المادى ، وتتمنى أن يتاح له من القوة المادية ما يكمل به سمو روحانيته .

٤ — فسألتها : «ما رأيك فى طريقة مى فى كتابتها وتفكيرها » .

فأجابت : كانت فى مى دقة امتازت بها كتابتها ، واختص بها أسلوبها . ولم تكن أبحاثها مبتسرة ، ولا موضوعاتها مرتجلة ، ولكنها كانت وليدة البحث ، ونتيجة التمحيص . تكتب مى فترى الدقة فى كتابتها

والضبط فى تعبيرها ، وتحاضر مى فلا تراها مسرفة فى التعبير أو مبذرة فى الألفاظ . ولعل دراستها للغات الأجنبية قد مكنت لها من أسباب التدقيق والتمحيص .

وكانت هذه الصفة من الدقة لا تفارق مياً فى أى موضوع طرقته ، أو بحث عالجته ، حتى فى كتاباتها العاطفية الخيالية ، فلم يكن خيالها شارداً تائهاً ، ولم تكن أحلامها فى سبيل الشرق أوهاماً ، بل كانت تبنى غالباً على أفكار دقيقة وآراء محصة .

٥ — فسألتها : « ما الآثار التى تركتها مى فى الحركة النسائية فى مصر » .

فأجابت : لما عرضت مى على خدمتها لحركتنا سنة ١٩١٤ رحبت بها لما لمحته فيها من الصدق ، وتبينته فى كلامها من الإخلاص . وقد طابق فعلها — بعدئذ — قولها ، وصدق عملها حديثها . فلقد انضمت إلى صفوفنا متواضعة الأخلاق ، قوية الروح ، عميقة التفكير ، وكانت تدهشنا جميعاً بالذكاء الحاد المتفجر من كل إشارة من إشاراتها ، أو خلجة من خلجاتها ، أو نبرة من نبراتها . وكان أكثر ما يدهشنا منها سمو روحها ودقة إحساسها . فلقد كانت مى تتأثر لكل شىء ، وتحس بكل شىء وكنت أخشى على المسكينة من اجتماع هذه المميزات فيها . نعم كنت أخشى أن يجنى عليها ذكاؤها ، أو يقتلها نبوغها ، ألم يقل الشاعر : « ذكاء المرء محسوب عليه » ؟

نعم كنت أفزع من أن تصطلح عليها هذه القوى الجبارة العنيفة التى

كان قلبها وروحها وجسمها موزعة بينها ، وأخشى أن تهدها تلك القوى هداً ، وتدكها دكا ، وتحطمها تحطيما .

لقد انضمت مى إلينا عاملة مجاهدة ، تسبق الصفوف وفى يدها قلبها ، وبين حناياها قلبها ، وفى القمة منها رأسها وتفكيرها ، ولكن أفقنا المحدود فى الجهاد ضاق أمام عينيها البعيدتين فى مراميهما وفى مداهما . وعالمنا المحدود فى حركتنا النسوية عجز عن أن يتسع لإصلاحها وآمالها وأدبها وشاعريتها ، فاتجهت إلى ميادين الأدب والاجتماع يدفعها نبوغ خاص وعبقرية نادرة ، يهيء لها ذلك استعداد فطرى حبتها به الطبيعة ، فاهتزت لها أعواد المنابر خطيبة بارعة ومحاضرة لبقة . وعطرت كل ناد بشذا من أحاديثها ، وتركت حيثما حلت أثراً طيباً . وأخذت مى الكاتبة تنهمر كتاباتها فى الصحف وتتدفق خطبها على المنابر ، وتتوالى كتبها فى سوق الأدب مترجمة مرة ، ومؤلفة أخرى . ولم تغفل مى حق جنسها ، وفرض أخواتها ، فكان للمرأة من أبحاثها الأدبية نصيب . ولعل دراستها العميقة الممتعة ، المملوءة بكثير من التقصى والدقة عن وردة اليازجى ، وعائشة التيمورية ، وباحثة البادية « ملك حفنى ناصف » لعل تلك الدراسات التى نشرت فى المقتطف وطبع بعضها مستقلا فى كتاب ، هى مظهر من مظاهر وفاء مى لبنات جنسها ، وحرصها على إظهار فضلهن أينما وجد . على أن مكان مى « الفتاة » فى الأدب ومحلها فى الكتابة والتأليف لما يعلى شأن المرأة الشرقية عامة والمصرية خاصة . فهو مكان رفيع تغتبط به حركتنا النسائية ، وتعده دليلا آخر ساطعاً على مكان المرأة .

فلم يكن مجد مى لها وحدها ، ولم تكن شهرتها خاصة بها ولكنه

مجد تفخر به المرأة الشرقية ، وشهرة تتمتع بها كل ناطقة باللغة العربية .

٦ — فسألتها : « كانت مى تميل إلى الأحزان فى كتاباتها ويبدو ذلك فى مقدمة كتابها الذى ترجمته عن الألمانية لفردريك مكس مولر . فهل كان الحزن طبيعة فيها أم عارضاً عليها ؟ » .

فأجابت : لقد عرفت ميا فى ريعان شبابها وإبان نشاطها . عرفتها والقوى الجبارة تتنازع جسدها وقلبها وروحها . وكنت دائمة قلقة عليها — خائفة أن تعصف بها تلك القوى العنيفة فتذبلها قبل أوانها ، أو تقضى عليها قبل حينها .

وكنت أخشى أن هذه القوى الموهية للصم الصلاب قد تؤثر فى نفس مى أسوأ الأثر إذا ما رماها الزمان بنكبة ، أو ابتلاها بمحنة . وقد كان ذلك . فقد أصيبت مى بفقد والديها وكان فقدهما تباعاً — كأنهما كانا على ميعاد قريب — فتأثرت أبلغ التأثر ، واستسلمت إلى الأحزان تطغى عليها ، وللهموم تأكل قلبها ، وللآلام المضنية المبرحة تعصف بها فى كل لحظة وتلازمها فى كل خطوة .

وآثرت مى الاجتماعية المحبة للناس المتحدثة إلى الجماهير ، أن تركن إلى العزلة تجد فيها عزاءها ، وتستسلم إلى الوحدة تلتمس فيها راحتها .

واستأنست مى بوحشتها ، واجتمعت مى بوحدتها وعزلتها وكانت فذة فى أحزانها ، غريبة فى همومها وآلامها ، كما كانت فذة فى عبقريتها وبين بنات جنسها .

وظلت كذلك فى هموم مقيمة مقعدة ووساوس باقية ثابتة ، تخاف

من الهمس ، وتفزع من الشبح ، وتذعر من الإنس،حتى طغت عليها الأحزان ، واصطلحت عليها العلل — العلل القاسية المبرحة — علل العقل والجسد — ووقفت القوة التى كانت تمدها بالحيوية ، وجفت الينابيع التى كانت تغذيها بالماء ، وأظلمت الآفاق التى كانت تشع أمام عينيها السوداوين النور والبهجة والضياء .

وصارت كالزهرة لا شمس ولا ماء ، ولا ضوء ولا هواء ، فذبلت وكان ذبولها أليماً ، وتساقطت أوراقها ورقة أثر ورقة .

ولكن شذا الزهرة ما يزال متضوعاً وأريج الزهرة ما يزال عبقاً. وسيظل المثقفون والمؤدبون ، والكاتبون والمفكرون يذكرون تلك الزهرة التى عوجلت قبل الأوان ، وخطفت قبل الحين .

فإذا مروا بروضة من رياض الفكر ، أو حقل من حقول الأدب ، تعرفوا على مكان هذه الزهرة وقالوا : (هنا مكان زهرة ذابلة ولكنها ما تزال فواحة الأريج ) .

## الدكتور طه حسين

فى حفل تأبين مى وقف رجل متزن الخطوة ، هادىء الوقفة ، يبدو على على ملامح وجهه آثار حزن عميق وألم دفين .

وقف هذا الرجل ، وكثيراً ما سمعناه على المنابر محاضراً من طراز رفيع ، وغرار عال ، وقف تلك الليلة من مساء ٤ ديسمبر سنة ١٩٤١ يستهل الكلام بشعر عربى رصين .

لم يكن هذا الشعر شعره ، ولم يكن الرجل فى تلك الليلة إلا راوياً أبياتاً أعجبته من « ذى الرمة » . فراح يلقيها فى أداء حسن ، وإلقاء متئد ، يخرج الحروف مخارجها ، ويعطى الكلمات قيمها . وقف هذا الرجل ينشد هذه الأبيات :

خليلى عدا حاجتى من هوا كما ومن ذا يواسى النفس إلا خليلها؟
ألما بمى قبل أن تطرح النوى بنا مطرحاً أو قبل بين يزيلها
فإلا يكن إلا تعلل ساعة قليلا فإنى نافع لى قليلها

وكثير من السامعين لم يعلموا أن هذه الأبيات لذى الرمة الشاعر الأموى ، وكثير منهم ظن أن الدكتور طه حسين انقلب شاعراً بعد أن رسخت فى النثر قدمه ، وعلت فى الكتابة مكانته ! !.

ولكن قليلا من هؤلاء السامعين أدرك أن طه حسين ينشد هذه الأبيات الثلاثة فى حفل مى ابنة القرن العشرين ، وهى أبيات قيلت فى مى ابنة العصر الأموى .

وقف الدكتور طه حسين فى حفل تأبين مى يستعرض ماضياً جميلا طويلا ، حافلا بنفيس الصور ، وبديع الأثر .

وقف يصف كيف عرفها فى الجامعة القديمة سنة ١٩١٣ حينما وقفت تعقب على كلمة أرسلها الشاعر الناثر جبران خليل جبران من نيويورك لتكريم الشاعر خليل مطران .

وقف يصفها فى إقبالها على العلم وإكبابها على الدرس ، وإلحاحها على طلب المعرفة من مظانها ، والحكمة من مواضعها .

واعتذر الدكتور طه حسين عن مجانبة التفصيل فى الحديث عن مى .

يوم تأبينها لأن ذلك يقتضى درساً لم تهيأ له هذه الاجتماعات التأبينية والحفلات التذكارية التى يراد بها الوفاء والتذكر ، وإرسال التحيات من القلوب المخلصة ، لتصل إلى النفس المخلصة .

ولقد كان الدكتور جميلا فى وفائه لمى ، نبيلا فى إخلاصه ، وكان منصفاً لها حين سجل حسنتين من حسناتها وأشار بنوع خاص إلى أثرهما فى حياتنا الأدبية : الأولى منتداها الذى كان ملتقى المثقفين ومجتمع المفكرين من أهل مصر وسوريا ، ومن أهل الشرق والغرب ، ومن رجال العلم والأدب . والثانية تأثرها بالمحاضرة التى ألقاها أحمد لطفى السيد فى نادى المدارس العليا عن « أبى العلاء » وأخذها موضوع المحاضرة على أنه موضوع جدير بالتفكير .

وختم الدكتور طه حسين كلمته فى تأبين مى بالأبيات التى افتتحها بها ، وكرر البيت الأخير مرة ثالثة وهو :

فإلا يكن إلا تعلل ساعة      قليلا فإنى نافع لى قليلها

* * *

. . . . وانتهى حفل مى ، وانصرف الناس بعد ما أدوا واجب الوفاء لفتاة كان من طبعها الوفاء لوطنها ولغتها وجنسها ، وانتقلوا من جو كان يسوده الجلال وتخيم عليه الرهبة ويغشيه السكون إلى جو امتلأ بالمناقشة والمجادلة . . أى الخطباء أجاد ، وأى الشعراء أصاب ، وأى النواحى من حياة مى أغفلت ، وأى المسائل أهملت . . .

وتقدمت من الدكتور طه أصافحه باليد ، وأحييه باسم «المقتطف» ، ويتفضل بإجابة دعوة « المقتطف » إلى الحديث، ولكن يؤجله إلى يوم يقل فيه الشغل ، ويتسع فيه الوقت، وتواتى فيه أسباب الحديث ....

ويجلس الدكتور طه حسين فى قاعة من قاعات الاتحاد النسائى ليستمع إلى حديث من السيدة هدى شعراوى ، ويجلس بجانبه خليل مطران وبعض السيدات، وأتخذ مكانى قريباً لأسمع صوت طه حسين من قريب كما سمعته « من بعيد » .

ليست صناعة الأحاديث مع الرجال — وخاصة كبارهم وأهل المكانة منهم — عملا هيناً أو أمراً يسيراً ، ولقد شرفتنى مجلة « المقتطف » بإنابتى عنها فى الحديث مع لفيف من أهل الأدب والفضل ممن كانت لهم بمى صلات وذكريات .

وليست ظروف التحدث مهيأة فى كل وقت وفق رغبة الراغب ، وأمل الطالب ، فهناك قد تكون المشاغل والشواغل ، وهناك أيضاً قد تكون العقبات والحوائل . . . .

ولكن مشاغل الدكتور طه حسين لم تمنعه من الإدلاء بالحديث فى الوقت الملائم .

وضعت له بضعة أسئلة تجلى بعض الغوامض من حياة مى ، وتفصل بعض ما أجمله القائلون عنها ، فلم ترقه طريقة السؤال والجواب ، وآثر عليها طريقة الحديث المرسل والكلام المطلق . . . . وهو فى هذا يشبه خليل مطران الذى لم يلتفت إلى أسئلتى المسلسلة ، وآثر أن يسمعنى فى ساعة وبعض ساعة حديثاً عن مى الشاعرة لم أقطعه عليه بسؤال ما .

كان الدكتور طه حسين من المعجبين بمى المترددين على «صالونها». وله فى هذا «الصالون» ذكريات سيتحدث عنها فيما يلى من القول.

وكان يعجبه من هذا «الصالون» اتساعه لمذاهب القول وأشتات الكلام وفنون الأدب، ويعجبه منه أنه مكان للحديث بكل لسان ومنتدى للكلام فى كل علم، وملتقى للطوائف من غير تفريق. فلا تعالى بينهم، ولا اختلاف فيهم، بل هم أهل ندوة واحدة ألفهم الأدب، ووثقت بينهم المعرفة، وجمعتهم الحكمة، يغدون ويسرحون فى إخاء تالد، على اختلاف مذاهبهم، وتباين مشاربهم، وتفاوت مراتبهم. فهم كما قال أبو تمام:

| | |
|---|---|
| إن يكد مطرف الأخاء فإننا | نغدو ونسرح فى اخاء تالد |
| أو يختلف ماء الوصال فماؤنا | عذب تحدر من غمام واحد |
| أو يفترق نسب يؤلف بيننا | نسب أقمنـــاه مقام الوالد |

وكان أشد ما يغتبط له الدكتور طه حسين أنه وجد الطريق إلى منتدى مى ميسوراً، لم تحفه الأشواك، ولم تدم من أجله الأقدام.. وصل إليه وهو طالب فى الجامعة القديمة لم تنعقد له ألوية الشهرة، ولم تثبت له بعد منزلة الأديب. وفى هذا الحديث الممتع الذى أدلى به إلى «المقتطف» صور من حياة مى بعضها بهيج، وبعضها مؤلم حزين.

ولكن مياً قد ماتت كما ماتت سميتها الأموية من قبل، وكما تموت «ميات» بعد، فإن البقاء لله، ولأجسامنا الفانية العفاء والدثور....

ولكن ذكرى مى ستظل خالدة، ومصاحبة الأموات بالذكرى — ولو أن بيننا وبينهم جنادل وصفائح — هو نوع جميل من الصحبة

الدائمة والعشرة الباقية وصفه الدكتور طه حسين نفسه بقوله : ( وما أعرف شيئاً أوفى فى العشرة ، وأحرص فى المصاحبة من الموتى إذا كانوا أعزاء على نفوسنا ، وكانوا ينزاون فى قلوبنا ) . وفيما يلى حديث طه حسين :

«ظهرت مى فى حياتها الأدبية مظهرين مختلفين أشد الاختلاف، وأثرت بهذين المظهرين نفسهما فى الحياة الأدبية العربية تأثيراً عميقاً جداً ظهرت بعض صوره أثناء حياة مى ، وستظهر بعض صوره الأخرى بعد وفاتها بزمن قصير أو طويل . فأما أول هذين المظهرين فهو مظهر الأديبة البرزة التى لا تحتجب ولا تستخفى ولا تلقى الرجال عند المناسبات وحين تقتضى الظروف لقاءهم ، وإنما تنظم الاجتماعات الأدبية التى يشترك فيها الرجال والنساء اشتراكا حراً سمحاً فيه كثير جداً من الرقى والامتياز . تنظم هذه الاجتماعات فى بيتها وتشترك فى كل اجتماع يشبهها إذا كان خارج بيتها . وليس من شك فى أن الصالون الذى تستقبل المرأة فيه رجالا يتحدثون فيما يتصل بالحياة العقلية من قريب أو بعيد لم يكن جديداً فى حياتنا العربية بل لم يكن جديداً فى حياتنا المعاصرة . فقد عرف هذا القرن الذى نحن فيه صالوناً من هذه الصالونات على الأقل ، كان بعيد الأثر جداً فى حياتنا السياسية والاجتماعية ، وهو صالون الأميرة نازلى . فقد كانت تستقبل فى دارها بعابدين كبار المصريين والأوربيين، وكانت الأحاديث فى هـذا الصالون تتصل غالباً بالمسائل السياسية ومسائل الإصلاح الاجتماعى والدينى التى كان الناس يشغلون بها فى ذلك الوقت . وكان سعد وقاسم ومحمد عبده وحسن عبد الرازق وحسن عاصم يشهدون

هذه الاجتماعات ويختلفون فيها ويشاركون فيما كان يدور فيها من الأحاديث . وكانت آثار ذلك تظهر فى الحياة العاملة لهؤلاء الناس . ولكن صالون الأميرة نازلى كان أرستوقراطياً إن صح أن الأرستقراطية توجد فى مصر ، وهو على كل حال كان ضيقاً مغلقاً لا يصل إليه إلا الذين ارتفعت بهم حياتهم الاجتماعية إلى مقام ممتاز . ولم تكن الحياة الأدبية الخالصة تشغل الذين كانوا يختلفون إلى هذا النادى .

فأما صالون مى فقد كان ديمقراطياً أو قل أنه كان مفتوحاً لا يرد عنه الذين لم يبلغوا المقام الممتاز فى الحياة المصرية ، وربما كانوا يدعون إليه ، وربما كانوا يستدرجون إليه استدراجاً فيلقون الناس ويتعرفون إلى أصحاب المنزلة الممتازة ويكون لهذا أثره فى تثقيفهم وتنمية عقولهم وترقيق أذواقهم . وأنا أذكر أنى إنما اتصلت بصالون مى على هذا النحو بعد أن نوقشت رسالتى فى « أبى العلاء » وشهدت مى هذه المناقشة وشهدت فيما يظهر بعض الحفلات التى أقامها لى الزملاء حينئذ ، وطلبت إلى أستاذها وأستاذى لطفى السيد أن يظهرنى فى صالونها . وكذلك عرفتها فى هذا الصالون وترددت عليها فى أيام الثلاثاء إلى أن سافرت إلى أوربا . وقد رجعت إلى مصر بعد سنة فأقمت فيها أشهراً ولاقيت فيها مياً فى أيام الثلاثاء كما كنت ألقاها قبل السفر . وكان الذين يختلفون إلى هذا الصالون متفاوتين تفاوتاً شديداً فكان منهم المصريون على تفاوت طبقاتهم ومنازلهم الاجتماعية وعلى تفاوت أسنانهم أيضاً . وكان منهم السوريون وكان منهم الأوربيون على اختلاف شعوبهم وكان منهم الرجال والنساء ، وكانوا يتحدثون فى كل شىء ويتحدثون بلغات مختلفة وبالعربيـــة

والفرنسية والانكليزية خاصة . وربما استمعوا لقصيدة تنشد أو مقالة تقرأ أو قطعة موسيقية تعزف أو أغنية تنفذ إلى القلوب . وقد أتيح لى أن أكون من خاصة مى بفضل الأستاذ لطفى السيد ، فكنت أتأخر فى الصالون حتى ينصرف الزائرون ، وما أكثر الليالى التى انصرف فيها الزائرون جميعاً ولم يبق منهم إلا الأستاذ لطفى السيد ومحمد حسن نائل المرصفى رحمه الله وأنا . وفى ذلك الوقت كانت مى تفرغ لنا وتفرغ لنا حرة سمحة ، فنسمع من حديثها ومن إنشادها ومن عزفها ومن غنائها . ويظهر أنى لن أنسى صوت مى حين تغنينا أغنية لبنانيـــة مشهورة «ياحنينة» وتغنينا فى اللغات المختلفة وفى اللهجات العربية المختلفة أيضاً.

* * *

وقد اتصلت حياة مى على هذا النحو مؤثرة بهذه الاجتماعات المنظمة فى البيئات المختلفة للأدباء والمتأدبين والمفكرين ورجال الأعمال أيضاً . اتصلت هذه الحياة أعواماً غير قليلة وظهرت آثارها فى كثير من إنتاج هؤلاء الناس . وما أشك فى أن صالون مى قد اتخذ مثالا لصالونات أخرى فتحت أبوابهـا فيما بعد . فمى قد أحيت بهذا الصالون سنة عربية قديمة كما نقلت إلى مصر سنة أوربية قديمة وحديثة فهذا هو المظهر الأول لحياة مى .

* * *

أما المظهر الثانى الذى أشرت إليه فهو مظهر مى التى آثرت الوحدة وألحت على نفسها فى العزلة ، وقد مضت فى طريقها إلى العزلة مضياً رفيقاً

أو قل أنها تدرجت فى هذا الطريق تدرجاً بطيئاً أول الأمر ولكنه سريع ملح آخر الأمر . أخذ ميلها إلى العزلة يظهر بعد أن فقدت أبويها، وبعد أن غمر الحزن نفسها المشرقة ، ولكنها لم تقطع صلتها بالناس فجأة وإنما قللت لقاءهم وتجنبت ما يدعو إلى هذا اللقاء ، وأخذت لاتلقى الناس إلا بميعـــاد يطلبونه وتستشار المذكرات لتحديده . وأخذت المذكرات تبخل بهذا التحديد شيئاً فشيئاً حتى أصبح لقاء مى مقتصراً على أصدقائها الأدنين ، وكنت بين الذين شرفتهم مى بهذه الصداقة فكنت ألقاها بين حين وحين فنستخلص لأنفسنا من الدهر وأحداثه ساعة أو ساعات نتحدث فيها أدباً وفلسفة ، جادين حيناً ومازحين حيناً آخر . وكان سكرتيرى ثالثنا فى هذه الاجتماعات . وكان لنا رابع يحضرنا دائماً ولكنه لم يكن يفهم عنا ، ولعلنا نحن كنا نفهم عنه كثيراً ، وهو ذلك الأبريق الذى كان ممتلئاً دائماً من شراب الورد ، والذى كنا نستسقيه غير مرة فى هذه المجالس العذبة المرة ، فقد كانت هذه المجالس مرة فى كثير من الأوقات . ذلك أن مياً كانت فى طور الحزن اللاذع والألم الممض والتشاؤم الذى كان يسرع إليها كما كانت تسرع إليه ، وطالما دافعت عنها هذا التشاؤم وطالما حاولت أن أردعنها هذا الحزن المهلك، ولكن لم أكن أدنو إلى النجاح إلا ليردنى الإخفاق عما كنت أريد رداً عنيفاً . وكنت أريد أن أستنقذ مياً من تشاؤم أبى العلاء كما كنت أريد أن أستنقذها من الإسراف فى التأثر برجال الدين . ولكن أبا العلاء ورجال الدين كانوا أقوى منى ومن غيرى أيضاً . وربما كان أظهر شىء لزم حياة مى فى هذا الطور من أطوارها حبها

لحياة القدماء وآثارهم، وإلحاحها فى قراءة التاريخ وحرصها على زيارة الآثار والوقوف أمامها صامتة مرة ومتحدثة إليها أو متحدثة عنها مرة أخرى. وقد ألحت عليها غير مرة فى الخروج من دارها للرياضة فكانت تمتنع وتأبى ، ولكنها قالت لى ذات يوم إن كنت تريد أن أخرج فاصحبنى إلى الهرم فإنى أحب أن أشهد هذه الآثار وأن أقف موقف عبرة واتعاظ أمام أبى الهول . وقد صحبتها إلى هذه الآثار غير مرة ، وكانت أحاديثها عن الروح المصرى القديم من أروع الأحاديث وأعمقها تأثيراً فى النفوس . ثم تتخفف مى من علاقاتها الاجتماعية شيئاً فشيئاً ويصعب علينا حتى إقناعها بشهود الاجتماعات التى كان يعقدها نادى القلم . ويحتمل الأستاذ خليل ثابت مشقة عظيمة فى إقناعها بحضورها بعض هذه الاجتماعات . وتسافر مى وتعود وقد قطعت صلاتها بأكثر الناس وكنت منهم . وإذا هى تؤثر أن تلقانى فى كتبى وفيما أنشر من الفصول . ثم يأتينا نعى مى ذات صباح .

هذه العزلة التى آثرتها مى فى آخر حياتها لم يقتصر أثرها على مى وحدها وقد ذاقت مى مرارتها وبلت آلامها ، ولكن الناس كانوا يعرفون هذه العزلة وكانوا يعرفون ما كانت تحتمل فيها من الألم ، وكانوا يألمون لها ويضيقون بها ولكنهم كانوا يفكرون فيها ويلتمسون لها ألوان العلل فى حياة مى العقلية وفى المثل الأدبية التى كانت تنظر فيها مى كثيراً .

وقد يكون من الغريب أن نلاحظ أن ميا بهذين المنظرين

المتناقضين من مظاهر حياتها قد أحيت سنة الفتاة « خرقاء » وهى التى قال فيها الشاعر القديم :

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثــــام

فلم تكن زيارة القاهرة تتم دون لقاء مى ، كما أحيت سنة أبى العلاء بعزلتها تلك . ومن المحقق أيضاً أن الأدب العربى القديم قد انتفع بسنة « خرقاء » كما انتفع بسنة أبى العلاء . ومن المحقق أيضاً أن الأدب العربى الحديث قد انتفع وسينتفع بهذين الطورين من أطوار حياة مى . رحمها الله .

## عباس محمود العقاد

للأستاذ المرحوم العقاد مقام معلوم فى عالم الأدب ، وتمتاز كتبه وكتاباته بعمق التفكير ، وغزارة الاطلاع ، وكان على كثرة إنتاجه فى التأليف يتحف الصحف الأدبية بمقالات تعجب الذين يتابعونها ، جمعت إلى قوة الأسلوب وشدة أسره ، العمق والنصاعة فى التعبير عن الفكرة وتصويرها .

وكان الأستاذ كثير الصلات بمى ، عرفها من قرب ،وأعجب بذكائها وألمعيتها ، وعنده عنها معين من الذكريات لا ينضب ، وفيض لا يغيض . فحديثه عنها حديث المنبىء الخبير . وما احتاج فى خلال الأسئلة إلى أن يكد ذهنه فى استحضار ماض بعيد ، أو الاستشهاد بحادثة معينة . وقد خيل إلى وأنا أصغى إليه أنه استعرض ماضى مى لحظة فلحظة ، وأن صور الأيام كانت تمر بخاطره سريعة متعاقبة .

ويحتفظ العقاد بكل ما كتبت « مى » من مؤلفات ، ولقد ردت إليه — حين ألحت عليها العلة ، واصطلحت عليها الهموم — جميع رسائله إليها ، كما ردت إلى غيره ممن راسلوها رسائلهم . ولقد أطلعنى العقاد على جملة هذه الرسائل ولم يطلعنى على تفاصيلها . أما رسائلها إليه فقد ردها إليها وهى محفوظة مع ما وجد عندها من مخلفات وآثار . وليته وفى بما وعد من الكتابة عن « مى » فهو أولى الناس بالكتابة عنها ، وأجدرهم بالتحدث عن أدبها وفنها ، وعبقريتها ونبوغها ، وأقدرهم على تصويرها فى نديها وهى تدير الأحاديث ، وتوجه الكلام .

يؤمن بعض المشتغلين بالآثار ، المنقبين فى الصخور الصم ، وفى الرمال الصفر ، الكاشفين عن الكنوز المكنونة والجثث المدفونة ، بأن للموتى لعنات قد تنصب على الكاشفين ، وسخطات قد توجه إلى النباشين الحفارين ، فتصيبهم منها المكاره أو تدركهم بسببها المعاطب .

وأنا أومن بأن للموتى - إلى ذلك - رحمات تمس النار اللافحة فتبرد ، وتلمس الصخور القاسية فتلين . . وأن لهم نفحات من عالم الغيب ، ومن وراء الحجب ، تخترق الأستار وتمزق الغشاوات ، فتصل إلى أرضنا تنشر فيها المحبة ، وتشيع فيها الرحمة ، وتصل الوداد المقطوع والحبل المصروم ، وتؤلف بين القلوب وتجمع بين البعيد والقريب .

وكذلك كانت « مى » . . . أحسن الله إليها . فقد أتاحت لى أن أرى « العقاد » بعد غياب سنوات . . وأن أستأنس إلى « العقاد » بعد وحشة سنوات . إنها « كرامة » من « مى » ! !

ولقد عرفتنى « مى » إلى العقاد من جديد ، ووصلتنى روحها به عوداً على بدء ، فإذا بى فى داره فى « هليوبوليس » كما كنا بالأمس البعيد فى مكتبه « بالبلاغ الأسبوعى » وإذا بى أستمع إلى صوت « العقاد » الذى طال على العهد به .

وإذا بالعقاد يجيب عن كل سؤال من أسئلة وضعتها له عن « مى » وإذا بى ألمح من ثنايا كلامه ومن خلال حديثه ألم الحسرة ، وحرق اللوعة لفقد « مى » . فهو يتحسر على مى فى نديها ، وعلى الحلو من حديثها ، والشجى من لحنها . ويتذكر « مياً » فى التماع ذكائها ، ونافذ رأيها ، واستواء حجتها ، واعتدال فكرها . ويعجب أين ذهبت هذه البشاشات وولت هذه القسمات ، وانطفأ ذلك الشعاع ، وجفت هذه الورقات ، وطويت هذه الصفحات ؟

لا تعجب أيها الأستاذ ! فمثلك من روى الأخبار وعرف الأسرار ، وقد أجبت أنت نفسك عن هذا السؤال حين قلت فى شطر حافل بالحكمة والحسرة من قصيدتك فى رثاء « مى » .

« كل هذا فى التراب آه من هذا التراب »

* * *

١ — سألته — رحمه الله — : « ما أحب كتب مى إلى نفس الأستاذ » فأجاب بما يأتى :

« باحثة البادية » يمثل أكبر جانب من تفكيرها وطبيعتها وأسلوبها . وأعتقد أن الآنسة مى كاتبة معتدلة بعيدة عن التطوح فى الأثيريات والخياليات . فهى أقرب إلى المحسوس الدانى منها إلى الخيال البعيد ، ولذلك

كانت فى حياتها كلها أقرب إلى المحافظة وأدنى إلى التمسك بالتقاليد . فالفرق بعيد بينها وبين كاتب مثل جبران خليل جبران ، فهو يمثل الخياليات ويسبح فى الأثيريات . وليس كتابتها جنوح إلى الغموض أو ميل إلى اصطناع الأسرار على النحو الذى يشاهد فى كتابات بعض أدباء المهجر وخاصة جبران .

ومما يلاحظ أنها كانت تعجب بجبران وكانت تناقشنى فى نقدى إياه، فكنت أقول لها إن إعجابك هذا إنما هو إعجاب المناقضة لا إعجاب المماثلة . وأعنى بذلك أن الإنسان إما أن يعجب بصفة فيه موجودة فى غيره على شكل أعظم وأوسع ، وإما أن يعجب بصفة ليست فيه ولكنه يرجو أن يتصف بها ، أو يكمل صفاته بإضافتها إليها . فمى فى وضوحها واستقامة تفكيرها وبعدها عما سميناه بالأثيريات والخياليات هى فى الواقع نقيض جبران ؛ وإن كنت لا أعنى قدحاً فى هذا الكاتب الذى له ولا شك منزلته فى الأدب ومزاياه فى الكتابة .

٢ — فسألته : « فى الطبعة الأولى من ابتسامات ودموع تصرفت مى فى ترجمة الكتاب عن فردريك مكس مولر الألمانى ، وفى الطبعة الثانية تقيدت بالأصل معنى وتعبيراً كما تقول هى نفسها فى المقدمة . فهل كان لهذا العدول رأى خارج عنها ؟ أم فعلته مختارة ؟ وما رأيكم فى تصرف الكاتب فيما يترجمه ؟ » .

فكان جوابه : لا أذكر أن هناك نقداً وجه إلى الترجمة الأولى . أو لعلى قرأت نقداً وغاب عنى ، إنما أعلم أنها ـ رحمها الله ـ كانت شديدة التبرم بالنقد وكانت تتقيه كثيراً ولو تبين لها أنه صادر عن نية

حسنة ، فإذا حدث أنها تعرضت لنقد فى سبيل التصرف فى الترجمة فإنى أعتقد أن هذا لما أعلمه من مزاجها ، وحذرها كاف للعدول عن هذا التصرف أو لاستدراكه إذا أتيح لها أن تستدركه .

أما رأيى فى تصرف المترجم بالترجمة فهو أنه جائز على شريطة أن المؤلف يقبل هذا التصرف لو عرض عليه . وليس غرضى بالطبع أن يتم العرض فعلا ، ولكنى أريد أن خير تصرف هو الذى يرضاه المؤلفون ويعتقدون أنه لا يخرج بالمعنى عما أرادوا .

٣ — فسألته : « إذا كانت الطبيعة الجميلة قد استهوت ميأ كما تحدثت هى كثيراً عن ذلك فى بعض كتبها ، فهل تعرفون لها قبل اضطرابها الأخير حادثاً خرجت فيه عن العالم المدنى الصاخب إلى العزلة الوحيدة الدائمة فى أحضان الطبيعة كما فعل « ثورو » و « اويل » فى أميركا ، وكما فعل « وردسورث » فى منطقة البحيرات بانكلترا ؟ »

فأجاب : كل ما أعلمه أنها كانت تتحاشى أن تخرج إلى الطبيعة منفردة لما عسى أن تتعرض له بسبب ذلك من اجتراء بعض العابثين ، وإن كانت تغتنم كل فرصة آمنة للرياضة فى ضواحى القاهرة وبعض المنازل القريبة منها . كان حبها للطبيعة يتجلى فى هيامها بمناظر الغروب أو مناظر السحب وهى مشرفة عليها من حجراتها فى بيتها ، حتى كانت تؤثر أن تجلس فى هذه الشرفات أيام الشتاء إذا لم يمنعها المطر الغزير من الجلوس فيها .

وكانت تتمنى أن تزور مصر وصعيدها الأعلى خاصة لتستمتع

بما تتخيله من روعة المناظر الطبيعية فيها ، وكثيراً ما سألتنى أن أصف لها تلك المناظر ، وأن أريها إياها فى رحلة شتوية كانت - رحمها الله - تفكر فيها كثيراً ولا تظفر من الوقت بما يمهد لها أسبابها ، على أن حبها للطبيعة كان محدوداً بما فطرت عليه من الإحجام والاحتراس ، ولولا ذلك ما انقطعت عن غشيانها كما يغشاها كل محب مشغوف بها .

٤ — فسألته : « على ذكر الدفاع عن الديمقراطية والمحنة التى تمتحن بها أممها نسألكم رأيكم فى الفصل الذى كتبته مى فى كتابها المساواة » .

فأجاب : أذكر أننا تناقشنا فى الديمقراطية مرات ولم تكن على وفاق فى كل مرة . وإن كان خلافنا على هذه المسألة أقرب إلى الفكاهة منه إلى الجد والتباين الصحيح فى الآراء . فمن ذلك - وكنت أرشح نفسى للانتخاب - أنها أشارت إلى حق المرأة فى الانتخاب للمجالس النيابية . فقلت لها : إننى لو ملكت الأمر ما سمحت للمرأة بهذا الحق قالت ولم : فأجبتها لاعتقادى أن المرأة بفطرتها غير ديمقراطيـــة ، فأنكرت ذلك أشد الإنكار . وعدت أسألها :

ترى لو أعطيت أنت حق الانتخاب - وأنت مى التى لا يشبهها كثيرات من النساء - ثم ذهبت إلى الصندوق وذهب إليه مرشحان أحدهما يسير على قدميه والآخر يركب سيارة فخمة من أنفس طراز ، فهل تظنين أنك تفضلين المرشح السائر على قدميه أو تفضلين المرشح صاحب السيارة الفخمة ؟ قالت : . . . لعـــلى أفضل الأول إذا كان مستحقاً للتفضيل . قلت : بل لعلك تفضلين الآخر

على كل حال . . . ! فتظاهرت بالغضب ! والتفت إلى السيدة والدتها ـ وكانت تسمع حديثنا ـ أسألها : ما رأيك يا سيدتى فيمن تؤثره كريمتك بالتفضيل ، وأنت أعلم بها منى ؟

فضحكت وقالت : الحق أن كل امرأة تفضل راكب السيارة على السائر إلى صندوق الانتخاب بقدميه ! وهنا عادت الآنسة مى تقول : ولم تظنون أن المرأة مخطئة حقاً فى هذا التفضيل ؟ ألا يمكن أن يرجع هذا إلى بداهة فيها توحى إليها أن تختار من تستقر على يديه الأمور ويبتعد بالأمم عن القلاقل والأزمات ؟

وانتهى الحديث بينى وبينها بقولى : إن حكم السراة والنبلاء كان هو فى أكثر العصور مثار القلاقل والثورات . وما قامت ثورة قط إلا على أثر حكم يطغى فيه هؤلاء النبلاء .

وفى مرة أخرى كان قيصر روسيا مقبوضاً عليه فى انتظار المحاكمة أو النفى إلى مكان بعيد . وكانت مى تشايع القصر وترثى له وتنعى على خصومه أن خلعوه واعتقلوه . فكنت أقول لها : إننى لا أود الألم والشقاء لإنسان ، ولاسيما إذا كان هذا الإنسان بين أهله وأسرته . ولكننى كلما ذكرت القيصر منفياً لم يسعنى أن أنسى رجلا عظيما مثل « دستويفسكى » وهو منفى فى سجون سيبريا ، ولم يسعنى أن أنسى ألوف العمال الذين قتلوا أمام قصر الشتاء بأيدى حراس القياصرة . فإن مصائب الكبار لا تنسينا مصائب الصغار . وربما كان الكبير مسؤولا عن مصيبته ، ولم يكن الصغير مسؤولا لا عن مصابه ولا عن مصاب

الآخرين . وختمت حديثى معها — رحمها الله — بسؤال لم أجب عليه وهو : هل تظن أن خصوم القيصر سيرحمون العمال أو يعاملونهم خيراً من معاملة حراس القيصر ؟ فقلت : علم ذلك عند المستقبل . وعلى هذا النمط كانت تجرى مناقشاتنا فى موضوع الديمقراطية بحيث لا تتجاوز هذه المناوشات الفكاهية إلى التعمق فى البحث والمبالغة فى الاستقصاء .

٥ — فسألته : « كان لى بعض المؤاخذين على افرنجية أسلوبها وتساهلها فى اختيار اللفظ العربى الصحيح . فما رأيكم فى هذا ؟ » .

فأجاب هذا الجواب الموجز : لا أظن أنها وقعت فى خطأ لغوى كانت تستطيع اجتنابه .

٦ — فسألته : « أشرتم فى مقال لكم فى إحدى المجلات إلى براعة مى فى إدارة الحديث فهل نستطيع أن نسمع منكم المزيد فى هذا الموضوع ؟ » .

فكان جوابه : لا يحضرنى مثل لذلك أدل على البراعة من إدارتها الحديث فى مجلس حضره نحو ثلاثين كاتباً وأديباً ووزيراً للتشاور فى الاحتفال بالعيد الخمسينى للمقتطف ، وكان اجتماع هذا المجلس عندها فى إبان المنازعات السياسية التى وصلت بكثير من الكتاب والأدباء إلى حد التقاطع والعداء . وكان منهم من حضر هذا المجلس وهم متشيعون إلى شتى الأحزاب منتمون إلى مختلف الهيئات . فقضينا عندها ساعتين نسينا فيهما أن فى البلد أحزاباً أو منازعات سياسية بفضل براعتها فى التوفيق بين الآراء والأمزجة ، وقدرتها على توجيه الحديث إلى أبعد

الموضوعات عن الخلاف والملاحاة . وما أحسب أن أحداً غير مى قد استطاع الذى استطاعته فى تلك الأيام ، حتى أذكر أننى قلت لها وأنا أودعها تلك الليلة : لقد كنت يا آنسة فى هذا المساء تحملين معزف « أرفوس » .

٧ — فسألته : « ذكرت مى فى مقال لها بالمقتطف عدد مارس سنة ١٩٢٧ عن بتهوفن أن همومه الكثيرة واليأس الذى حاق بنفسه قد ساعدت على ضعضعة إيمانه . وقد كانت مى كئيبة طول حياتها يائسة كسيرة القلب فى أواخر أيامها ، فما أثر ذلك كله فى إيمانها ؟ وهل زعزعت الحوادث إيمانها ؟ » .

فكان جوابه : على نقيض ذلك . كانت مى فى أيام مرضها أشد إيماناً بدينها ولهجاً بموضوعات الدين من سائر أيامها . ومن شواهد ذلك أنها بعد عودتها من رحلة إيطاليا المشئومة قصت على حديثاً جرى بينها وبين جماعة من الفاشيين كانوا يفخرون بأنهم ورثة الدولة الرومانية القديمة ، فكان أكبر ماعاتنه على تلك الدولة أمامهم أنها هى التى اضطهدت السيد المسيح . ولاشك أن القدح فى دولة كبيرة كالدولة الرومانية القديمة لمثل هذا السبب لايدل على ضعف فى النزعة الدينية ، بل يدل على اشتغال الذهن بها أكبر اشتغال . ولا أذكر مناقشة جرت فى مجلسها بين ملحد ومؤمن إلا كانت هى فى جانب الإيمان بتفكيرها وشعورها على السواء .

٨ — فسألته : « هل اطلعتم على شىء من كتبها المكتوبة بغير

اللسان العربى ؟ وهل تعرفون ترجمة لكتابها « زهرات حلم Fleurs de Rêve » المكتوب بالفرنسية ؟ » .

فأجاب : لم يترجم كتاب زهرات حلم إلى العربية [١] . ولا أذكر أنى قرأت لها شيئاً بغير اللسان العربى .

٩ — فسألته : ما الذى تعرفون عن احتراس مى فى حياتها الاجتماعية ؟ » .

فأجاب : يخيل إلى أن احتراسها المفرط لازمها من بدء شبابها ثم زادته الحوادث رسوخاً وتشعباً حتى كانت فى بعض الأوقات لا تطمئن إلى أحد ولو كان من أقرب المقربين إليها وكثيراً ما دعيت إلى حفلات بيتية عند صديقاتها من كبريات الأسر فكانت فى أكثر الأحيان تجيب بالاعتذار ، لأنها كانت تكره الحفلات الراقصة على الخصوص مع إجادتها الرقص ودفاعها عنه فيما كتبته من الرسائل عن باحثة البادية ، ويخيل إلى أنها كانت مطبوعة على التمسك ومصابرة الآلام فضلا عما لقيته أحيانا من شدائد نفسية تملى لها فى شعور العزلة والشك والاحتراس . وما أظنها كانت تنطلق فى حريتها لو سلمت من تلك الشدائد ، لأنها فيما أرى قد فطرت على الاحتجاز والتضحية . وربما ورثت شيئاً من هذا عن والدتها التى كانت شديدة التمسك بدينها . وكانت لا تطيق أحياناً أن يذكر أمامها أسماء أعلام الفكر ودعاة الحرية الدينية .

---

(١) ترجم أخيراً هذا الكتاب إلى العربية بعنوان « أزاهير حلم » وصدر عن دار بيروت .

وقد كانت تسخط مثلا على رينان كلما ذكرناه ، بله الثائرين من أمثال « ڤولتير » و « كارل ماركس » وأحرار الفكر المحدثين .

١٠ — فسألته عن مذكراتها ورسائلها .

فأجاب بما يلي : كانت لها مذكرات وتعليقات أدبية لم تطبع ، وبعض قصائدها ترجمها عن اللغات الأجنبية والقديمة خاصة . ولديها رسائل أدبية لكثير من أعلام الأدب العربي . ولكنها ردت هذه الرسائل إلى أصحابها قبل اعتكافها واشتداد المرض عليها .

ولهذه الرسائل شأن عظيم ، لأنها لو جمعت وطبعت لكانت تحفة أدبية رائعة .

## السيدة أيمي خير

١ — سألتها : « ما كان أثر الفجيعة في مي في نفسك ، وكيف تلقيت نعيها ، وهل كنت على علم بما حدث لها قبل وفاتها بأيام ؟ » .

فأجابت : كان لمصاب مي أثر بالغ في نفسي ، وحزن عميق في قلبي ، وكان بودي لو قدر لمي أن تموت موتة غير هذه الموتة ، وفي ظروف غير هذه الظروف .

إن وفاتها صدمة قاسية ، ولا شك أن مثل مي في مقامها الأدبي ومقامها الاجتماعي ومكانها في التأليف والكتابة ليعتبر موتها على هذه الصورة فجيعة قاسية .

وهنا تنهدت السيدة الفاضلة ثم تابعت الحديث قائلة : شعرت

بألم المصاب لمى ، وأحسست به إحساساً عميقاً وبودى لو استطاع كل إنسان فى مصر أن يمهد لها فى أواخر أيامها حياة أهنأ من حياتها التى كانت تحياها .

تسألنى كيف تلقيت النبأ ؟ نعم لقد قرأته فى الأهرام فى الصباح المبكر . وكان نعيـــاً مفاجئاً ، وخبراً مباغتاً . وبلغ من ذهولى له وتأثرى به أن تحدثت فى المسرة ( التليفون ) مع الأستاذ خليل مطران لعل عنده من وفاتها نبأ ، وسألته كيف ماتت «مى» هذه الموتة المفاجئة بعد أن قدرنا لها الراحة والهدوء فى بيتها الصغير الهادىء .

ولقد كنا جميعاً ـ نحن أصدقاءها والمتصلين بها ـ نعلم أنها كانت فى بيتها الجديد الصغير لا تحب لقاء أحد . وهى حالة غريبة من حالات النفس طرأت عليها . فلم نشأ ـ لذلك السبب ـ أن نثقل عليها بالزيارة أو نزعجها بطلب المقابلة ، مؤثرين أن نتركها فى هذه العزلة التى اختارتها بيدها إلى أن يأذن الله فى شفائها ، مؤملين ومعللين نفوسنا بالآمال القوية أن مياً ستعود سيرتها الأولى ، وأننا سنعود إلى لقائها . . . ولكن الآمال خابت والرجاء ضاع حينما فوجئنا بوفاتها واختطاف الموت لها من بيننا . وما اتصل بعلمى شىء مما جرى لها قبل وفاتها بأيام ولا وقع فى خاطرى شىء منه ، لأننا تركناها لعناية الله وحماية الأقدار .

٢ — فسألتها : « ما هى النواحى التى تعجبك من مى ؟ » .

فأجابت : لقد كنت أود مياً ، والشاعر يقول حسن فى كل عين من تود . ومن ناحية إلا كانت موضع إعجابى من مى ؟ .

أعجبنى منها ذكاؤها المتوقد ، وذهنها المتيقظ . وكانت كل حاسة

من حواسها أو جارحة من جوارحها تنم على ذلك الذكاء ، فعيناها اللامعتان وتعبيرها الحار، ولطف إشارتها وحسن حديثها ، كل أولئك تنم على ذكائها كما ينم ريح المسك على المسك .

تستطيع أن تؤثر فيك بكلامها ، وتنقلك إلى صفها ولو كنت من الملحفين فى الخصومة الممعنين فى المجادلة والمعارضة .

وكان فيها إلى جانب علمها وفنها جوانب كثيرة وحواش رقيقة من اللطف والدعة ، واللين والرقة . فكانت تحترم أمها وأباها ، وتقف أمامهما كما يقف الطفل فى حضرة والديه .

فما قصرت لهما فى حق ، ولا ضيعت لهما واجباً . وكان الأسرة عندها محل كبير من الاعتبار وموضع من التقدير ، فظلت محافظة على المبادىء الأسرية والتقاليد العائلية من غير أن يطوح بها التفرنج إلى الخروج عما رسمته لنفسها من مبدأ ، وماوضعته من خطة .

وكانت مى متواضعة ، وأعظم ما أعجبنى منها هو ظهور تلك الصفة فيها على الرغم من علمها وأدبها ، فما غرها العلم ، ولا زهاها الأدب ، ولا نفخ فى أوداجها كونها كانت قبلة الوزراء والعلماء والأدباء . فكانت مى هذه — مى العالمة المتمكنة ، ومى الاجتماعية المفكرة — تتحدث مع الجاهل فتنزل إلى مستواه ، من غير أن تشعره بجهله ، وبالجملة كان لمى أدب الرجولة القوية ولطف الأنوثة الوديعة .

أنا معجبة بها ، أنا معجبة بها « وكررتها السيدة الفاضلة كثيراً » .

٣ — فسألتها : « كيف كانت صداقة مى لبنات جنسها؟وهل كان للمرأة مكان فى نديها كما كان للرجال ؟ » .

فأجابت : كانت مي لطيفة مع النساء ، كما كانت مع الرجال فهي لطيفة على اختلاف الحالات ، ولم تتوطد بيني وبينها صداقة كما تظن ، ولكنها صلة وثّقها عندي إعجابي غير المحدود بها . كانت مي محبة لجنسها النسائي ، وأكبر برهان على ذلك كتابتها عن عائشة التيمورية ، وباحثة البادية ، ووردة اليازجي . ألا تحمل كتاباتها عنهن طابع الحب لجنسنا ؟ ألا ترى في ذلك وفاءها لنا ؟ ولعلك تعجب إذا عرفت أن مرات ترددي على نديها لم تتجاوز ثلاثا أو أربعاً . ولكن أصحابها من الرجال كانوا أصحابي ، فكان حديثهم عنها يؤكد لي ما رأيته في مرات لقائي إياها . والذي أعرفه أن نديها كان محط الرجال لأهل العلم والفضل والحكم من الرجال ، فلم يكن يتردد عليه ويختلف إليه من النساء إلا قليل — على ما أعلم — وأذكر منهن مدام شكور » .

٤ — فسألتها : « ما رأيك في كتابتها بالفرنسية ؟ وهل قرأت لها كتاب « زهرات حلم ؟ » .

فأجابت : كل ما أعلمه لها بالفرنسية كتابها « زهرات حلم » وهو كتاب عاطفي ، وفيه كثير من الطموح والجدة والشباب ، وقد خلا من التكلف بقدر ما امتلأ من الشعور . ويمكنك أن تقول أنه كتاب فتاة صغيرة شابة الآمال ، فتية القلب شاعرية الروح .

وأول ما كتبت مي بالفرنسية ، وتعليل ذلك بسيط ، فقد تعلمت في مدرسة عين طورة بلبنان اللغة الفرنسية قبل العربية . فكان طبيعياً أن تكتب بما تعلمت . فلما أتمت دراستها فهمت أن هذا الطريق الذي اختير لها خطأ ، وأنه من الخير لها والبر بوطنها أن تدرس العربية .

فتركت الفرنسية مرة واحدة وبدأت تتعلم لغة العرب — لغة الآباء والأجداد .

وفى ذلك الحين قابلت لطفى « باشا » السيد ، وسمعها تتكلم وتدافع عن الحركة النسائية الشرقية دفاع المؤمن بما يقول ، فتقدم لتدريس اللغة العربية لها . والحق الذى أنا مستوثقة منه أن الأستاذ لطفى السيد هو مدرسها فى العربية . . .

وظلت مى تكتب العربية وتمارس مدارستها ، إلى أن مات أبوها أولا — المرحوم إلياس زيادة — صاحب « المحروسة » ، وماتت أمها ثانياً ، فرجعت مى إلى اللغة الفرنسية تكتب بها وتقرأ فيها . وأظن تعليل ذلك سهلا يسيراً ، فإنها لما مات أبواها تذكرت أيام نشأتها وعهد طفولتها ، فربطت الذكريين بما تعلمت من الفرنسية وحنت إلى الكتابة بها . وأذكر لها فى ذلك الحين مقالا طريفاً فى هذا اللسان تخاطب به عصفوراً صغيراً .

وكانت الفرنسية أحب اللغات الأجنبية التى حذقتها إلى نفسها ، فكانت تكتب بها بعض رسائلها أكثر من أية لغة أخرى . أما العربية فلها فيها رسائل تعد ثروة أدبية كبيرة .

وعجيب أن تتحول مى هذا التحول السريع من الفرنسية إلى العربية ، حتى لكأن العناية الإلهية اختارتها لإتقان العربية بعد أن قطعت فى الفرنسية شوطاً بعيدا ، واجتازت مدى كبيرا . وليس ذلك فى الحق بعجيب على مثل مى فى حبها للشرق والشرقيات والعروبة .

ويخيل إلى أنها كانت فى ثوبها الفرنسى متعبة قلقة ، وكأن وازعاً

نفسياً كان يعاتبها على خلع رداء العروبة ، فأجابت الداعى حين دعا ، وخلعت ذلك الثوب الفرنسى الذى لم يوائم مزاجها ولم يوافق طبعها ولبست ثوب العروبة فازدان بها وازدانت به .

ولقد بلغ من حب مى لشرقيتها ، وحفاظها على عربيتها أنها كانت تقدم لضيوفها — وما كان أكثرهم — شراب الورد أو فنجانة القهوة على طريقة شرقية محببة ، فلم تجار (المستغربين) — أى عشاق الغرب — فى اتجاههم ، ولم تذهب مع العصريين المتفرنجين فى سبيلهم .

٥ — فسألتها : «هل كانت مى تعالج نظم الشعر بالفرنسية ، وإذا كان ذلك فهل تذكرين لها بعض القصائد ؟ وهل عرفت لها رأياً فى الشعر العربى قديمه وحديثه ؟» .

فأجابت : نعم : وعندها مخطوطات لقصائد فرنسية ، وكانت تنوى طبعها قبل وفاتها . وأنا واثقة أن هـذا الديوان الذى لم يطبع يفوق ديوانها الأول «زهرات حلم» قوة وشاعرية لأنه نتيجة نضجها ، وثمار تجاربها واختباراتها ، بينما الأول كان أول عمل لها فى شبابها حيث الفكر محدود والتجارب قاصرة ، ولا أعرف لها رأيا خاصاً فى الشعر العربى ، ولم يقع لى من حديث معها أو حديث عنها شىء من رأيها فى هذا الموضوع ، ويخيل إلى أنها كانت تحب شعر « شوقى » . وأذكر أنها خاطبتنى مرة بأننا كلنا نسعى فى طريق واحدة وإلى غاية متحدة ، وهى أن نعمل — من العربية — لغة قواما بين لغة العلماء ولغة الشعب . وهى بذلك الاتجاه فى التفكير تعتبر فى طبقة الزعامة من النهضة الحديثة .

وتحضرنى الآن ذكرى طيبة عن ديوانها «زهرات حلم» فقد اشتريته

لأساهم فى مساعدة جماعة خيرية . فلم تكن مى تبغى من ورائه مكسبا ماديا ، أو تريد ربحا ماليا . ولكنها عاطفة الإحسان تمثلت فيها فصرفتها عن شغل المادة وعبادة المال . وهنا تنهدت السيدة الفاضلة ثم قالت : « لقد كانت حياة مى قصة كاملة ، قصة مملوءة بالمآسى والفاجع ، كما كان موتها مفجعا » .

٦ — فسألتها : « كانت مى باعترافها فى بعض كتبها كئيبة حزينة فما أثر تلك الكآبة فى نظرتها إلى الحياة ؟ وهل كانت طيبة الأمل فى الجنس البشرى أم خائبة الأمل فيه ؟ وهل وجدت فى غير الكتابة والتأليف عزاء لها عن أحزانها ؟ » .

فأجابت: إن سبب حزن «مى» هو عزلتها فى الحياة ووحدتها وانفرادها. لقد كانت مى كقمة الجبل الأشم وهى ضاربة بعيداً بعيداً فى عنان السماء. لقد كانت شاعرة بسموها وذكائها ، شاعرة بتفردها فى عالمها . فعاشت منعزلة فى عالم خلقته من ذكائها وصنعته من مواهبها .

ألا ترى إلى قمة الجبل الشاهق كيف استغنت بسموها فى آفاق السماء فرضيت بوحدتها ؟

لقد كانت مى كذلك ... ولكنها مع ذلك لم تحتقر الآخرين بل كانت ترتاح إلى أحاديثهم ، وتطمئن نفسها إلى نفوسهم وتجد لذة فى مجالستهم .

ولا تنس الناحية العاطفية الجنسية فى شقاء مى ، فلقد كانت فتاة تأمل أمل الفتيات ، وتحلم أحلام البنات . ولكن الأقدار باعدت بينها وبين الزوج الذى يسعدها ، والبيت الذى يؤنسها — وأعنى بيت

الزوجية — والأطفال الذين يجعلون للحياة قيمة من حولها .

نعم حرمتها الأقدار ذلك كله . وهو شاق على كل امرأة ، عسير على كل فتاة .

سألتها مرة عن صحة أبيها وأمها فقالت فى لهجة فهمت منهـا كل شيء وأدركت كل معنى : «ليس لهما غيرى وليس لى غيرهما ...» ، آه .. كلمات قصيرة تحمل معانى كبيرة . كانت حياة مى لوالديها ، وكانت نسمات الحياة فى مى لوالديها ، وكان مجد مى لوالديها ، وكان تعبيرها لى فى هذه الجملة القليلة الضئيلة الألفاظ نوعاً من الشكوى بحالها . وهى شكوى لم تطل على حسب ما يصنع الشاكون والشاكيات. من المؤكد أنها لم تـكن سعيدة فى حياتها ، ولم تـكن هانئة حتى على المجد الذى أحرزته ، والعرش الذى احتلته . إن فى الحياة معانى عميقة ، وكلما بعـد الإنسان عن فهم هذه المعانى وإدراكها على وجهها الصحيح زادت متاعبه ونغصت أيامه وساعاته .

لقد ضحت مى بـكثير فى حياتها وما أعظم ما ضحت به . ضحت بشبابها اللامع الوضيء وذكائها المتوقد الملتهب ، وقدمتهما إلى الحيـاة قربانا خالصاً ... ولعلك تذكر الأسطورة الرومانية القديمة عن الربة ڤستا Vesta والبنات اللائى كن معها ضحية الشباب واسمهن فى الأسطورة ڤستال Vestals . لقد كن ضحية الشباب النضير ، فلم يتزوجن ولم يتعلق قلب واحدة منهن بهوى ، وقضين حياتهن منشغلات بإشعال نار مقدسة سماوية وإمدادها بالحطب الجزل حتى لا تنطفىء فإن فى انطفائها خرابا عاجلا لمدينة روما . . . وكذلك كانت مى . . . لقد كانت كواحدة

من هؤلاء الفستال .. كانت تجد فى الأدب تسلية وملهاة ، ولم تجد فيه تعزية ، وفرق كبير بين التسلية والتعزية . أى شىء كان يعزى ميا عن آلامها المشتعلة ؟ وأى وسيلة كانت تجد فيها مى العزاء عن آلام الزمان والمكان ؟ ( وهنا تمنت لى السيدة الفاضلة ألا يحكم علىّ فى الحياة بما يدعو إلى السلوان والعزاء . . . فلها مثل ما تمنت ) .

لقد كانت الكتابة تشغل ميا عن آلامها وأحزانها ، مسكينة مى ! ولو رأيت جنازتها لرأيت البساطة ممثلة فيها ، كان هناك أحمد لطفى السيد — وكنت معه — وأنطون الجميل وخليل مطران وبعض أصدقائها . لقد كنت راكبة مع لطفى السيد فى سيارة خلف نعشها . ولما وصلنا إلى الديار البعيدة الساحقة ، ديار الأبدية التى لا لقاء بعدها بأجسامنا ، تلك الديار التى تفرق منا كل يوم حبيبا ، وتخطف عزيزاً ، لما وصلنا إلى هنالك دنونا من قبرها ولحدها الأخير ، فوقف عليه لطفى السيد وذرف السخين من العبرات حينما تلقوها من بين أيدينا ليسلموها إلى سكون الموت ووحشة القبر ، ويودعوا جسدها التراب .

وهناك . . . فى ديار الفناء ، ومقابر السكوت سكتت مى الخطيبة ، وعاشت مى الخالدة . فما سمعنا لها صوتا ولا سمعنا أحداً يتكلم على قبرها ، ولا ارتفع صوت فى الكنيسة لتأبينها .

لقد كان السكون مخيما ، والصمت شاملا فما استطاع لسان أن يحل عقدته . وزاد فى أسى الجنازة وحزنها منظر الشمس الغائبة فى ذلك اليوم . لقد كان كل شىء حزيناً ، وكل جو يشعر بالأسى والحزن ، لقد كانت موتتها قاسية ، وكنا نأمل لها خاتمة غير ذلك .

٧ — فسألتها : «ماذا قرأت لمي فى العربية ، وما أحب كتبها إلى نفسك ؟» .

فأجابت : يؤسفنى أنى لم أقرأ لها فى العربية كتابا ، وأرجو أن يتاح لى ذلك ، أما فى الفرنسية فقد كانت تعجبنى بكل ما نكتبه ، وأنا أشبهها بمدام دى ستايل فى اثنتين : ذكائها المفرط ، ويقظتها الحادة .

٨ — فسألتها : «ما هى ميول مى واتجاهاتها نحو الشرق والفكرة الشرقيـة» .

فأجابت : مى هى أول امرأة شرقية رزقها الله علماً واسعاً وإحاطة تامة بالعلم الغربى والتربية الغربية . فقد مكن لها تمكنها من بضع لغات أجنبية ومكنت لها أسفارها وثقافتها الخاصة من هذا العلم الواسع ، ولكنها تركت السير فى هذا الطريق بمحض إرادتها وخالص اختيارها . وكان تركهـا قوياً شديداً . وآثرت مى اختيـار طريق الشرق واعتزت بذلك اعتزازا كثيرا . ما كانت مى شرقية فقط بل كانت متحمسة للشرق متعصبة له . ولكن هذا الحب الشديد لشرقها وشرقيتها ما كان ليعمى عينها عن عيوب الشرق ، فكانت تعرف مواطن ضعفه ، ومواضع وهنه ، وتأمل أن يقوى ويشتد . وتستطيع أن تقول أن أحلام مى وآمالها كانت كلها للنهضة الشرقية . وهذا الذى أقوله لك وأنقله عن مى لم أقرأه فى كتاب من كتبها ، ولكنى عرفته من خلال ملاحظتى لحياتها ومتابعتى لأسلوب معيشتها .

وكانت مى تجد فى مفاخر الشرق القديم وفيما سلف من آثاره مجالا واسعاً للتعبير عن جلاله . . . وكانت سعادتها فى أن تبقى دائماً «امرأة

شرقية » . وكانت حريصة على هذه النسبة إلى الشرق معتزة بها دائماً ، وما رأيت فى حياتى إنسانا ـ ذكراً كان أو أنثى ـ أحب الشرق كما أحبته مى ، ولا تعلق بأسباب هواه كما تعلقت . . .

وكان واحداً من همومها وآمالها أن تترجم الكنوز الغربية إلى لغتنا العربية لأنها كانت ترجو من وراء هذا النقل فى الأفكار ، والاتصال فى الآراء ، سعادة للشرق فى آماله ، وتقدما له فى نهضته ، وكانت تنشيها الكبرياء بشعورها القومى ، ولكنها تود أن يتقرب الشرق من الغرب ليفيد من ثقافته ويكتسب من حضارته . وكانت معجبة بأن تقول بملء فيها : « أنا شرقية » بكل ما تحتمله هذه العبارة من معان سامية واسعة ، وكان مما يزيد هذه الناحية ظهوراً فى مى أنها كانت محاطة ببعض الذين يميلون إلى المظاهر الغربية ، فكانت تمقت تلك المظاهر الكاذبة وترثى للذين يجرون وراءها ، أو يتشبثون بها . وكأنها فى كل لحظة من لحظات حياتها ، وفى كل لون من ألوان عيشها ، وفى كل بقعة من الأرض زارتها ، وفى الشرق إذا حلت ، وفى الغرب إذا اغتربت ، كأنها كانت تقول : أنا من الشرق وإلى الشرق أعود . . . !

## أنطوله الجميل

من فى مصر يجهل مكانة أنطون الجميل الأدبية ؟ ومن فى البلاد العربية لم يصل إلى أذنيه صوت أنطون الجميل حين يعلو منبراً ، أو يديو حديثا ، أو يكتب مقالا ؟

وعجيب جداً أن يتناول أنطون الجميل الأدب فيكون فارس حلبته ، ويدخل معترك الصحافة فيكون ابن بجدتها ، وينزل فى ميدان الاقتصاد فيكون خبيرا فى الأرباح والأعشار حريصا على الدرهم والدينار ، ويلج باب السياسة فإذا هو البارع المحنك ، واللبيب المجرب ، والذكى الألمعى. له ضلع فى كل مسألة ، ومشاركة فى حل كل معضلة ، فهو طلاع الثنايا ، وأخو النجدات ، وصاحب الغمرات[١] .

ورقة أنطون الجميل فى أحاديثه هى رقته فى كتاباته ومقالاته ، فهو يتخير فى الحديث اللفظة المعسولة ، والكلمة المقبولة ، كما يتخير فى الكلام حين يكتب وحين يخطب. وقد يجتمع فى مكتبه ـ فى ساعة واحدة ـ طوائف شتى مناحى العيش ، مختلفو نواحى الثقافة ما بين أديب شاعر ، وكاتب ناثر ، وصحافى بارع ، ووجيه فى قومه أو مقدم فى عشيرته ، وعالم كبير ، وموظف خطير فتراه يستمع إليهم حيناً ، ويسمعهم حينا آخر ، ويتلطف مع كل جالس ، ويهش لكل قادم . وهو فى خلال ذلك يلقى الأمر إلى «محرر» ويتلقى الخبر من «مخبر» ويتحدث إلى «المسرة» تارة مع «صاحب الرفعة» وأخرى مع «صاحب الدولة» يوم أن كانت

---

(١) توفى أنطون الجميل سنة ١٩٤٨ . وقد تولى رياسة تحرير الأهرام بعد أستاذى المرحوم داود بركات . وكان يجيد الفرنسية كأصحابها . ومن مؤلفاته : أبطال الحرية ، ووفاء السموءل ، وشوقى الشاعر ، وولى الدين يكن ، وخليل مطران . ويقترن اسمه بمجلة «الزهور» التى أصدرها مع المرحوم أمين تقى الدين .

الألقاب والرتب . . . ثم يعود إلى وصل ما انقطع من الحديث مع زائريه ، فإذا هو عالم بدقيقه وجليله ، محيط بجملته وتفصيله .

كثر مازرته وهو فى شغل ، أوطرقت عليه باب مكتبه وهو فى عمل ، وقد أنسانى سابق لطفه ، ومأنوس بشره أننى أشق عليه بالهجوم ، أو أثقل عليه بالدخول ، فإذا هو الرقيق اللطيف ، المتبسم المتهلل ، فأعتذر له ببيت قديم لا أشك فى طربه به وارتياحه له وهو :

فلا تعتذر بالشغل عنا فإنما    تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

أخذت منه موعداً للحديث عن مى إلى مجلة المقتطف ، وتمنيت على الله أن أظفر به وحيداً ، وأستأنس به منفرداً ، وتمنيت على الله أكثر من ذلك ألا يعرض خلال الحديث ما يشغله ، أو لا يستحدث من الأمور ما يصرفه . فإذا الأمانى هباء . . . وإذا المنى سدى . . . وإذا أنا بالشاعر الكبير على الجارم يجلس معه . فسلمت وسلم الجارم تسليم البشاشة . وبدأت السؤال و « الجميل » يجيب ، والجارم «يعلق» . وأنا بين الأديبين الكاسب المستفيد والرابح الغانم ، وتم الحديث . وأعلن «الجارم» انتهاء الامتحان ! وقد سماه فى ـ نكتته البارعة ـ امتحاناً . وما هو إلا حديث عن «مى» وكانت رحمها الله حديثاً حسناً لمن وعى . . ويخرج «الجارم» من جيبه قصيدة طويلة فى رثاء المرحوم المؤرخ الجليل الأستاذ عبد الوهاب النجار ، ويشرفنى بأن ألقيها فإذا فيها هذا البيت فى وصف الدنيا :

إذا أعطت فقد أعطت قليلا !    ولا يبقى القليل ولا الأقل

والجارم هنا يقصد عدم بقاء المادة الجامدة والأجسام الفانية الزائلة. أما حديث الفضل والحسنات ، والروح والمعنويات فهو باق لا يدول ، خالد لا يزول كما قال الشاعر :

تدول أحاديث الرجال وتنقضى     ويبقى حديث الفضل والحسنات

وكذلك يبقى حديث مى الفاضلة المحسنة .

* * *

سألت أنطون الجميل : « ما هى أولى ذكرياتكم عن المرحومة مى. وكيف نشأت الصلة الأدبية بينكم وبينها . »

فأجاب : عرفتها وكلانا ناشىء فى الأدب ، ولم يعد ذلك معرفة الاسم، وقراءة بعض الفصول مما كتبته مى ووقعت لى قراءته . ثم أهدت إلى - وكنت يومئذ أصدر مجلة الزهور - أول كتاب أخرجته أو أول ديوان من الشعر نظمته . ولم يكن ذلك الكتاب عربياً . ولكنه كان أعجمياً «فرنسيا» غير ذى عوج .

وأسمته زهرات حلم Fleurs de Rêve وهو اسم كما ترى فيه نضارة الزهر وقد رصعه الندى بالدر . وفيه سعادة الأحلام وقد صحت.

ولم توقع مى ديوانها هذا بصريح اسمها ، ومشهور لقبها ولكنها وقعته باسم مستعار هو ( إيزيس كوبيا ) . ولاحظت - رحمها الله - فى اختيار ذلك الاسم مطابقته فى المعنى لاسمها العربى . فإيزيس إلهة مصرية قديمة كانت أماً لحورس ، وهى تقابل « مارى أو مريم أم المسيح عليه السلام ، وكوبيا كلمة لاتينية معناها الزيادة والكثرة ، وهى تقابل

باسم أسرتها «زيادة» . ومن هذا الأصل اللاتيني جاءت الصفة Copieux بالفرنسية و Copious بالإنجليزية .

وأتبعت مي هديتها الأولى إلى «الزهور» بمقال عن الفريد دي موسيه ، فنشرت المقال في المجلة وكتبت كلمة عن ديوان شعرها جاء فيها :

«عرف قراء العربية الكاتبة الأديبة «مي» بما نشرته من الروايات الجميلة والمقالات الشائقة والأبحاث النفسانية الدقيقة في جريدة «المحروسة» وقد أتحفتنا بمقالة لطيفة عن «الفرد دي موسيه» نشرناها في غير هذا المكان من هذا الجزء .

وأمامنا الآن كتاب شعر فرنسي رقيق ، في ذيله بضع صفحات نثرية جميلة تأليف « إيزيس كوبيا » ، وإيزيس ومي هما شخص واحد ، والقلم الذي حبر المقالات والروايات العربية ، والريشة التي حاكت برد هذه القصائد الفرنسية : تحملها يد واحـــدة ، ويملي عليهما فكر واحد ، والكتاب مجموعة أزهار عطرية نبتت في رياض الأحلام الجميلة ، وهي مهداة إلى روح «لامرتين» شاعر القلوب الحزينة ، وهذه الروح المتألمة ترف على كل صفحة من صفحاته وتجعل الكاتبة تقول في قصيدة « هل هي شاعرة ؟ » ما معناه : البكاء والرأفة والحب والألم هـذه هي صفات الشاعر .

وقد ظهر من الموضوعات التي طرقتها الكاتبة أنها لا تصف إلا ما ترى ، ولا تعبر إلا عما تشعر به ، فجاءت منظوماتها صورة حقيقية لما يشغل فكرها ويحرك قلبها ، ولذلك أنت تشاركها عند تلاوة أشعارها في هذه العواطف أياً كان رأيك في القالب الذي سبكتها فيه .

فلا تتمالك من أن تصبو معها إلى مصر ونيلها وآثارها وسهولها ، وتحن معها إلى لبنان وجباله وأوديته ، وإذا كانت « إيزيس كوبيا » شاعرة في نظمها فقد وجدناها أشعر منها في تلك الصفحات النثرية التي ختمت بها « أزهار أحلامها» حيث لم تعد مقيدة بقيود القافية والوزن، وكثيراً ما تكون الأزهار المنثورة أجمل من الأزهار المضفورة »

وكان مقالها الأول في «الزهور» باكورة توالى بعدها الثمر الجني، ووسمياً من المطر جاء بعده الغيث المنهمر، فتتابعت نشر الفصول التي أذكر منها : ذكرى بعلبك ، والغنى ، ودمعة الروح ، وكيف نقيس الزمان إلى آخر ما نشر هنالك . تلك أولى ذكرياتي عن مي ، وذلك مبدأ الصلة الأدبية بيننا .

وكان في منتصف عام ١٩٢٥ أن نشرت مي دعوة إلى الاحتفال بعيد المقتطف الخسيني بعد أن أثارت هي نفسها المناقشة في جعل هذا التكريم للمقتطف مظاهرة أدبية كبيرة في الشرق باشتراك الأمم الشرقية فيه . وقد لبى نداءها وأجاب داعيها نفر من أهل العلم والفضل أذكر منهم : الدكتور محمد حسين هيكل وصاحب الفضيلة السيد مصطفى عبد الرازق وتوفيق رفعت وأحمد لطفي السيد والمرحوم أحمد شوقي أمير الشعراء والسيد محمد رشيد رضا صاحب المنار ، والأساتذه : عباس محمود العقاد وإبراهيم المــــازني وسامي الجريديني وغيرهم . واجتمعنا الاجتماع التمهيدي الأول في منزل مي . وألقت علينا خطبة في وجوب التكريم ، ووجوب اشتراك الأمم الشرقية والإخوان البعيدين في المهجر فيه .

وكانت لها في أول اجتماع الكلمة الأولى ، وأذكر من كلماتها قولها

« يتهمون المرأة بأنها تحب أن تكون لها الكلمة الأخيرة دواماً ، فدفاعاً عن بنات جنسى قلت أنا الكلمة الأولى ، لثغت اللثغة الأولى ، ولتكن الكلمة المحكمة الحصيفة النهائية لحضراتكم أيها السادة الرجال : » .

ووافق أحمد لطفى السيد على كلمة مى ، وتألفت اللجنة من صفوة الرجال وخيرة العلماء والأدباء . وشرفتنى بأن عهدت إلى فى تنظيم الحفل وتنسيق العمل مع الآنسة مى ، فقمنا بهذا العمل معاً ، وقدر الله النجاح ليوبيل المقتطف ، وتم الاحتفال على صورة كرمنا فيها الإخلاص فى العلم ، والثبات والتضامن فى الجهاد الأدبى . ولاشك فى أن نصيب مى فى تكريم المقتطف مما لا ينسى وإن طال به الزمن . ومنذ ذلك الحين توثقت العلائق بينى وبين مى ، واستحكمت الصلة الأدبية بيننا ، فقد عرفت فيها ـ فى خلال تنظيم الحفل ـ نشاطاً نادراً ، وجهداً عجيباً . وما رأيتها ـ مع ما اقتضاه ذلك التنظيم من عمل وسهر ـ اشتكت نصباً ، أو ملت تعباً ، أو وهنت لها قوة ، أو سكنت لها حركة .

٢ — فسألته : « وهل كانت مى تحتفى بالأدباء فى ناديها احتفاءها بالوزراء ورجال السلك السياسى ، أم كان لهم عندها مقام ثانوى الشأن ؟ » .

فأجاب : كان نادى مى مثال الأندية الأدبية الراقية ، فكان الصدر فيه للأدباء ، والمحل الأول للعلماء ، أما رجال السلك السياسى وأصحاب المناصب الكبيرة فكانوا يغشون نديها ويطرقونه على الغالب بصفة كونهم يسايرون الحركة الفكرية والأدبية ، ويهتمون بما جد

فيها من جديد ، أو ظهر فيها من تطور . وكانت مى فى الحفل الحافل من زوارها ، وفى هذا المزيج المختلف من رواد مجلسها بارعة فى توزيع الكلام ، لبقة فى توجيه الحديث وفسح المجال أمام كل زائر ليقول كلمته أو يدلى برأيه أو يذهب فى الجدال مذهبه ، فلا يشعر أحد فى هذه الاجتماعات أنه غريب على المجلس أو دخيل فيه . ولعل الجميع يذكرون الأبيات التى قالها المرحوم إسماعيل « باشا صبرى :

روحى على دور بعض الحى هائمة كظامىء الطير تواقاً إلى الماء
إن لم أمتع بمى ناظرى غداً أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء

٣ — فسألته : « هل شغلت الأحداث السياسية يوما ما الآنسة مى عن الأدب أم شغلها الأدب كل أيامها عن السياسة ؟ » .

فأجاب : لم تشغل السياسة ميا قط عن الأدب ، وكانت تتحاشى الخوض فى غمارها أو الدخول فى معتركها . ومع ذلك كانت تقرأ معظم الصحف السياسية ، وتتبع أخبار السياسة وتساير تطوراتها ، فإذا جر الحديث فى ناديها إلى السياسة وانساق الزائرون فى تيارها ، وانتقل الكلام من دولة الآداب إلى دولة الأحزاب ، رأيت ميا وقد تحولت إلى الإصغاء ، واتجهت إلى الإنصات ، وأعرضت عن الكلام جانبا . فإذا ما تناولت الأحداث السياسية فى كتاباتها تناولتها من حيث أثرها فى الحركة الفكرية والنهضة القومية لأنها كانت كثيرة الاعتزاز بشرقيتها .

٤ — فسألته : « ما هى أجمل الصفات التى أعجبتكم من مى كفتاة مثقفة لنعرضها على فتياتنا المثقفات » .

فأجاب : جمل الله ميا بصفات كثيرة ووهبتها الطبيعة بسخاء ، ولعل ما يجمل بفتياتنا المثقفات أن يأخذنه عن مى شغلها بالدرس والتحصيل من غير إهمال واجباتها الأخرى، والعمل الدائم على استكمال ثقافتها من جميع مناحى النشاط الفكرى ، والتمسك بعاداتنا وتقاليدنا وأخلاقنا الشرقية على كثرة ما كانت عليه من مسايرة الحضارة الغربية والاطلاع على مظاهرها .

ولعل هذا الحفاظ من مى على تقاليد الشرق وتمسكها بعاداته يبدو متناقضا مع ثقافتها الأجنبية الواسعة ، ولكن ليس بين الاثنين تناقض، فقد طغت فكرة الشرق على تفكيرها فألزمتها بعادات أهلها وتقاليد قومها . فهى لم تدرس ثقافة الغرب لتنسى قومها ، ولم تطلع على حضارة الغرب لتتخلى عن مقومات قوميتها وخصائص شرقيتها .

٥ ــ فسألته : « للآنسة مى مقال عنوانه « كن سعيداً » ترى فيه السعادة فى الشباب والهرم ، وتراها فى الغنى والفقر ، وفى الصحة والمرض. فهل كانت مى سعيدة على العلات واختلاف الحالات ؟ » .

فأجاب : هذا سؤال تصعب الإجابة عنه لأن مياً لم تكن لتكشف الستار عن مطويات نفسها ومكنونات قلبها بسهولة . وهل عرفت أنت يا صديق إنسانا كان سعيداً على العلات واختلاف الحالات ؟ وهل يظل الإنسان إنساناً إذا لم يتألم ويشق ؟ على أنه قد تكون فى الشقاء لذة كما تكون فى السعادة . وما قيمة الحياة إذا جرت على نظام واحد ، ونسق رتيب ؟

وأين إذن حلاوات الجدة بعد الحرمان ؟ ولذاذات الهدوء بعد ثوران ؟ وقد يكون الإنسان سعيداً فى هرمه كما يكون فى شبابه . ألم يقل المتنبي :

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

٦ — فسألته : « هل كانت ثقافة مى آتية من اطلاعها على الأدب الحديث ومتابعتها للحركة الأدبية المعاصرة ؟ أم استكملت عناصر ثقافتها بدراسة الأدب العربى القديم ؟ » .

فأجاب : الثقافة عند أمثال مى الذين يقرأون ويطالعون كثيرا متعددة المصادر . على أنه يمكن القول إجمالا إنها كانت أكثر شغفاً بالاطلاع على الأدب الحديث ومسايرة الحركة الفكرية والأدبية المعاصرة عند مختلف الأمم الشرقية والغربية .

ولا يعنى ذلك أنها أهملت القديم ، فقد طالعت كثيراً فى أدب الإغريق والرومان - أدب أثينا وروما ، وكانت متتبعة الأدب العربى الحديث وخاصة أدب المهجر .

٧ — فسألته : « هل كانت مى ممن يفرهن الثناء ويعجبهن الإطراء ؟ وهل كانت تزهى بما تكتب أو تعجب بما تنشىء ؟ » .

فأجاب : دعنى أطرح عليك سؤالا بدورى :

هل تعرف أنت ياصديق أحدا لايستطيب الثناء ولايستلذ الإطراء ، ولا سيما الأديب إذا رأى أنه يضرب على وتر قلبه فتهتز له أوتار القلوب ، ويترجم عن عواطفه فتتحرك له عواطف الآخرين ؟ ! .

إن فى ذلك أكبر تعزية للكاتب ، وأعظم أجر يتقاضاه عن عنائه الدائم وجهده المتواصل وليله الساهر وصباحه الباكر . وإذا كان يتألم فألمه لأنه لم يوفق إلى إبراز فكره وشعوره كما يريد. غير أن هذا الرضى وهذه الغبطة يجب ألا يبلغا مبلغ الغرور ، ويصلا إلى حد الاختيال . ولم تكن مى من الغوانى اللائى قال عنهن شوقى : ( والغوانى يغرهن الثناء ) .

٨ — فسألته : « ما رأيكم فى رسائل مى » .

فأجاب : رسائل مى يجب الاحتفاظ بها لأنها نوع جميل من أدب الرسائل فى الأدب العربى ، ففى الأدب الفرنسى رسائل لأمثال فلوبير وڤولتير وغيرهما ، وفى هذه الرسائل تستطيع دراسة الكاتب أكثر من دراسته فى مؤلفاته. وعندى لى بضع رسائل أعتز بها لأنها أثر باق من آثارها . ولقد رأيت فيما رأيت من مخلفاتها ظرفاً خاصاً برسائل ولى الدين يكن .

ورأيى أن تجمع رسائلها إلى من اتصلوا بها ، ورسائل المتصلين بها إليها ، وتنشر فى كتاب خاص ، ففيها ولاشك ثروة كبيرة ، وتراث أدبى نفيس .

رحم الله مياً ، لقد كانت على اطلاع واسع الحدود ، فسيح المعالم، وكانت شخصيتها تثب مستقلة من خلال أفكارها وكتاباتها . فما قلدت كاتباً ، ولا حاكت مؤلفاً . ولكنها ترجمت خلجات نفسها ، ووحى ضميرها ، وسر شعورها . وكانت رفيعة فى نقدها ، رقيقة فى مخالفة رأى غيرها . فما آذت شعوراً ، ولا جرحت إحساساً .

## الدكتور منصور فهمي

الدكتور منصور فهمي مدير لدار الكتب المصرية(١) ، تلك الدار التي اجتمعت فيها كنوز الفكر العربي ، وانتهى إليها مذخور الآداب ، ومتنخل الأفكار ما بين مطبوع ومخطوط . وقد كان الدكتور قبل ذلك أستاذاً في الجامعة المصرية وله تلاميذ كثيرون استفادوا بعلمه ، وانتفعوا بأدبه . وله مكان ملحوظ في عالم الفكر العربي ، وهو بغير شك — إلى جانب ناحيته الفلسفية — من زعماء الأدب في العصر الحديث .

وقد أشار الدكتور تشارلس آدمز مؤلف كتاب « الإسلام والتجديد في مصر » إشارة طيبة إلى الدكتور منصور فهمي في خلال كلامه عن الجيل المعاصر من المحدثين . وأشار إلى كتابه « خطرات نفس » بأنه مقالات تكشف عن خلق ورقي ورعاية للدين وتهكم بالمحافظة الجامدة واحترام لحرية الفكر ولحق الفرد في استخدام مواهبه العقلية . عرف الدكتور منصور فهمي كثيراً عن مي ، وقرأ كتبها ومقالاتها ، وأعجب باثنتين فيها : أسلوبها المصقول وشرقيتها المتحمسة . والحديث إلى رجل مثله — في إيمانه بما يعتقد ، ومصارحته بما يرى ، وفي متانة خلقه وتقديره للقيم الأخلاقية العالية — مما يحلو على الأذن ويطيب على القلب .

وفي كل إشارة من إشاراته في عرض الحديث ، وفي كل كلمة من كلماته قوة كامنة . . فهو محدث قوي الإيمان بما يقول ، شديد الثقة بما يذهب

(١) كان رحمه الله مديراً لدار الكتب المصرية وقت هذا الحديث . وقد سعدت بصحبته في مؤتمر الأدباء الرابع بالكويت سنة ١٩٥٨ حيث كنا من أعضائه .

إليه . يمضى فى الحديث أول ما يمضى على فطرة سمحة جميلة وطبيعة سهلة لينة : لا يُستبهم عليه لفظ ، ولا يشكل عليه تعبير ، ولكنه قد يضطر أحيانا إلى الوقوف وقفة قصيرة ليبحث عن كلمة مناسبة أو لفظة موافقة أو للعدول عن تعبير إلى تعبير ، وهنا يرتفع صوته ويزداد قوة حتى لتحس أن كل جارحة من جوارحه تتكلم ... وكان حديث الدكتور معى طويلا لذيذاً ، قطعته فترة طويلة لصلاة الجمعة . فإذا بنا ننتقل من مكتبه فى دار الكتب إلى مسجد جماعة الشبان المسلمين التى لها من جهاده نصيب . وإذا بنا معاً أمام الله فى خشوع المؤمن ، واستسلام المسلم ، وإذا الدكتور يجلس إلى ما بعد الصلاة فى المسجد ليستمع إلى كلمة سواء يقولها واعظ دينى .

ثم تطول الكلمة ويطيل الواعظ . . وقد يمل بعض السامعين ، وقد ينصرف بعضهم وينتشرون فى الأرض يبتغون من فضل الله . . . إلا منصور فهمى . فهو باق وأنا معه حتى يفرغ الواعظ من عظته وينتهى من كلمته ، فيتقدم إليه الدكتور ويهنئه على حسن توفيقه . ونعود بعد الصلاة نستأنف الحديث عن «مى» فى ركن مشمس من أركان القاهرة . وهناك فى ذلك الركن البعيد يفيض الحديث ، وينتقل من مسألة إلى مسألة ، ومن سؤال إلى سؤال ، ولكل سؤال عند الدكتور جواب . . .

* * *

سبحان الله ! كلمة سمعتها من صديق الأستاذ أحمد حسن الزيات محرر مجلة الرسالة الغراء ، وكنا ضيوفاً على المرحوم الدكتور منصور

في بيته الجميل بالريف في رهط من العلماء والأدباء . ونودى — بعد الغداء على مائدة كريمة سخية ـ لصلاة العصر ، فإذا الدكتور منصور يتوضأ ، وإذا بنا نستعد جميعاً للوقوف في صفوف مستوية خلف أحد الشيوخ الأجلاء .

* * *

وبعد الصلاة يلتفت إلىّ أخي الأستاذ الزيات قائلا : «سبحان الله !. منصور فهمي الذي أثارت رسالته في جامعة السوربون عن المرأة في الإسلام ثائرة الناس عليه ، يقف للصلاة ، ويحرص عليها في حينها فلا يجزيء عنده في الصلاة القضاء عن الأداء ؟ ! » .

فأرد عليه قائلا : « ياسيدى إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » .

وفي الساعات الطويلة الممتعة التي قضيتها مع الدكتور منصور فهمي للتحدث إلى قراء المقتطف عن «مي» ذكرت كلمة الزيات وقد تردد في أذني صداها فقلت : سبحان الله : منصور فهمي الذي قضى في فرنسا بضع سنوات ، وشاهد الغرب ، وتعلم على أساتذة الغرب ، ودرس فلسفة الغرب ، وقرأ كثيراً من كتب الغرب ، يعود إلى الشرق الروحاني السامي روحانيا ساميا ، ويؤمن بمثله العالية ، وقيمه العظيمة . ويرجع إلى الشرق رجلا محافظاً في تجديد ، مجدداً في حفاظ ، فيتحدث عن شرقية « مي » ، وعن محافظتها ، وعن اعتزازها بشرقيتها فكأنما كان يتحدث عن نفسه ، وعن شرقيته ، وعن حفاظه .

* * *

كان حديث الدكتور منصور فهمي صدى لأخلاقه القوية ، ورجعاً لروحه الشرقية المعتزة بكل مافي الشرق من مثل عالية ، وفضائل سامية .

١ — سألته : « ما رأيكم فى مى الكاتبة ، ومى الصحافية ، ومى المحاضرة ؟ » .

فقال : إننى أعد الطريقة التى جرت عليها مى فى كتاباتها مما يصح أن يكون مثلا للكتابة الراقية . لأن ميًّا كانت تمكن لما تكتبه بشتى الأفكار العالية ، والمعانى الشريفة التى خلصت لها من ثقافة عريضة واسعة ودراسة طويلة جادة . ولم تكتف مى بالفكرة المتمكنة ، والمعنى الدقيق والرأى المنخول ، بل كانت تعنى فوق ذلك باختيار الألفاظ الملائمة ، والعبارات الموائمة لتتساوق هذه الألفاظ المتآلفة المتجانسة فى سلم موسيقية تتردد فى أذن السامع أو القارىء رنينا موقعا ، ولحنا مؤتلفا ، فلا يحس نبواً فى لفظ ، أو خشونة فى تعبير .

ولقد كان لهذا الأسلوب المتميز ، المختارة ألفاظه ، المنمقة عباراته ، جرس جميل فى أذن السامع ، ووقع حسن فى نفس القارىء ، وكثيراً ما كانت توفق مى فى هذا السبيل .

ولقد أعجبت بالآنسة مى محاضرة كما أعجبت بها كاتبة ، فقد كانت فى ذلك المضمار مجلية ، ولا أعدو الحق إذا قلت أنها كانت محاضرة من أرقى طراز وأعلى غرار . ولعل أسبابا كثيرة اصطلحت على تفوقها فى ذلك الميدان ، فقد كان لها من عذوبة صوتها ، وحسن أدائها ، وحلاوة إلقائها ، ووسامتها وحسن سماتها معين على ذلك . وكانت تميزها حين تقف للخطابة فى حفل أو المحاضرة فى جمع ، ثقة بنفسها ، واعتداد بشخصيتها ، فما عرفت أنها تهيبت منبراً ، أو خشيت موقفا ، أو غشيتها سحابة من جبن ، أو جللتها غمامة من خوف . بل كانت دائما الواثقة الشجاعة .

أما مى الصحافية فلا علم لى بهذا ولم يتح لى أن أختبرها محترفة للصحافة أو مبرزة فى فن هذه الصناعة ، فأنا أعتقد أن الصحافة فن خاص له مقتضياته وأساليبه .

٢ — فسألته : « هل تذكرون عن مى الطالبة بالجامعة المصرية القديمة ما يصح أن يكون مثلا للطالبة بالجامعة المصرية الحديثة ؟ » .

فقال : أود لو كان عندى عن مى الطالبة بالجامعة نبأ أقصه عليك ، فقد يسرنى أن لو أتيح لى أن أكون أستاذها فى ذلك الحين وأن تكون تلميذتى ، ولكننى كنت بعيداً عن الجامعة فى ذلك الوقت ( فقد كان عضوا بالبعثة المصرية فى فرنسا ولما عاد بعد إتمام دراسته وإنجاز رسالته لم يتصل بالجامعة مباشرة ) .

٣ — فسألته : « هل تعتقدون أن ميا نجحت فى أداء رسالتها الأدبية ، وإذا كان ذلك فما هى أسباب نجاحها ؟ » .

فأجاب : أعتقد أن النجاح كتب لمى فى أداء رسالتها الأدبية . ذلك لأن ميا عاشت فى عصر تقدمت فيه النهضة النسائية من حيث فك القيود وكسر الأغلال التى تقيدت بها المرأة فى هذا الماضى القريب . ومع أنها هى نفسها انطلقت من هذه القيود استجابة لداعى التطور ووفقاً لحاجات العصر التى كانت لا بد أن تحلها من هذه الأغلال وتفكها من هذه القيود ، فإنها بالرغم من ذلك دعت بنات جنسها ألا يتمادين وراء هذه الحدود وألا يسرفن فى الاندفاع والتهور ، فأرادتهن على ألا يبالغن فى الكفاح السياسى ، كما أرادتهن على ألا يضيعن حق الأنوثة ، أو يغفلن واجبات الأمومة .

فكانت رسالتها فى الحق دعوة مخلصة صريحة لأخواتها فى الجنس ، وزميلاتها فى الأنوثة. وكان سبيلها فى الدعوة الكتابة ، فهى كفتاة كاتبة قد خصصت شباة قلمها لنشر دعوة آمنت بها وحرصت عليها ودافعت عنها بإخلاص وصدق . فهى من هذه الناحية قد نجحت وأدت رسالتها ـ كامرأة ـ فى حسن بلاء ، وصدق نضال .

ولعل ميًّا نجحت فى هذه الدعوة لأن المتزنات من النساء ممن أصبن حظاً غير قليل من المعرفة ، وأدركن ما كن يطمعن فيه من الثقافة والتحرر كن يرين ما رأت مى ، وينزعن فى الاعتدال منزعها ويذهبن إلى ما ذهبت إليه من الحفاظ وعدم التفريط فى خصائص المرأة أو التهاون فى ميزاتها ، ويملن إلى الاحتفاظ بسر أنوثتها وقدسية أمومتها .
فضلا عن أن « ميا » الشرقية بلحمها ودمها ، والتى هى أدنى إلى أن تصل كتابتها إلى الشرقيات ، قد يساعدها فى قبول ما كانت تؤمن به وتدعو إليه تلك النزعات الشرقية الكامنة والوراثة القديمة التى لا أشك فى أنها أصون لمكانة المرأة من النفوس ، وأحفظ لمنزلتها من حيث السمو والكمال .

( وهنا اشتد تحمس الدكتور لفكرته وبان ذلك فى صوته الذى كان يهدر كالسيل ، ثم تابع كلامه قائلا ) :

نحن نريد المرأة كما وصفها امرؤ القيس الشاعر الضارب فى مجاهل البادية بقوله : ( وبيضة خدر لا يرام خباؤها ) .

نريد فى المرأة معنى التصون والتحصن الذى وصف الله به الحور العين فى الجنة بقوله : ( كأمثال اللؤلؤ المكنون ) .

نريد فى المرأة معنى التحفظ لا معنى التبذل ، حتى يصح معنى القصر فى قوله تعالى : ( حور مقصورات فى الخيام ) .

ولعل من أسباب نجاح دعوة مى استعداد الشرق الوراثى ، والاستعداد الطبيعى فى غريزة المرأة — هذا الاستعداد الذى ينزع بها دائماً لتتملك بما آتاها الله من رقة ، وحباها من حنو ، وأودع فيها من ضعف هو القوة بعينها ... لقد سلح الله المرأة بسلاح يشبه الضعف من غير أن يكون ضعفاً . ففى قوته من الرقة والدعة واللطف والأنوثة والجمال والحرمة المقدسة ما يجعل للمرأة مكاناً قدسياً ، ومحلا فيه من جلالة التقديس ، وطهارة التنزيه ما ينبغى أن يحول بينها وبين الامتهان والابتذال . المرأة أم الأبناء ، ومستودع الذرارى ، فلا ينبغى العبث بحرمتها . المرأة فى مكان السمو ، ومنزلة العلو ، جعلها الله موضع إرادته ، وسر مشيئته فى تنمية الوجود ، وحفظ النسل ، واستمرار النوع ، فهل يليق بعد ذلك أن تحل حرمتها ، أو تمتهن قداستها ؟

٤ — فسألته : « ما هى أجمل النواحى الأخلاقية التى كانت تعجبكم من مى ؟ »

فقال : لقد كانت نواحى مى كلها جميلة معجبة ، فلا أدرى أيها أذكر وأيها أدع . كان فيها لطف وكياسة ، وكانت مصقولة الطباع ، رقيقة الحاشية ، حتى لتكاد تفيض رقة . وأخص ما يعجبنى منها نزعتان : الأولى أنها كانت متحمسة لكل ناحية من نواحى الإحسان ، فكانت أحسن الله إليها — على فقرها وقلة مواردها تتحمس للمعروف ،

وتتسابق إلى الإحسان . ومما أذكره لها أنها كانت فى كل حفل من محافل الإحسان تشترك بما تستطيع من مال أو مقال .

ولو قد آتاها الله بسطة فى المال وسعة فى الرزق ووفرة فى الغنى لكان لها فى عالم الخيرات والإحسان مكان يشار إليه بالبنان .

والنزعة الثانية هى نزعتها الروحية الدينية الراقية ، فما كنت أعرف عنها استهانة بما فى الأديان من خير وجمال ، أو بما فى الروحانيات من سمو وجلال .

٥ ــ فسألته : « يتحدثون عن اعتزاز مى بشرقيتها واعتدادها وفخرها بهذه النسبة على الرغم مما أتيح لها من ثقافة غربية ومعارف أوربية فهل عندكم من ذلك أنباء ؟ » .

فأجاب : كسبت مى من الغرب طرائق البحث وطرائق الاتجاه ، أما المثل الشرقية العليا فقد وجدت مى فيها كفايتها وحاجتها وشفاء ما فى نفسها من توق إلى المثل الرفيع ، والمثال الكامل . ولا شك أن مثل الغرب العليا على ما فيها من خير ـ تكاد تكون محصورة فى نتائج مادية آلية صناعية علمية . على أن هذه المثل الغربية على ما فيها من تغلب المادة وتحكم الآلة لا ينكر وجه الخير فيها . أما المثل الشرقية فهى مثل إنسانية روحية سامية .

هى مثل الحب والفناء فيه .

هى مثل الدعوة إلى الخير والاستمرار فيها .

هى مثل الروح تسمو على سفاسف المادة . وتتعالى عن مواطىء الأجسام .

هذه المثل السامية وجدت من قلب مى الفتاة الشرقية استجابة أكثر من استجابتها إلى صلصلة الماديات وجرس الآليات .

ولذلك هامت مى بالشرق ، ونادت بالروح الشرقية ، ونبهت الراقدين أو السابحين فى الأوهام إلى الاستجابة لهذه الدعوة .

وكانت دعواتها وصيحاتها تتردد فى كتاباتها عن الشرق ، ولقد اعترفت مى بضعفه المادى وفقره ، وإقفاره من المظاهر السائدة الخلابة التى تظهر بها المدنية الغربية فى ثوب موشى مزركش . ولكن مع اعترافها بهذا الفقر فى الشرق ، وتسليمها بالإقفار السائد فى مظاهره البادى فى نواحيه ، فقد وجدت أن وثباته الروحية وتطلعه إلى معانى الخير ومعانى الرحمة ومعانى الجمال وأن نزوعه إلى السمو الروحانى هو أسمى بكثير من نزوع الغرب إلى معانى القوة ومظاهر المادة .

ولعل هذا يتساوق مع طبيعة الأنوثة الرحيمة ، طبيعة المرأة الرقيقة ، والإنسانية البارة الخيرة التى تمثلت فى مى بشراً سوياً .

وإذا كنا لا ننكر على مى ثقافتها الغربية ، ولا ننكر عليها استفادتها منها من حيث الطريقة والاتجاهات ، فإننا لا ننكر عليها أيضاً حقها — كامرأة وكشرقية — أن تهيم بالشرق الذى قالت فيه :

« إنها السماء التى أوحت بأعظم الرسالات إلى الإنسانية ، وأظلت تفتح الحياة وسيول الوحى والنبوات . . لأنك عينت — أيها الشرق — لتكون الوطن الأول للعبقريات الأولى وللأبطال والملهمين !

... نهوضاً أيها الشرق ! حولك يناضل الأقوياء ويفوزون ممجدين .

نفوسهم فى تأليه الغلبة ! فهلا سمعتهم مع ذلك يئنون فى الظلام : « إلى متى ننتظر الفجر الذى سيسطع ؟ » .

. . . أنت برج الضياء ، أيها الشرق !

أنت موزع أشعة الحياة ! »

فمى كانت تحب الشرق وترغب فى مثله ، وتتأثر بطرائق الغرب من غير اندفاع فى تياراته ومن غير إغفال للنواحى الشرقية السامية . وهذا أكبر على دليل أنها لم تكن مقلدة تقليداً أعمى ، فقد عرفت كيف تستفيد من الغرب من غير أن تهمل الروح الشرقية .

٦ — فسألته : « « ما هى أجمل ذكرياتكم عن مى ، وما آخر رؤيتكم لها وعهدكم بها ؟ » .

فأجابنى : لعل أبقى آثار مى فى نفسى أنها كانت تحدثنى عن بعض «خطراتى» حديث الفاهم لها المدرك مراميها ومغازيها . وكانت تصارحنى بإعجابها بتلك الخطرات ، وكانت هذه المصارحة تتكرر كلما لقيتها ، عادلنى على ذوقها الفنى واتجاهها الفكرى . وكنت أرتاح إلى ما تبديه من إعجاب ، لاظفراً بالثناء أو طرباً للإطراء ، ولكن لشىء أسمى من ذلك قيمة وأبعد مرمى ، لأن هذا الإعجاب الذي كنت أرى فيه صدقه وإخلاصه وبعده عن زخرف القول وزور الرياء كان يدل على الأقل أننا توافقنا فى المعانى التى نكتب فيها والمذاهب التى نذهب إليها .

لقد كانت مى صادقة فى ثنائها على أسلوبى وكتابتى ، وكنت أعرف فيها هذا الصدق وأتبينه ، وأحسه فى كل كلمة تقولها لى ، أو عبارة

تكتبها إلىّ ، فقد كتبت إلى بما ينم على هذا فى إحدى رسائلها الخاصة .

وآخر ذكرياتى عنها أنها زارتنى فى دار الكتب بعد عودتها الأخيرة من لبنان ، وكان فى صحبتها أميرة لبنانية فاضلة ، وأخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ، وذهبنا فى القول مذاهب شتى ، إلى أن جر الحديث ـ وهو ذو شجون ـ إلى شعورى فى فقد ولدى ( وهنا بدا التأثر على الدكتور ) . وكنت أشعر فى عرض الحديث أن مياكانت تشاطرنى مخلصة هذا الإحساس العميق ، فكأنها كانت أرسلتها الأقدار فى هذه الساعة لتخفف الوجد الذى أجد حينما أثيرت ذكرى ولدى .

ثم أخذت تتجه فى كلامها اتجاهات هى إلى الفلسفة أدنى منها إلى العاطفة ، وهى إلى الحيرة فى فهم أحكام القضاء والقدر أقرب منها إلى التسليم بالواقع المحتوم ، والقضاء المبرم .

وكانت مى فى لبنان فى عزلة قاسية ، ووحدة مضنية بعد أن اصطلحت عليها الآلام والأحزان ، وحالفتها الوساوس والأوهام ـ مما يعرف القراء الأفاضل نبأه فى حينه ـ وكنت أنا أزور لبنان فى ذلك الحين ، فرغبت فى لقائها ، ولكنها كانت فى عزلتها لا تلقى أحداً ، ولا تقابل إنساناً .

وحدثنى أمين الريحانى بعض الحديث عنها ، وأخبرنى أنها كانت قريبة منه فى « الفريكة » .

وأود هنا وأنا فى معرض الحديث عن ذكرى مى أن أقرن ذكراها فى عزلتها بلقائى لأمين الريحانى الذى ترك فى نفسى أثراً طيباً .

ولقد مات الريحانى وسار إلى الغاية التى يسير إليها كل حى ، وحمل على الآلة الحدباء التى يحمل عليها كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... وماتت بعده مى كما تموت الزهرة بعد ما كانت متفتحة بالأمل ، فواحة بالشذى ، مخضلة بالطل والندى .

ولو عاش الريحانى بعد مى ، وقدر له أن تستأنى خطواته إلى الأبدية بعد خطواتها فلعله كان أولى الناس بالحديث عنها ، وأجدرهم بأن يقص على الأدباء سيرة من جهاد مى وكفاحها فى سبيل تحقيق مثلها العالية .

أنت تسألنى عن أجمل ذكرياتى عن مى ولم تسألنى عن أحزن ذكرياتى عنها ، كأنك تناسيت ما تثيره الذكريات الحزينة فى نفوسنا من لذاذة الذكرى ، لقد كنت فى لبنان ضيفاً على أمين الريحانى ساعة من الزمان كنت أنا وزوجى وابنى فيها فى بيته وضيافته ، وحدثنا الريحانى عن مشاهداته ورحلاته ، وحدثنا عن ذكرياته فى بلاد العرب ، وحدثنا عن مى وعزلتها واستيحاشها ، فكانت ساعة امتزجت فيها أجمل المحادثات بأحزن الذكريات ...

٧ ــ فسألته : « أى نوع من الكتب كانت مى تقرأ ، وإلى أى حد بلغ شغفها بالمطالعة ؟ » .

فأجاب : لعل ميًّا نفسها أجابت عن الشق الأول من سؤالك فى مقدمة الكتاب الذى ترجمته باسم (ابتسامات ودموع) . فقد أشارت فى المقدمة إلى النوع من الكتب الذى تحبه وتخصه بالإيثار . أما شغفها بالمطالعة فقد كان كثيراً لا حد له ، ولعل هذا هو السر فى اتساع آفاق

تفكيرها، واتساع المدى أمامها . وكانت شهوة المطالعة عندها لا تقف عند حد ولا تنتهى إلى غاية ، ولهذا درست كثيراً من اللغات الأجنبية وتمكنت منها ، وكانت تلتهم الكتب كما يلتهم النهم لقمة من الزاد ، أو كما يزدرد الجائع كسرة من الخبز ، وكان لها مكتبة خاصة تعتمد عليها وترجع إليها أكثر من رجوعها إلى المكتبات العامة .

وكانت مى تعتز بمكتبتها الخاصة اعتزازاً كبيراً ، وتعتنى بها عناية كثيرة ، وتزودها كل يوم — على حسب مواردها — بما يظهر من كتب ، ويجد من تأليف . ولا أعلم مصير هذه المكتبة بعدئذ .

٨ — فسألته : « عرفتم ندى مى أو صالونها الأدبى ، ألا ترون أن يكون مثلا للأندية الخاصة بدلا من تلك التى يكثر فيها الكلام واللغو والتأثيم ، ويشيع القيل والقال ؟ » .

فأجاب : لا شك أن منتدى مى أو « صالونها » كان حافلا بنواحٍ أدبية ، وممتلئاً بأشتات من العلم وألوان من الثقافة ، ولكنى كنت أتمنى أن يكون هناك أندية « صالونات » نسائية بحتة ، يشيع فيها الأدب والتفكير الراقى على ما ينبغى أن يكون بين المتأدبات المثقفات من الآنسات والسيدات ، والبنات والأمهات ، كما تكون هناك أندية أدبية بحتة تجمع بين الشيوخ والشيوخ أو بين الشباب والشباب ، أو بين الشيوخ والشباب ، ويشيع فيها كذلك الأدب الراقى الرفيع من غير حاجة إلى كثرة الاختلاط . أما إذا اقتضى الأمر الاختلاط فليكن بمقتضياته وظروفه ومكملاته ، بحيث لا يندس فى هذا الاختلاط من لا حصانة تعصمه من كل ما يخل بآداب الاختلاط الراقى ، ليس بالنسبة

إلى الآداب الظاهرة فقط ، بل فى الدقائق الخفية ، وفيما يبدو عليه من القول والإشارة والعبارة ، وفيما يخطر على خفايا النفس من التصورات الآثمة والمضمرات السيئة .

ولقد كان منتدى مى راقياً لأنها كانت راقية بأخلاقها ، سامية شريفة فى أفكارها ، وليست كل فتاة أو سيدة قديرة على أن تشيع فى نديها الخاص ـ لو كان لها ندى ـ ما كانت تشيعه مىّ فى منتداها من أدب ومحافظة . ولعلى لا أعدو الصواب إذا قلت أنه فى العصر الحديث وجدت منتديات نسائية سبقت منتدى مىّ ، حتى أن بعض الأميرات المصريات وهى الأميرة « نازلى » كان يغشى مجلسها أمثال قاسم أمين وسعد زغلول والشيخ محمد عبده .

ولعل مجلسها كان يشيع فيه الأدب الراقى ، وتتناول فيه المسائل الاجتماعية العالية ، وتدار فيه الأحاديث الرفيعة فى ألوان من الأدب ، وأنواع من البحث . فليست مىّ هى البادئة بهذا فى العصر الحديث ، وقد يكون هناك بعض السيدات الفضليات ممن سبقن مياً إلى إنشاء هذه الأندية الأدبية ، ولعل ميا اشتهرت «بصالونها» لأن بابه كان أوسع ، وأنا مما يميلون إلى تضييق هذا الباب .

ولم ينفرد نساء العصر الحديث بهذا ، فقد سبقتهن السيدة الجليلة سكينة بنت الحسين بن على ، وكانت — كما روى صاحب وفيات الأعيان — سيدة نساء عصرها ومن أجمل النساء وأظرفهن وأحسنهن أخلاقاً . وكانت لها نوادر مع الشعراء ومساجلات مع الأدباء ورد ذكرها فى بعض كتب التاريخ والأدب .

## إبراهيم عبد القادر المازني[1]

لم أر فى حياتى «المازنى» قبل هذه المقابلة سنة ١٩٤١ إلا مرة واحدة ، وكان ذلك من عهد غير قريب أيام كانت مجلة ( السياسة الأسبوعية ) فى أول عهدها .

ولكنى رأيت بعد ذلك المازنى — رحمه الله — مرات يخطئها الحصر ويفوتها العد فى مجالسه وفى كتبه ومقالاته وقصصه .

* * *

وكان أستاذنا أحمد الأسكندرى كثير التحدث عن المازنى وخاصة عن نصاعة أسلوبه العربى مع بعده عن التكلف ، ودقة تصويره لدقائق الأمور وصغائر الأشياء مما لا يتاح لكثير من الكتاب . وشهادة أستاذ جليل كالمرحوم الشيخ الأسكندرى المتمكن من اللغة العربية ، الواقف على كثير من أسرارها وخصائصها ، وفقهها وأساليبها ، لها قيمتها وأثرها . ولم يكن الشيخ ممن يعجبون أدنى إعجاب بالمذاهب الأفرنجية فى الكتابة أو ممن ينزعون إلى منازع الركاكة باسم التجديد ، والله يعلم أنهم ضيعوا قديمهم فلم يبق لهم جديد . . .

---

(١) تخرج المازنى فى المعلمين العليا واشتغل بالتدريس ثم الصحافة فالتأليف . وامتاز بقدرته على الترجمة من الإنجليزية إلى العربية . فهو من شيوخ النقلة والمترجين فى عصرنا هذا . كما امتاز بكتابة القصة والمقالة الأدبية ، وله أسلوب بارع فى السخرية والفكاهة — توفى بمصر سنة ١٩٤٩ .

والمازنى كان معلماً قبـــل أن يتخذ الكتابة صناعة له ، ولعله كان مدرساً موفقاً كما وفقه الله فى أدبه . وقد ذكر العقاد فى مقال طريف له بالرسالة أن المازنى (كان مسيطراً على التلاميذ ، قلما يحتاج إلى معاقبة أحد منهم لخروجه على نظام الحصة، لأنه كان مهوباً بينهم قديراً على أخذهم بمهابتهم إياه قبل خوفهم من عقابه) .

والحق أن المازنى كان على صغر جسمه كبيراً فى قلبه ، مهوباً فى طلعته ، وكان له فى الإلقاء والحديث طريقة جذابة ، فهو يغرى سامعه بمتابعته ، ويتنقل به من معرض إلى معرض فى إبانة وإطالة ، فإذا أوجز ود جليسه أنه لم يوجز .

وكان المازنى يقول الشعر ، وكان كبيراً فى مجاله وميدانه ، وله فيه مذهب معروف ، وله فى الشعراء رأى خاص ، ولكنه هجر هذه الروضة الجميلة التى تسعد النفس فى أحزانها ، وانصرف إلى الكتابة وإلى السياسة ، وشغلته دنيا الناس عن دنيا الشعراء .

والعقاد والمازنى اسمان متلازمان يستدعى ذكر أحدهما ذكر الآخر . ولعل لاشتراكهما القديم فى نقد بعض الشعر الحديث أثراً فى ذلك . ومن الغريب أن يذكرهما الدكتور تشارلز آدمس فى كتابه على الولاء متلازمين حين يعرض للكلام على تأثير الشيخ محمد عبده فيهما .

كانت فرصة الحديث مع المرحوم المازنى من أسعد الفرص التى ظفرت بها فى الحديث عن «مى» إلى قراء المقتطف . ولقد تشعب الحديث ألواناً وفنوناً وأخذ كل مأخذ ، وتخللته لحظات طوال أو قصار ، كان يستعرض فيها الأستاذ بعض ماضيه ، ويقص بعض ذكرياته فى صباه

وشبابه ، ( وفى الطريق ) وفى مدرسته ، وفى الحظ الذى كان دائماً معه على وفاق !!

والمازنى يبدو فى كتابته ، كما يبدو فى حديثه شديد الحنين إلى الماضى ، فهو وفى له فى أى مظهر كان ، نزاع إليه . ولكن هيهات أن يعود :

فليست عشيات الحمى برواجع　　　عليك ولكن خل عينيك تدمعا

* * *

١ — سألته : « كيف عرفتم مياً ، وما هى ذكرياتكم التى تحفظونها عن أول لقاء ؟ »

فأجاب : « لا أذكر متى عرفت فقيدتنا العزيزة مياً أو كيف عرفتها فما يبقى فى ذاكرتى من شىء إلا صورته ، وأكبر ظنى أنى عرفتها بعد أن أصدرت مع صديقى الأستاذ العقاد كتاب « الديوان » فى النقد . على أنى لست واثقاً ، ولعلى عرفتها بعد صدور كتابى « حصاد الهشيم » . وكل ما أذكره — لأنه صورة وذاكرتى « فوتوغرافية » — هو أنى تلقيت منها ذات يوم بطاقة مكتوبة بخط جميل تدعونى فيها إلى زيارتها فى يوم ثلاثاء . أما أى ثلاثاء ومن أى شهر أو عام فعلمه عند الله ! وقد استغربت يومئذ حسن الخط ، وتوهمت أنها استكتبت أحد الخطاطين ، وعددت هذا من التكلف الذى لا داعى له . ولما كنت أمقت التكلف وأنفر من الاجتماعات الكبيرة فقد زهدت فى الزيارة التى دعيت إليها ووطنت نفسى على التخلف . ومن حسن الحظ أنى نسيت أن أبعث إليها برد أو اعتذار . وأحسب أن الأستاذ العقاد هو الذى هون على الأمر وشجعنى على قبول

الدعوة وعرفني أن هذا خطها لا خط خطاط ، فلم أجد مناصاً بعد ذلك من تلبية الدعوة الكريمة .

وأقول «الكريمة» لأني كنت سيء الأدب معها أو على الأصح قليل العقل . ذلك أنها كانت أهدت إلى كتابيها (الصحائف) و(ظلمات وأشعة) فألفيت نفسي نافراً غير مستعد لحسن الرأي فيهما، ولعل كلمة (الظلمات) هي التي ساء وقعها في نفسي ، فكتبت بضعة فصول في الأخبار — نشرت بعد ذلك في ( حصاد الهشيم ) عن (الواجب) و (الكتب والخلود) و ( الطبيعة عند القدماء والمحدثين ) ولم أتناول الكتابين بأي بحث وإنما كتبت ما كتبت لمناسبة إهدائهما إلى ، وكانت هذه قلة ذوق على التحقيق. وكان إهمال إبداء الرأي لايخلو من معنى الاستخفاف ، فبأي وجه ألقاها وقد صنعت ذلك . . ولكنها غفرت ذنبي وأغضت عن قلة ذوقي، وعسى أن تكون قد حملت ذلك مني على محمل الغرور أو الطيش أو الحماقة التي يركب الشاب بها الحياة ، ولولا أنها صفحت عني لما دعتني . فمن الإقرار بالذنب والاعتراف بالخطأ وما ينطوي على معنى الاعتذار أن ألبي الدعوة . وحدثتني نفسي وقد دارت فيها هذه المعاني أنها لا بد أن تكون مرهفة الإحساس عظيمة مروءة القلب رحيبة الأفق ، وأنها على كل حال لا بد أن تكون ظريفة فتوكلت على الله وذهبت . . . !

وأعترف أني دخلت مستحيياً ووقفت على الباب متردداً ... متهيباً لقاءها ، مستحيياً أن أحشر نفسي بين زوارها الذين قيل لي إنهم من كل طبقة ، ومتردداً لأني لم أعتد هذه المجالس ، ولأني أعرف من نفسي شدة النفور من هذه الطبقات التي تعد نفسها ممتازة أو عالية أو لا أدري

ماذا أيضاً . على أنى دخلت بسلام فاستقبلتنى هاشة باشة (شاكرة) فتعجبت ولا أظن أنى نطقت بحرف وقعدت حيث أومأت . وكان هناك الأساتذة ـ ومعذرة إذا لم أذكر الألقاب ـ لطفى السيد وخليل مطران ومصطفى عبد الرازق والمرحوم السيدرشيدرضاوابن أخيه محى الدين رضا والأستاذ العقاد وآخرون كثيرون امتلأت بهم حجرات الدار، وكانت المرحومة أمها تساعدها على الترحيب بالضيوف وإكرامهم ، ولا أذكر أنه دار بينى وبينها حديث،وكانت كلما مرت بى تلق لى كلمة تحية أو تكتفى بالابتسام وأنا كالأخرس لاأنبس ببنت شفة،وإذا بهذا الجمع الحاشد يخرج من الحجرات إلى الردهة الفسيحة وإذا بها تقف لتخطب فارتعت ووجمت فما أكره شيئاً كراهتى للخطب ، وقالت شيئاً سمعت منه اسم (ماكس نورداو) فانطلق لطفى السيد يصفق ، فتعجبت لهذا الرجل ولما عددته يومئذ إسرافاً فى التلطف والمجاملة ، ولم أصغ لشىء مما قالت ، ورأيت كثيرين ينهضون شاكرين مثنين ، وصار هذا يدعو ذاك لإلقاء كلمة ، فخفت ! وزادنى رعبا أن السيد محي الدين رضا همس فى أذنى أنه سيدعونى إلى الكلام ، فقلت والله لئن فعلت لأقولن ما يسوء ! ! فما أنا من رجال الصالونات ولست أحسن هذا الضرب من الكلام ، وما جئنا هنا ليثنى بعضنا على بعض ، وعلى أنى لا أعرف لماذا جئنا أو دعينا .. ؟

واتفق فى هذه اللحظة أن مرت بى الآنسة مىّ فحاولت أن أنهض لها فنهتنى عن ذلك ! وعرفتنى أنه غير لازم ، فوجدت لسانى وقلت لها معتذراً من جهلى إنى من عامة أبناء الشعب ولست من رواد الصالونات فأرجو أن تتجاوزى عن أغلاطى ! فقالت بابتسامة وديعة : — لا تقل

هذا الكلام ! قلت : ألا تحبين أن تعرفيني على حقيقتي ؟ قالت : طبعاً . قلت : ثقي إذن أني من أبناء الشعب ولا أستطيع ـ ولا أحب ـ أن أرتقي عن هذه المنزلة ، فتبسمت وهزت رأسها . ولا أدري إلى هذه الساعة أكان هذا منها أسفاً أم رفضاً للتصديق ، وإنما الذي أدريه أني كنت جاداً جداً .

وبدأ الناس ينصرفون وهمّ الأستاذ العقاد وهممت بالخروج ، فأخرتنا واستبقتنا — أستغفر الله بل استبقت أيضا الأستاذ خليل مطران — وجلسنا نحن الأربعة في حجرة الاستقبال الكبرى ، وكان نصيبي منه الإصغاء مطرقا حينا وناظراً إليها حينا آخر ، ومعجبا بها في الحالين ! وإن كنت قد شعرت أني غير فاهم شيئا مما يقال لفرط اشتغـــالي بما في نفسي !

وخلوت بنفسي في تلك الليلة ورحت أفكر فيما رأيت وسمعت ، فأعجبني من الآنسة ميّ أن احتفالها برجال الأدب كان أبين من احتفالها بغيرهم ، وسرني على الخصوص رقتها وتلطفها حين أخرتنا واستبقتنا ، كأنما كان همها كله هو أن تجالسنا نحن لا سوانا . وتذكرت ماكس نورداو وتصفيق لطفي السيد الذي أسخطني ، فراجعت نفسي في سخطي عليه ، وراجعت ماكس نورداو فإذا الكلمة التي استهلت بها كلامها منه معناها أن الاعتراف بالجميل ينطوي على الأمل في دوام هذا الخير ولو انقطع الأمل لكان الأرجح أن لا يكون شكر أو اعتراف بمعروف ، فهي ـ أي الآنسة ميّ ـ تشكر الذين لبوا دعوتها شكراً فيه معنى الأمل في مواظبتهم على الحضور . وكانت هذه براعة منها ، ولم يكن تصفيق لطفي السيد إذن

فى غير محله . ولقد كنت خليقاً أن أصفق مثله لو أنه كانت لى مثل فطنته ، أو على الأقل لو كنت ساعتئذ معنياً بالإصغاء .

ولا أدرى هل عدت بعد ذلك إلى زيارتها أم لم أعد، فإن كنت عدت فقد كان ذلك ولا شك بدافع من الإعجاب والإكبار، وإن كنت كففت فالعلة لابد أن تكون نفورى مما يسمى « الصالون » !

٢ ــ فقلت : «هل تعرفون شيئاً عن رسائل «مى» والمكاتبات التى دارت بينها وبين الشعراء والأدباء ؟ وما رأيكم فى نشر الرسائل العامة منها التى تتعلق برأى فى الأدب ، أوفكرة فى الحياة ، أونقد لمذهب، أو تعليق على كتاب ؟ »

فقال : أعرف أن كثيرين من الأدباء كاتبوا مياً وكتبت إليهم ، والذى يعرف مياً لايرى بأساً من نشر رسائلها إلى أصدقائها، فاأحسبها اشتملت على غير آرائهـا فى الحياة والأدب والكتب وما إلى ذلك ، ويصعب جداً أن أصدق ــ إلا إذا قام الدليل على غير ذلك ــ أن مياً كانت تتناول فى رسائلها أموراً شخصيـة . على أنى ممن لا يرون نشر الرسائل الخاصـة ولو كانت بحثاً صرفاً ، وليست مى بيننا حتى يمكن أن تستأذن فى النشر ، ولا أرى من حق أحـد أن ينحل نفسـه هذا الحق .

ويحسن أن أقول إنى لا أخشى أن يكون فى رسائل مى أو رسائل أحد إليها ما يغض من حسن الرأى أوالاعتقاد فيها . والأرجح عندى أن نشرها يعزز مقامها ، ولكنى مع هذا لاأوافق على النشر ، لأن هذا جانب من حياتها الخاصة ولا شأن للجمهور بها .

٣ — فقلت : « سألتنى سيدة أديبة كبيرة عن رأيى أنا فى كتب مى، أوهل سيكتب لها كلها أو لبعضها الخلود؟ فلم أبد لها رأياً خاصاً، ورأيت أن أحيل السؤال بدورى عليكم ! ! » .

فقال : حولتم علىّ سؤالا ألقته عليكم سيدة أديبة كبيرة عن كتب مى وهل سيكتب لها الخلود . والجواب ـ أى جواب ـ لا يخلو من اجتراء على الغيب . على أنى أقول أنى أومن بالفناء فى الدنيا ولا أومن بالخلود لشىء فيها ، فلا الأدب ولا غيره ولا الحياة نفسها ولا الكرة الأرضية كلها ! وتصور يا سيدى أن كل جيل من كل أمة فى كل عصر يخرج طائفة غير قليلة من الكتاب والأدباء والشعراء . وكم عدد من يظهرون فى الأمم جميعاً فى العصر الواحد . . مئات . . وكم عدد من يذكر العالم فى حاضره من عشرات الآلاف الذين سبقونا . . وسيصبح عشرات الآلاف ملايين على الأدهار . نعم ربما بقيت الكتب محفوظة فى دورها فيكون البقاء معناه الدفن ... لا ياسيدى ؟

وأنا أعتقد أيضاً أن العالم سيستغنى عن الألفاظ واللغات فى المستقبل البعيد كأداة للفهم والإفهام ، وسيستطيع بعد مرور أحقاب كافية أن يتخاطب ويتراسل ويتفاهم بموجات يرسلها كما يرسل الآن موجات لاسلكية يذيعها فى أرجاء الأرض فيسمع القاصى والدانى . وحينئذ يستغنى العالم عن الأدب المكتوب كله .

٤ — فسألته : «أترون لو أن مياً عاشت حياتها كلها فى لبنان دون مصر أكانت تبلغ فى ذرى جباله ، وتحت ظلال أرزه ما بلغته فى مصر من مرتبة أدبية على شاطىء نيلها وتحت ظلال أهرامها ؟ » .

فأجابنى : تسألوننى هل لو كانت مى قد عاشت فى لبنان دون مصر أكانت تبلغ ما بلغت من مرتبة ممتازة فى عالم الأدب؟ والجواب نعم ولا، فأما نعم فلأن أدب مى متأثر بتيارين على الخصوص : الأول التيار الذى أوجده اليازجى وزملاؤه ، وعلى هذه الطبقة تأدبت مى على الخصوص وبهم تأثرت من الناحية العربية وإليهم يرجع الفضل فى سلامة أسلوبها ونقائه ، وهذه الطبقة كلها أو معظمها من اللبنانيين . وأما الثانى فهو تيارات الأدب الغربى الذى توفرت على درسه باللغات المختلفة التى كانت تتقنها وتقرأ وتكتب بها ، ترون من هذا أنه كان يستوى أن تحيا فى لبنان أو مصر ، ولكن شهرتها — لو كانت قد بقيت فى لبنان — كانت خليقة أن تكون أقل وفى نطاق أضيق. ويلاحظ فى تاريخ الأدب العربى القديم أن كل من اتصل بمصر فى حياته كان نصيبه من الشهرة أوفر . لا أدرى لماذا . ولكنى أرى أن هذا هو الواقع، ولو اتسع المقام للإفاضة فى البيان لفعلت ، وهو على كل حال باب من القول لا يغنى فيه الإجمال فيحسن الاكتفاء بما أسلفت .

٥ — فسألته : «ما رأيكم فى أسلوب مى وفى طريقتها التى اتخذتها للتعبير عن آرائها وأفكارها ؟» .

فأجاب : أما أسلوب مى فسليم نقى ، وقد أشرت إلى قلة عقلى لما تلقيت كتابيها، ذلك أنى أكره الأسلوب العاطفى أو الوجدانى ،وقد نسيت وأنا أقرأ كتابيها أن الكاتبة امرأة،وأنها لا تكون مخلصة لنفسها وطبيعتها إلا إذا كتبت بروح المرأة ، وأنها بغير ذلك تكون متكلفة ولا قيمة لها. وقد كانت مى امرأة صادقة الأنوثة غير طائشتها ، ومخلصة لجنسها

وطبيعته أعظم إخلاص . وأحسب أنى قد بينت كيف كنت قليل العقل ! .

٦ — فسألته : « مارأيكم فى منزلة مى بين كتاب العربية ؟ ».

فأجاب : الجواب عن سؤالك هذا سؤال مثله : هو أين فى العربية من النساء من يضارعها حتى يكون هناك محل للمفاضلة ؟

## الشاعر خليل مطران

خليل مطران محدث من الطراز الأول ، إن طال لم يملله سامعه ،وإن أوجز ود المحدث إليه لو أنه لم يوجز . وهو شاعر فى نثره، كما هو الشاعر فى شعره . فاللفظ متخير عذب ، والكلمة منتخبة رشيقة ، والبيان مفصل، والمعنى مقسم ، وفى إلقائه حسن يزيد من حسن بيانه ، وفصاحة لسانه. فكأن حديثه — على عمومه — ضرب من الشعر، أو لون من السحر .

ولقد عرف خليل مطران « ميا » كما سيجىء فى عرض حديثه ، فدامت المعرفة واستحكمت الصلة ، واستوثق الود أكثر من خمسة وعشرين عاماً، فى زمان وهنت فيه العلائق،وتراخت فيه العهود والمواثق، فكان « خليل » الخليل الصافى ،والرفيق الوافى ، كما هى شيمته مع كل من عرفوه ، وسجيته مع كل من اتصلوا بأسبابه

ولقد وقفت «مى» منذ أكثر من ربع قرن — وكان ذلك بالضبط فى سنة ١٩١٣ — فى جمع حافل من الأدباء والعلماء ، والكبراء والعظماء ، تكرم « خليل مطران » بمناسبة الإنعام عليه بوسام ، كما ألقت فى ذلك

الحفل كلمة بعث بها « جبران خليل جبران » فكان ذلك أول عهدها بالمواقف ، ومفتتح أمرها فى المجامع والمحافل . فأحسنت الإلقاء ، وكان صوتها كما قال الدكتور طه حسين عذباً لا يكاد يبلغ الأذن حتى يصل إلى القلب .

بعد ذلك العهد البعيد وقف مطران يدفع ثمن ما أسدت إليه مى من الجميل . قلت له :

« أسألكم بوجه عام عن مى من حيث شاعريتها ورأيها فى الشعر » .

فأجاب هذا الجواب المستفيض : لا بأس قبل الحديث عن مى أن أشير إلى أول معرفتى بها . فقد جاءنى يوم من الأيام الشيخ يوسف الخازن وكان صاحب جريدة الأخبار المصرية ، وناولنى ديواناً من الشعر مكتوباً عليه اسم المؤلفة ( إيزيس كوبيا ) . ولم يكن هذا الاسم إلا ترجمة أو مقابلا لاسم ( مارى زيادة ) ، وطلب منى بعد إتمام قراءته أن أكتب عنه كلمة فى جريدته ، على نحو ما يصنع بكل كتاب جديد لتقديمه إلى القراء .

قرأت الديوان فوجدته مكتوباً باللغة الفرنسية بعبارة سليمة تنم على دراسة متقنة دقيقة ومعرفة صحيحة بهذه اللغة .

وبالبداهة كل ما بقى إلى الآن فى ذهنى من أثر هذه الكتابة وبعثت به إلى جريدة الأخبار فى ذلك الوقت ، كان مؤداه أنى بعد مطالعة هذا الكتاب تمثل لدى قفص من الذهب يتحرك فى داخله ويتنقل بين أسلاكه اللامعة عصفور صغير ملون الريش ، مرح كل المرح ، كأنه يضرب بأجنحته الصغيرة جوانب هذا القفص الذهبى ليفلت من قيود أسلاكه

وينطلق منه إلى الفضاء الواسع والجو المطلق الفسيح ، لأنه لا يطيق الاحتباس ولا يقدر على أن يكون سجيناً فى مكان ضائق بأمانيه فى الحياة .

وتبين ـ لما عرفت ميا بعد ذلك ـ أن العصفور الصغير لما بدأ الحياة خارج المدارس وأقبل على مغامرات تكشفت أمامه وسائل النجاح القريب ، ورأى آفاقاً بعيدة للآمال ما كان ليحجم عن التوجه إليها بكل قواه ، فأخذت مى تقرأ الأدب العربى وتتعلمه ، ورأت أن مجالها يكون أفسح حين تكتب بلغة قومها ، وأن ميدانها يكون أرحب وأوسع حين تعبر بلسان أهلها ، ورأت كذلك أن تفوقها المنشود لا يتخذ له ذريعة أقوى من أن يستند إلى شعورها الشرقى ، والطبع الأصيل الذى أخذته من منبتها .

وكانت فطرتها تعينها على المجهود المطرد القوى ، فما لبثت أن تضلعت من اللغة العربية تضلع الذين قضوا وقتاً طويلا فى مدارستها . وهنا انتقلت فيها الشاعرية من الطريقة التى كانت قد بدأت بها فى ديوانها الأول ـ طريقة العروض والروى ـ إلى طريقة البيان الآخذ بين النظم والنثر بما له خصيصة فى اللغة العربية . ولك أن تقول إن شاعريتها فى اللغة العربية كتبت بطريق النثر الفنى ، وهذا هو ما اختصت به فى أسلوب كتابتها إلى أن ماتت ، فتكتب مصورة وملحنة ، ومقسمة للكلام على تقاسيم شعر خفى تتحرك به النفس .

واتفق بجانب هذا أنها كانت قد أوتيت ـــ فيما أوتيت من مواهب ـــ قوة الفصاحة اللسانية والتعبير العجيب برنات الصوت وإشارات النظر

والأيدى . فلم تلبث أن ظهرت بمظهر الخطيبة التى لا تجارى وهى تلقى كلامها من فوق أعواد المنابر . ولقد يبلغ بك الظن وأنت تسمعها تخطب أنه لو أن ممثلة من كبريات الممثلات أخذت كلامها وألقته لا يكون عندها من إبراز المعانى ما عند مى بهذه السهولة وذلك اليسر . فلا ننسى أنها كانت لها هذه المقدرة العجيبة من غير كلفة ومن غير أن يبدو هناك عناء أو تصنع .

مضت فى كتابتها ناحية هذا النحو ، واستطاعت به أن تتناول أغراض الحياة وأن تبحث فيها كما يبحث الذين يشتغلون بالصحف أو بتأليف الكتب الاجتماعية القريبة التناول . وذلك بقصد إشاعة فكرة الخير والعدل بين الناس ، والتنبيه إلى كل ما هو واجب أو مستحب لنهضة الأمة تارة ، ولنهضة كل فئة من فئاتها تارة أخرى . وبهذا نزلت إلى ميدان العمل الكتابى ، ولكنها بقيت على طريقتها من الإنشاء الشعرى الاحتفالى . ورأت بعد ذلك لاستكمال ثقافتها أن تقرأ ما شاء الله من دواوين العرب وأمهات كتبهم . وكذلك قرأت من دواوين الفرنجة وأمهات كتبهم ما لا يكاد يحصى ، ثم اندفعت لتعلم اللغات الأجنبية وأتقنت منها بضعاً إتقاناً كان يحار له أبناء تلك اللغات . وفوق هذا طالعت المذاهب الفلسفية المختلفة ، وكانت تتحدث حديثاً عجيباً بموازنات بين الأدباء أحياناً والشعراء أحياناً والفلاسفة أحياناً بما يقضى له عجباً .

فمع كل هذا العلم الواسع والادخار الكبير من ثمرات المطالعات التى لم تنقطع عنها يوما أو بعض يوم ، وأفنت فيها معظم مجهوداتها ، كان

الشعر من حيث هو أعاريض وقواف قد أصبح من الأشياء التى تفكر فيها كما يفكر فى التحف الفنية ، والألطاف البديعة ، والزينات الشائقة ، ولكنها لم تر أن تذهب فى مطالبة نفسها بهذه الصناعة إلى أبعد من هذا الحد .

لم يحصل أن مياً آثرت ديواناً على ديوان أو فضلت شاعراً على شاعر — وهذا بقدر علمى — وكان يطربها فى الشعر ويأخذ من نفسها كل مأخذ إما الشعر العالى الخيال ، المخدوم الصياغة الذى ينبه فى النفس العواطف تنبيهاً قوياً ، وإما الشعر الذى كتب لأغراض موحدة فصلت فيه تفصيلا محكما ، وقدرت أجزاؤها تقديراً مترابطاً ، وانتهت به إلى مغاز ومرام تقع موقعها من الإنسانية عامة أو من أمة معينة يكون قد كتب لها ذلك الشعر .

لم تغرم مى بالموازنات بين شعر وشعر لأنها كانت تخشى بذكر إيثارها لنوع من الشعر على الآخر أن يكون فى ذلك تثبيط لأية حركة تريد أمم الشرق أن تندفع بها إلى تعديل أو تبديل أو إصلاح فيما ألفته وجمدت عليه دهراً طويلا .

بقى أن أقول لك — وذلك ليس من موضوع شاعرية مى — أن كل عنايتها كانت إصلاحاً فى الأخلاق والآداب ، إصلاحاً فى روح الأمم ومطالبها ، إصلاحاً فى المعايشة بين الجنسين ، إصلاحاً فى التربية — وخاصة تربية الأطفال ، إصلاحاً فى توزيع الإحسان وتدبير شئونه بدل أن يكون مقصوراً على صدقات تكاد تكون بلا قيمة فى النهاية . ذلك كله كان موضع عناية مى ومثار مشاغلها ، وأما مناقشتها فى المسائل

العلمية فكانت تمجد سامعيها ، ولم يكن كلامها فى مسألة كلام عا بروسبيل ، أو حديث غير المتثبت ، بل كان كلام الواثق ، وحديث العارف . وما ادعت يوماً أنها فيلسوفة ، وكذلك كان موقفها من الشعر ، تقرأ وتفهم ما هو أحلى وأصفى ، ولكنها لا تدعى أن تتعرض للمفاضلة . أعنى بجملة الكلام كانت فى نهاية أمرها قد بقيت فيها روح الشاعرية كامنة ، ولكنها — على كون هذه الروح فيها — لم تشتغل بالشعر ولا حواليه من حيث هو صناعة .

منتخبات من ميّ

---

# الرّسائل

## إلى جبران خليل جبران

أهدى الشاعر المفكر جبران إلى الآنسة « مى » نسخة من كتابه « الأجنحة المتكسرة » وهو بالمهجر الأمريكى ، فلما تسلمت مى الكتاب وقرأته أرسلت إليه رسالة تشكره على هديته ، وتناقشه فى موضوع « الزواج » الذى كان جبران يراه سلاسل ثقيلة وقيودا . وتاريخ الرسالة ١٢ مايو سنة ١٩١٢ . وهذه هى :

إننا لا نتفق فى موضوع الزواج يا جبران . أنا أحترم أفكارك ، وأجل مبادئك ، لأننى أعرفك صادقا فى تعزيزها ، مخلصا فى الدفاع عنها ، وكلها ترمى إلى مقاصد شريفة ، وأشاركك أيضا فى المبدأ الأساسى القائل بحرية المرأة ، فكالرجل يجب أن تكون المرأة مطلقة الحرية بانتخاب زوجها من بين الشبان ، تابعة فى ذلك أميالها وإلهاماتها الشخصية ، لا مكيفة حياتها فى القالب الذى اختاره لها الجيران والمعارف ، حتى إذا ما انتخبت شريكا لها تقيدت بواجبات تلك الشركة العمرانية تقيدا تاما .

أنت تسمى هذه سلاسل ثقيلة حبكتها الأجيال ، وأنا أقول إنها سلاسل ثقيلة . نعم ، ولكن حبكتها الطبيعة التى جعلت المرأة ما هى . فإن توصل الفكر إلى كسر قيود الاصطلاحات والتقاليد ، فلن يتوصل إلى كسر القيود الطبيعية ، لأن أحكام الطبيعة فوق كل شىء .

لم لا تستطيع المرأة الاجتماع بحبيبها على غير علم من زوجها ؟ لأن باجتماعها هذا السرى — مهما كان طاهرا — تخون زوجها وتخون

الاسم الذى قبلته بملء إرادتها ، وتخون الهيئة الاجتماعية التى هى عضو عامل فيها .

عند الزواج تعد المرأة بالأمانة . والأمانة المعنوية تضاهى الأمانة الجسدية أهمية وشأنا عند الزواج تتكفل المرأة بإسعاد زوجها ، وعندما تجتمع سرا برجل آخر تعد مذنبة إزاء المجتمع ، والعائلة والواجب .

ربما اعترضت على هذا بقولك : إن الواجب كلمة مبهمة يعسر تحديدها فى أحوال كثيرة ، فليس لنا إلا أن نعلم : ما هى العائلة ، لنجد الواجبات التى يفرضها على أفرادها . ودور المرأة العائلى هو أصعب الأدوار وأوضعها وأمرها .

إنى أشعر شعورا شديدا بالقيود المقيدة بها المرأة ، تلك القيود الحريرية الدقيقة كنسيج العنكبوت ، المتينة متانة أسلاك الذهب .

ولكن إذا جوزنا لسلمى : « سلمى كرامة بطلة الرواية » ولكل واحدة تماثل سلمى عواطف وسموا وذكاء ، الاجتماع بصديق شريف النفس عزيزها ، فهل يصح لكل امرأة لم تجد فى الزواج السعادة التى حلمت بها وهى فتاة أن تختار لها صديقا غير زوجها ، وأن تجتمع بذلك على غير معرفه من هذا ؟ حتى وإن كان القصد من اجتماعهما الصلاة عند فتى الأجيال المصلوب ؟؟!

مى

## إلى جبران خليل جبران

وهذه رسالة أخرى أرسلتها مى إلى جبران بتاريخ ٦ ديسمبر سنة ١٩٢٠ وهى توضح لنا نشوء فكرة الزواج بين جبران ومى .. ثم انتهاءها وتلاشيها ..

...لما كنت أجلس للكتابة كنت أنسى من وأين أنت؟ وكثيرا ما أنسى أن هناك شخصا . أن هناك رجلا أخاطبه ، فأ كلمك كما أكلم نفسى ، وأحيانا كأنك رفيقة لى فى المدرسة . . إنما كانت تطفو على تلك الحالة المعنوية عاطفة احترام خاص لا توجد عادة بين رجل وفتاة.

أتكون المسافة وعدم التعاون الشخصى ، والبحار المنبسطة بيننا هى التى كانت تلبس حقيقة ذلك التراسل ثوب الخيال ؟ قد يكون . غير أن مكانتك فى اعتبارى وتقديرى كانت مصدر هذه الثقة التى ظهرت منذ نشأتها كأنها فطرية بديهية ، لم تنتظر الوقت لتقوى ، ولا التجربة لتثبت . فوصلت الرسالة التى سبقت النشيد ، فأحجمت إزاء بعض الكلمات خوفا مما قد تجر إليه .

ومرت أسابيع ستة أو سبعة دون أن أكتب ، لأنى كنت أقول لنفسى : « يجب أن نقف هنا ! » ، ولكننا لم نقف ، بل خطونا خطوة ، بل قفزنا قفزة تذكر فى « النشيد الغنائى » . وكنت فى الأسكندرية إزاء البحر الذى يجلب التأمل وينمى حب الاختلاء ، ولم أشأ أن أجعل لمعنى النشيد أهمية خطيرة ، فكتبت أقول :

أنا أردت أن تحصر مراسلاتنا فى مواضيع فكرية . فقلت لك صريحا أننى ألتمس فى رسائلك الفائدة التى أطلبها فى كل مكان .

..أنت قيدتنى « مذنبة » فى دفترك ، وقت تشكو لأنى كلما «حدقت» فى شىء أخفيه وراء القناع ، وكلما مددت يدا أثقبها بمسمار .. نعم ! فعلت ذلك متعمدة » . تعمدت « قطع تلك الأسلاك الخفية التى تغزلها يد الغيب وتمدها بين فكرة وفكرة ، وروح وروح . وصرت أصرف المعانى ، وأمسخ الأسئلة، وأضحك عند الكلمات التى تملأ العينين دموعا .

وهل كان لدى وسيلة أخرى لأحولك عن هذا الموضوع ، وأذكرك أنى وحيدة أبوى .

قد لا يكون فى العائلة الغربية إلا ولد واحد ، فيقذفون به من انكلترة إلى الهند ، أو فتاة واحدة فترحل من فرنسا إلى الصين بلا جلبة ولا ضوضاء . ولكن أين نحن من هؤلاء ؟ ونحن شرقيون ، تعمدت ذلك خصوصا لأوفر على نفسى عذابا هى فى غنى عنه ، ولأتحايد كل كلمة تقربنى من ذلك الموضوع الذى ملأ روحى شوكا وعلقما فى هذه السنوات الماضية ، ففهمت ما أريد وإنما فى غير معناه الحقيقى . وفهمته على وجه لم أقصده . ثم سطت عليك الكبرياء ، كبرياء الرجل ، فنسيت أن السكوت لا يحسن بيننا على هذه الصورة نحن اللذين تكاتبنا أبدا كصديقين مفكرين .. نسيت أن الموضوع الآخر جاء عرضا ، وما دام أنه لم يكن الأصل ، فقد كان له أن يتلاشى دون أن يؤثر فى علاقاتنا الأدبية الفكرية .

أما صدق القائلون أن صداقة الرجل والمرأة رابع المستحيلات ؟

آلمنى سكوتك من هذا القبيل ، وأرهف انتباهى ، فأعلمنى أنك لم

تشاركني ارتياحي إلى تلك الصداقة الفكرية ، لأنك لو كنت سعيداً بها مثلي ، لما كنت رميت إلى أبعد منها .

علمت أنني كنت وحدي حيث كنت أظننا اثنين .. وقدرتك أنك لم تحسب تلك سوى مقدمة ، وأنا كنت أقدرها لذاتها ، وصار معنى سكوتك عندي : « إما ذاك ، وإما لا شيء . . . وأنت أدرى بأثر هذا في نفسي » .

مي . .

## إلى جبران خليل جبران

حتى بعد أن رفضت مي فكرة الزواج من جبران سنة ١٩٢٠ ، ظلت المراسلات بينهما مستمرة ، وقد كتبت إليه في يناير سنة ١٩٢٥ الرسالة التالية بمناسبة قص شعرها الطويل . .

... لقد قصصت شعري. وعندما ترى من صديقاتك بعد اليوم يا جبران من هن في هذا الزي يمكنك أن تذكرني وتقول لهن في سرك : إنك تعرف من تشبههن !

كنت إلى شهور راغبة في التخلص من هذه الذوائب التي يقولون إن لطولها يداً في قصر عقل المرأة ، وهو محض افتراء طبعاً . ولكن عندما رأيت شعري بحلكته وتموجه الجميل وعقاربه الجريئة مطروحاً أمامي تداعبه يد المزين شعرت بأسف على هذه الخسارة . . غير أن المزين طيب خاطري بعبارات تكسرت فيها الكلمات الألمانية والإيطالية ،

وهو روماني على مايقول ، فهل كان في وسعي أن أضحك ؟ فظل يصفه لي جمال الشعر القصير ومنافعه ومميزاته ، لا سيما وأنه — على ما زعم المزين الصالح — يليق لي كثيرا . . وسألته : إلى كم امرأة يقول كل هذه الكلمات ، فأجاب : إلى فيلسوفة !

أرأيت هذه الفيلسوفة التي تسعى إلى قص شعرها ثم تحزن عليه ، ثم تضحك لأن المزين يعزيها عن فقده بكلمات مسرحية ؟ وأين تلك الفلسفة والفتاة المذكورة تحدث بهذا الحديث عن شعر قاتم هو شعر البداوة والسحرة ، تحدث فنانا شاعرا شغف بشعر الحضارة والشقرة ؟ فهو لا يروقه إلا الشعر الذهبي ، ولا يترنم إلا بجمال الشعر الذهبي ، ولا يحتمل في الوجود إلا الرؤوس ذات الشعر الذهبي ..

مي

## إلى جبران أيضا

مضت مدة غير قصيرة لم يكتب جبران إلى مي ، فكتبت إليه في ١١ مارس سنة ١٩٢٥ الرسالة الآتية :

صديقي يا جبران !

لقد توزع في هذا المساء بريد أوربة وأميركة ، وهو الثاني من نوعه في هذا الأسبوع ، وقد فشل أملي بأن تصلني فيه كلمة منك . نعم أني تلقيت منك في الأسبوع الماضي بطاقة عليها وجه القديسة « حنة »

الجميل ، ولكن هل تكفي الكلمة الواحدة على صورة تقوم مقام سكوت شهر كامل ؟

. . . لا أريد أن تكتب إلي إلا عندما تشعر بحاجة إلى ذلك ، أو عندما تنيلك الكتابة سرورا ، ولكن أليس من الطبيعي أن أشرئب أخبارك كلما دار موزع البريد على الصناديق يفرغ فيها جعبته ؟ أيمكن أن أرى الطوابع البريدية من مختلف البلدان ، على الرسائل حتى طوابع الولايات المتحدة ، وعلى بعضها اسم نيويورك واضح ، فلا أذكر صديقي ، ولا أصبو إلى مشاهدة خط يده ولمس قرطاسه ؟؟

ولتحمل إليك رقعتي هذه عواطفي فتخفف من كآبتك إن كنت كئيبا ، وتواسيك إن كنت في حاجة إلى المواساة ، ولتقوك إذا كنت عاكفا على عمل ، ولتزد في رغدك وانشراحك إذا كنت منشرحا سعيدا .

مي

## إلى أمين الريحاني

بعد أن عادت مي من لبنان خلال سنوات المحنة في مستشفى العصفورية ومستشفى ربيز وفي قرية « الفريكة » بلد أمين الريحاني ، كتبت إليه في أغسطس سنة ١٩٣٩ رسالة من القاهرة تقول فيها :

نحن الآن في عشية عيد العذراء ، وناقوس جيراني الرهبان آخذ في القرع والترنم ، يدعو إلى « رياح المساء » . بيد أن ترنيمة أفرنجية ومتحضرة أرستقراطية لا تلبث أن تدرك نهايتها بعد دقيقة أو دقيقتين .

فأين منها شدو الاجراس اللبنانية ، ذلك الشدو الشرقي البلدي

الديمقراطى ينطلق من كل صوب فى الأعالى والأدانى ، ويجتاح كل حيز من أقطاب الأفق ، مازجا أصداء القمم بأصداء الوديان ، حتى يملأ الهواء عزيفا وحنينا ساعات طويلات ، وينسج من شتيت أنغامه سيمفونيا لبنانية . ولا « سيمفونيات بتهوفن » .

وهل فى وسعى وأنا فى مصر أن لا أتجرد الساعة — مرغمة — من الشعور بوجودى هنا ، لأحس أنى فى « فريكتكم » الخالدة مقيمة ، أجلس على سطيحة « عمو أبوسلمون » ، ظهرى إلى « صنين » ، والجرد وجهتى أشهد عنده وداع الشمس لهذه الناحية من الأرض ، على وقع رنين الأجراس .

أنى الآن فعلا هناك ، أعيش تلك الثوانى على مهل ، وفى كل ثانية من المتعة الفنية وحرية الحركة ، ما يملأ عاما بطوله ، فى تقديرى أنا ، التى تجرعت مرارة السجن ، وعرفت شقاء الضغط والأسر .

صحيح أنى قضيت ثلاثة أعوام فى لبنانى الحبيب المحبوب ، وأنى عانيت منه ما عانيت ممن عانيت ، وكيف عانيته ، وأن أنقذنى بعدئذ المنقذون ؟ وأنى حللت فى رأس بيروت شهورا ، واصطفت فى « الفريكة » شهورا ، متقلبة فى شتيت الغمرات ، حتى لكأنى بها فى بحر متلاطم .

الآن ولما أخلص بعد من تلك الأعاجيب الرهيبة ، الآن أشك فى بعض أوقاتى أن ذلك حدث يقينا . أيحدث لى كل ذلك مما شهد أصحابى ، ومما لم يشهدوا ، فلا أموت ولا يبيض منى إلا الشعر ، أيحدث كل ذلك

وأعرف من طبيعة الشر فى الإنسان أكثر جوانبها ادلهاماً وفظاعة ومراوغة ، فأبقى على ما أنا واثقة بطبيعة الخير فى الإنسان ، مطمئنة إلى عدل الحياة ، شغوفة بكل صنوف الحياة ، نازعة إلى كل مثل سام ، وكان عمرى ونشاطى يتجددان كل صباح مع شروق الشمس ؟

أرأيت حياتك إنسانا غيرى فى مثل هذه الغباوة ؟ ومع ذلك فهنالك أمور تغيرت عندى أو أننى تغيرت فى أمور . لست أطيق الآن أن يؤلمنى أو يزعجنى أحد ، ولست أنيل الناس ثقتى ، شأنى من قبل . وهذا دليل على أن فى داخل نفسى شيئا من الشيب كذلك . .. ما علينا !

أهنئك بدون كيخوتك الكبير ، وأشكر لك ما أتحفتنى به من صورته المصغرة وشعاره الثلاثى الركين . أما قولك أن السياسة فى تلك البلاد عاطفية دون كيخوتية فظريف جدا ، وذو مغزى بنوع بعيد ، ألا أنه يعيد إلى ذكرى حديثنا ، ذكرى حادثة جرت لجدتنا المصرية القديمة ، الملكة حتشبسوت ( كذا ، ولعلها نفرتيتى ) .

نعم : إن علماء الآثار الذين يباشرون الحفريات فى هذه الديار ، كانوا قد عثروا فيما عثروا عليه ، على رأس جميل جدا لهذه الملكة التى كانت جميلة جدا ، وبين عشية وضحاها اختفى الرأس الجميل ، ولم يكن بين علماء الأثريات فى مصر من يعلم كيف اختفى وأين طار ؟ ومر زمن يسير ، وإذا برأس الملكة فى متحف برلين ! فانبرت الصحافة المصرية تصيح بملء صوتها ، مطالبة سفيرنا فى برلين بإحضار رأس الملكة بصورة رسمية ، فاستمهلتها الحكومة الألمانية أياما ، ريثما يتمكن المستشار هتلر من زيارة المتحف وتقديم فروض الإجلال لرأس الملكة المصرية قبل

مغادرتها أرض الريخ . . وتحدد موعد تلك الزيارة فى خلال أسبوع ، وتمت تلك الزيارة فى موعدها ، إلا أن الرأس ظل فى مكانه . علام ؟ لأن المستشار العظيم رجل فن وذوق وعاطفة ، ما كادت عينه تقع على الملكة الجميلة حتى هام فى حبها ..! فمن ذا الذى تحجر قلبه إلى درجة التفريق بين هذين الحبيبين ؟

وعلى ذلك ما زالت حيث كانت ، ومحبها لا يفرط بها .

أستسلم لسرور الكتابة إليك ، ناسية أنك ضيق الوقت ، كثير الأشغال ، فأقف هنا على أن أستأنف الحديث فى فرصة أخرى . سلامى للست سعدى ، ولأخينا ألبرتو أو ألبيرتوس كما تشاء ، وللصادرين جميعا ، ولأصدقائى جميعا ، ولأبى سلمون ، والست نوافل ، والأسطى سلمون ، وأهل الفريكة رجالا ونساء وشيوخا وشبابا وأطفالا . . يا لطيف ! شكرى الحار لأخينا السنيور ألبيرتوس لتفضله بصورة الفريكة ، أنه كثير الأفضال اوهذا بعض أفضاله . وشكر من درجة الحرارة نفسها — أو بمزيد من الارتفاع — إلى صديقنا البارع بيبنو حويك . هل غير اسمه ؟ المجد لريشته التى جعلت مشاهدة الفريكة ماثلة فى مكتبى هذا ، وآمل أن أكتب قريبا لشيخ البلد ألبيرتوس.

وددت أن أصف لك مبلغ ما أشعر به من الشكر لما شهدته من همتك وأريحيتك فى إنقاذى وفى مؤاساتى ، وفى تشجيعى إبان تلك المحنة كلها ، ولكن شكرى لكم جميعا هو الجو الذى يحيط بى ، وهى الروح التى تملى على كل كلمة أخطها ، وهو التسبيح الذى تسبح فيه أيامى ولياليى ، إنه دحيم شامل كتجدتكم لى .

دم كما أنت يا أخا الهمم ، واسلم على ما أتمناه لك ولجميع الذين تحبهم من خير وهناء .

مى

## إلى أمين الريحانى أيضا

لما قرر فيلسوف الفريكة أمين الريحانى العودة إلى وطنه لبنان بعد غياب فى العالم الجديد، وكانت عودته بباخرة تمر على ميناء الأسكندرية حاولت مى أن تسافر إلى الثغر لتكون فى طليعة المستقبلين للأديب الكبير ولكن ظروفا منعتها فأرسلت إليه الرسالة التالية وفيها بعض الاعتراف بجميل الريحانى عليها فى زمن المحنة .

صديقى العزيز الأستاذ الريحانى .

لدن وصولك إلى أول مرفأ شرقى بعد هذا الغياب فى أمريكا ، أرحب بك باسمى وباسم الأدباء الذين يحبونك ، وباسم هذا الشرق الفخور بريحانه العبقرى .

ولشد ما فرحت لهذا الخبر ، لأن وجودك فى البلاد موسم فرح مى ، أنا التى أنتظر عودتك هذه منذ شهور ستة ، منذ قدومى إلى مصر ، وكنت قد كتبت منذ ثلاثة أو أربعة أسابيع إلى عزيزنا ألبرت ، أسأله عنك وعن موعد مرورك بالمياه المصرية ، لأكون فى استقبالك بالمرفأ ، فجاء الرد متأخرا جدا ، إذ نحن الآن فى الساعة الثانية بعد الظهر ، وليس أمامى سوى قطار الساعة الثالثة ، ومهما أسرعت فى الاستعداد للسفر

فلن أدركه ، وشئونى موزعة ، والعمال فى البيت يشتغلون ، فلا أستطيع أن أصرفهم فجأة ، ولا أستطيع أن ألغى المواعيد والشئون المنظمة لغد.

وأما قطار الساعة ٨ فيوصلنى إلى الأسكندرية حوالى منتصف الليل ، فأدور فى تلك الساعة وحدى أبحث عن مكان فى فندق .. بقى قطار الساعة الحادية عشر الذى يقضى الليل بطوله فى الطريق ، فإذا سافرت به ضمنت لنفسى ليلة أرق ، فرأيتنى غدا على غير ما يرضيك ، سيما وأن صحتى على غير ما يرام فى هذا الأسبوع ، حيث التعب الطويل المضنى الذى أنفقته وأنفقه الآن على تنظيم هذا البيت ، والحر الذى لا يطاق ، قد أرهقانى وأضعفانى بحيث أضطر إلى أن أمكث فى السرير ساعات كل يوم طلبا للراحة ، من أجل كل ذلك أخشى أن أكون غدا — فيما لو سافرت — فى حالة تزعجك ولا ترضينى ، ولا تنيلنى الغاية من السرور بمشاهدتك والتحدث إليك والإصغاء إلى أخبارك ، من الكثير الذى أود أن أعرفه عن رحلتك ومحاضراتك .

وهكذا ! أنت تمر على بعد ثلاث ساعات من المكان الذى أنا فيه مقيمة ، وأنا حرة ، ومع ذلك ليس فى مقدورى أن أسارع إلى ملاقاتك كما كنت أبغى ، تحقيقا للأمنية التى عللت بها نفسى شهورا طويلة . وهكذا الإنسان يقدر ، والظروف من ورائه تصرف .

أن روحى تستقبلك فى المرفأ المصرى ، على رصيف المياه المصرية ، تحت سماء مصر التى هى سماء الشرق الذى تحبه كثيراً . بل منذ الساعة ، قبل أن تقبل على الأرض المصرية ، وأنت بعد فى عرض البحر ، تسير إليك روحى خيالا أثيرياً يطوف بك على سطح الباخرة ،

ويناجيك بأعذب ما يتناجى به صديقان ، ويسدى إليك الشكر خالصاً لما أنعم به الآن من الحرية البشرية المألوفة[1] . . فإن لك فى هذا النجاح قسطاً باهراً وافراً ، وأن روحى لتتسربل بأبهى هيئاتها لتقف بجانبك على سطح الباخرة .

ومن روحى ذلك اللألاء الصافى على الأمواج ، جاعلا الأمواه أمامك موكباً — موكب إكرام ومحبة وشكران — يسير بك إلى الشط المصرى .

وإذ بدت فى الجو سحابة عند الغروب فهى ترمز إلى أسفى ، لأنى سأحرم غداً فرصة نادرة . ولست أشك فى أنك مثلى آسف لأننا لم نجتمع ، ولو هذه الساعات الوجيزة لدن مرورك بالأسكندرية .

آسف مثلى ،سيما وأن صديقنا العزيز فيلكس[2] لن يكون فى استقبالك فتشعر بغيابه وتحزن عليه ، أنت صاحب العواطف الرقيقة ، بقدر ما أنت صاحب الأفكار القديرة .

واها ! ما أشد تفجعى عليه ،وما أضعف يدى دون الكتابة عنه! إنى لا أقوى على كتابة خطاب تعزية إلى أسرته ، لأنى أنا أفقدته كما

---

(١) هنا إشارة إلى همة أمين الريحانى ومروءته ونجدته لمساعدة مى فى محنتها وفى الحجر عليها بلبنان ، فقد كان بجانبها دائما ، وكان يزورها دائماً ،وقضت فترة من الضيافة فى منزله بالفريكة ، ثم انتقلت إلى منزل متواضع يطل على الوادى .

(٢) هو المرحوم فيلكس فارس من الأدباء اللبنانيين المتمصرين ، وكان يمتاز برقة أسلوبه فى الترجمة . ومما ترجمه من الكتب « هكذا تكلم زرادشت » لنيتشة .

فقده أهله . أقول لك صدقاً ، إنى مرضت منذ علمت بوفاته ، وكنت قد صممت على السفر إلى الأسكندرية لأعزى أسرته ، وأودع جثمانه ، فخانتنى القوة ، ولو ذهبت لمرضت ، بحيث أضطر إلى ملازمة السرير أسابيع هناك فى الأسكندرية ، وأنا — دون سائر الناس — لايجوز لى أن أمرض .

مى

## إلى مصطفى صادق الرافعى

كان المرحوم الرافعى من أصدقاء مى ، وكانت شديدة الإعجاب بأسلوبه القوى المتميز ، وبأفكاره العميقة المحلقة . . . وفيما يلى رسالة منها إليه :

أتذكر إذ التقينا وليس بيننا شابكة ، فجلسنا مع الجالسين لم نقل شيئاً فى أساليب الحديث ، غير أننا قلنا ما شئنا بالأسلوب الخاص باثنين فيما بين قلبيهما ؟

. . . وشعرنا أول اللقاء بما لا يكون مثله إلا فى التلاقى بعد فراق طويل ، كأن فى كلينا قلباً ينتظر قلباً من زمن بعيد ؟

. . . ولم تكد العين تكتحل بالعين حتى أخذت كلتاهما أسلحتها .. وأثبت اللقاء بشذوذه أنه لقاء الحب[١] .

---

(١) لعل فى هذه الرسالة أبلغ رد على من ينكرون تبادل الحب بين مى والرافعى . ماذا يمكن أن تقوله امرأة فى التصريح بالحب من جانبها أكثر من هذا ؟

وقلت لى بعينيك : أنا ... وقلت لك بعينى : وأنا ... وتكاشفنا بأن تكاتمنا ؟

وتعارفنا بأحزاننا كأن كلينا شكوى تهم أن تفيض ببثها ؟ وجذبتنى سحنتك الفكرية النبيلة التى تضع الحزن فى نفس من يراها ، فإذا هو إعجاب ، فإذا هو إكبار ، فإذا هو حب ؟

وعودت عينى من تلك الساعة كيف تنظران إليك ؟

وجعلت أراك تشعر بما حولك شعورا مضاعفا ، كأن فيه زيادة لم تزد ؟

وكان الجو جو قلبينا !

وتكاشفنا مرة ثانية ، بأن تكاتمنا مرة ثانية . . . ؟

مى

## إلى أحمد لطفى السيد

كانت مى بصوتها القوى فى التأليف والخطابة من الأصوات الجهيرة لمناصرة قضية المرأة العربية ، والدفاع عن كيانها ، وإظهار شخصيتها المستقلة . ولم تدع فرصة تمر إلا انتهزتها لنصرة هذه القضية . حتى كان حفل تأبين فتحى زغلول « باشا » شقيق سعد زغلول فى سنة ١٩١٤ ولم تدع المرأة إلى الاشتراك فيه ، مع أنها أم المنجبين ، وأخت النابغين . فأرسلت مى هذه الرسالة التالية إلى المرحوم أحمد لطفى السيد . وكان على رأس لجنة الاحتفال الذى أقيم بدار الأوبرا .

حضرة الأستاذ الفاضل

فى نفسى كلمات جائلات منذ ثلاثة أيام ، إذا حاولت الإفصاح عنها باللسان أو بالقلم تبعتها حتى علامة الاستفهام .

أرفعها إليك لأنك كتاب حي يرجع إليه الباحث فى ساعة الحيرة والتردد . ولقد جرأنى على إبداء فكرى أنى وجدت فى خطبتك الجميلة ذكراً لوالدة فقيد مصر ، وذكرت من أجلها جميع الأمهات القرويات الساذجات اللائى أعطين لمصر أعاظمها . لم تضرب صفحاً على جهلهن وبساطتهن ، ومع ذلك فقد اعترفت بأنهن مهذبات « فتحى باشا » وأمثاله . كأنك أردت أن تنبه السامع والقارىء إلى أن الخواطر العظيمة — كما قال فوفينارج — تأتى من القلب ، وأن على هذا القياس يكون ذكاء القلب أعظم ذكاء .

أما سؤالى فها هو : لماذا لم يكن للنساء نصيب فى حضور حفلة التأبين ؟ ، حفلة جليلة أقامتها مصر لتأبين فتاها ، ومصر كسائر بلاد الله — على ما أظن — تتألف من رجال ونساء . لم تكن الحفلة قاصرة على هيئة الحكومة ، أو على طائفة المحامين والعلماء ، بل كانت عمومية جامعة بين المحمدى والعيسوى ، والشرقى والأجنبى على السواء . غير أنكم نبذتم منها جنساً واحداً : وهو الجنس الذى منه رفيقة مهد فتحى باشا ، ورفيقة نعشه : والدته وزوجه . نبذتم ذلك الجنس الذى يعيش بعيدا فى ظل النصر الشامل يوم يكون الرجل غالبا قاهرا ، حتى إذا نهش اليأس نفسه وأدماها الألم ، وخالطتها وحشة الموت عاد إلى جنب الجنس الذى لم يخلق إلا ليكون شقياً : الجنس النسائى .

قالوا إن مثالا حياً واحداً هو أنفع من ألف درس نظرى تمليه كتب المتقدمين والمتأخرين ، ويلقيه أبلغ الفصحاء من المتكلمين . فإذا شكا الرجال بحق أو بغير حق ثرثرة النساء وخفة نفوسهن ، وميلهن إلى

الزخرف والزركشة و« الدنتلا » واعتبروهن غير حريات بأن يشاركنهم في الحياة القومية ، فما بالهم لا يسمون بالتقريب بين الأفهام ، وحذف ما بين مدارك الجنسين من مسافة يزعمونها شاسعة ؟

غريب أن تبخلوا على المرأة بحضور اجتماع يرفع نفسها إلى أسمى درجات التأثر المفيد ، ويلفت عقلها إلى هيبة العلم وعظمة الفضل ، ويعلمها إجلال الوطن ورجال الوطن . مع أنكم تسمحون لها بالذهاب إلى هذه الأوبرا نفسها لحضور الروايات التمثيلية : روايات قد يكون لبعضها أثر طيب في الذهن ، ولكنه بعيد عليه أن يلبس من نفسها الموضع الذي كان ذلك الاجتماع قد يلبسه .

قد تقولون إن المرأة لا تفهم معاني التأبين كما يفهمها الرجل ؛ فأجيب أننا اهتممنا بالخطب والقصائد اهتماما عظيما ، واستعملنا عند قراءتها ملكتي النقد والاستحسان . وهذا ينم عن استعداد فينا غير قليل ، تتجاهلونه عمداً ، أو تجهلونه سهو وإهمالا .

وإذا قلتم إن « فتحي باشا » كان عالماً مفكراً ، وأن العلم والتفكير من خصائص الرجال ، أجبت أن العلم الحقيقي والفكر المخلص هو ذاك الذي يكتب للرجال والنساء بلا تفريق ، ويود أن تكون كتاباته هدى ووحياً لجميع أفراد الأمة ، بل يود أن تكون كذلك لشعوب العالم أجمعين . ولا شك أن فتحي باشا ذلك الرجل . إذ لا رأيت أنا ولا رأى أحد على غلاف كتبه كلمة كهذه : « محظورة على النساء » أو « حقوق المطالعة محفوظة للرجال » .

لما قرأت الخطب والقصائد حملني الخيال إلى ذلك الاجتماع، ورأيت الجمع ينصت كأن صوت الخطيب والشاعر يجاهر بما يجول في نفس الجمهور . رأيت الجمع منحني الرءوس ، كأنه عالم بوجود قوة خالدة في فضاء المكان ، يتهيب النظر أن يرتفع إلى هيولاها ، ويخاف الفكر البحث في ماهيتها ، بينما القلوب تتردد همسا : هي الروح المودعة ترفرف على جباه ذاكريها .

موقف جليل فيه الذكرى أفصح خطيب ، والصمت العميق أحد تصفيق ، وآهات الحياة حكم باهرات ، والدموع ، دموع «سعد باشا» !.

إنها دموع عظيمة آتية من بعيد . من أعماق المحبة المقدسة . إنها سيال حب تدفعه أبدية القلب الراحل ، في لوعة القلب الباقي . إنها دموع بسيطة طاهرة ، بليغة ، أبكت من شهدها ، وما برحت تستفز دموع من سمع بها . دموع رجل نسي كل شيء في لحظة واحدة ، غير ذاكر إلا أنه كان له أخ خطير غاب غياباً أبدياً لا لقاء بعده في هذه الدار . أراد إسداء الشكر إلى الأحياء ، فما عثر إلا على كلمات الوداع للراحل ، فلم يجد قلبه ولسانه وعيناه إلا بتلك الكلمات ، وهي العبرات .

هذه آية البيان .

لو حضر النساء هذا الاجتماع لأخذن عنه أمثولة طيبة ، وحفظن منه في نفوسهن أثرا جليلا .

هذا سؤالي يا سيدي الأستاذ ، ألحقته بالحواشي الطويلات ، لعلك لا تجده بعد مطالته سؤالا بل تقريرا . وقد تحكم أن ما حسبته أنا إشارة استفهام ليس إلا علامة أسف .

لك أن تحكم بما تشاء ، وكلمتي هذه هي ما تريد أن تكون .

مي

# المقالات

# الساعة المفقودة

جعلها أرباب التجارة حلية نسائية ، وأتقن الجوهرى وضعها فى سوار ذهبى ، فكانت نصيبى فى الشراء .

صورة مصغرة للكون، كذلك كانت ساعتى: مساحتها رمز للفضاء، دورتها مسرح اللانهاية ، حدودها حدود الإمكان ، علامتها مقاطع الوقت الذى رتبه الإنسان ، ساعاتها مقياس الأعمال ، دقائقها خوف من هجوم الرزايا وترقب لوفود الآمال ، ثوانيها دقات القلب . . من الثوانى يتألف الزمان ، ومن نبضات القلب تنسج الحياة نسجا .

فياهول ثوانى الزمان ، وياهول نبضات قلب الإنسان !

بين ثانية وثانية يلتقى العدوان فى أحشاء الثرى : الماء والنار ، فتميد الأرض بمن عليها وتنفطر أساساتها ، فتقذف البراكين مقذوفاتها الجهنمية وسوائلها النارية ، وتزفر الطبيعة زفرتها القتالة ، فتلتهم صروح العمران وتفتح صدرها مرحبة، فيتدحرجون إلى الهاوية التى ليس فيها من يعود على وجه البسيطة مخبرا .

بين ثانية وثانية يتلاقى الجيشان فى ساحات الوغى ، فتدوى رعود المدافع فى الفضاء ، وتختطف بروق السيوف غالى الأرواح ، ولأجل كلمة غالب أو مغلوب تندك عروش وتنتصب عروش ، تدمر ممالك ويعمر سواها ، تخرب مدائن ويشاد غيرها ، تتجندل أفراد وتفنى مجاميع ، فترتدى الأقوام سواد الألوان ، وفى نفوسهم لوعة الفقدان وسواد الأحزان .

بين ثانية وثانية يموت أمل ويحيا يأس ، تبتسم شفة وتدمع عين ، يخون صديق ويخلص عدو ، بين الثانية والثانية !

وبين نبضة ونبضة هناك سر الأسرار ، دماء منبعثة إلى القلب ، ودماء منبعثة منه ، تتهافت عليه جراثيم الموت فتخرج مطهرة حيوية ، بين النبضة والنبضة تأثيرات تهتز لها أسس العمر ، وانفعالات تشخص لمرورها ذرات الكيان . اشتعال الفكر وخمود العاطفة ، ظفر البلاهة وتقهقر النبوغ ، لذعات الغرام والحسرات العظام ، قنوط ورجاء ، سعادة وشقاء ، هتاف الروح المسلة ، ولهاث الروح المودعة .

* * *

يا ابنة أبيك ! يغدرنا الزمان ساعة الرجاء ، ويخوننا يوم الصفاء ، ويهجرنا حين اللقاء : فأنت غادرة خائنة هاجرة كالزمان ، يا ابنة الزمان !

كم من ساع طيبات وقعت مرورهن على دوران عقربيك ، وفكرى يناجيك بأحاديث هداه وضلاله . أبتسم لك عند السرور فأتخيلك صامتة تبتسمين ، وأتنهد حيالك يوم الأسى فأحسبك تتنهدين وتحزنين ، وكأن عقربيك ذراعان يمتدان نحو العلاء مستغيثين متوسلين .

لما أفنت قلبي وحدة القلب ضغطت بك على ساعدى قائلة : « أنت الصديقة التي لا تخون » . ولما مزقت سمعى أكاذيب الناس وأحاديثهم المؤذية ، خاطبتك قائلة : « أنت لا تؤذين لأنك لا تتكلمين » . ولما آذانى الجهل بدعواه ، والغرور بسخافته ، نظرت إليك قائلة :

« أنت عالمة ، لذلك تصمتين » .

وكنت تعزيتي . وكنت زماني يا ابنة الزمان .

وعلى هذا ما كان أطول إعراضك عني وأقل اهتمامك بي ! في النهار كنت تطوقين ساعدي فيوجعه أثر سلسلتك ، وأجيب أنا على هذا العنف بلمسة التلطيف . وفي المساء كنت تستريحين بجوار وسادتي ، فأوقع على موسيقاك الساهية ألحان أحلامي وآمالي ؛ وفي المساء كنت أول عين أشاهدها وأول روح استجوبها .

كل ذلك وأنت لا تنتبهين :

وها قد هجرتني ، فقدتك وفقدتني ، فسيري بحراسة الله وانسيني !

ولكن انتخبي اليد التي ستطوقينها !

فإذا وقعت في يد شرير وقصد استمالك ليؤذي أخاً له ؟ فانقلبي أفعى لساعة ولا تبرحي مفرغة فيه سمك حتى تصرعيه قتيلا .

. . . . لكن لا ! لا ، ليس الأشرار إلا ضحايا البشر وضحايا نفوسهم لو كنت تعلمين . وهم أخلق بالرحمة من الأخيار الصالحين . فلا تتحولي حية ولا تؤذي شريراً ، بل غادري تلك اليد المسكينة ، واسقطي في طريق أب فقير صالح ، لتكوني نصيب فتاة لم تلبس في حياتها حلية . زيني يدا شوهت خشونة الخدمة جمالها ، ونامي على زند الفتاة الغريبة بدلال القبلة والتحبب ! نامي هناك ، وأسعدي — ولو ساعة — قلبا بائساً يحسب السعادة في الغنى !

نامي هناك وانسيني ، ولكن !

إن كان لديك ذاكرة تذكر، ياساعتى الصغيرة المحبوبة ، اذكرى لحظة ماشهدته معى من المسرات واللهفات ، اذكرى واحفظى ما تعرفين.

ولكن ألست ابنة الزمان الذى ننسب إليه فى ضعفنا كل شىء ؛ وهو فى قوته لا يبالى بشىء ؟ ترى بأى حافظة تذكرين ؟ وبأى ذهن تتأملين ؟

إنما علاماتك مداد قد تحجر ، وعقربك أصبع يشير إلى علامة يجهل منها المعنى ، وأنت آلة ليس إلا ، وإن كنت آلة الآلات المثلى !

أنت ابنة الزمان الناسى .

وأنت مثله لا تذكرين !

# بكاء الطفل

سمعت الطفل يضحك ، فاختلجت روحي الأثيرية في جسدي الترابي.
إن صوت هذا الرضيع ليرجع صدى أصوات الملائكة ،وضحكته البريئة المطوبة لتحث المفكر على اكتناه الأسرار الأزلية الغامضة .

ثم سمعت الطفل يبكي ، فهلع قلبي فرقا وشعرت بشيء كبير يذوب فيه . أواه من بكاء الأطفال ! إنه أشد إيلاماً من بكاء الرجال !

سمعت الطفل يبكي ورأيت العبرات تنحدر على وجنتيه الورديتين، فكانت تلك اللآلىء الذائبة جمرات نار تكويني .

ظل الطفل يبكي ودلائل العجز واليأس بادية على محياه الوسيم. ظل يبكي بكاء متروك منفرد ، لا أحبه في الدنيا حد .

الطفل الحبيب يبكي فكيف أعيد التألق إلى عينيه ؟ كيف أسمع في ضحكته صدى أصوات الملائكة مرة أخرى ؟

* * *

فدنوت منه متوسلة .

وضممته إلى بذراعي التي لم تضم يوما أخا أو أختا صغيرة، وأجلسته على ركبتي حيث لا يجلس سوى أطفال الغرباء ، ورفعت عقارب شعره عن جبهته الطاهرة بيد ترتجف كأنما هي تلمس شيئاً مقدساً .

...ثم وضعت على تلك الجبهة شفتي ، ساكبة في قبلة كل ما يحوم في جناني من شفقة وانعطاف . ترى من ذا ينبه الانعطاف والشفقة بمقدار ما يفعل الطفل الباكي ؟

صمت الطفل حائراً لأنه شعر أن روحا تناجي روحه. صمت هنيهة ثم عاد يحدق في بعينين ملؤهما الحزن والتعنيف معاً . أتعرفون كيف

تحزن عيون الأطفال ؟ أتعلمون كيف تعنف أحداق الصغار ؟ حدق فى سائلا عن أعز عزيز لديه ، وقال بصوت هادىء كأصوات الحكماء: ماما ، ماما !

* * *

صغيرك يناديك فلماذا لا تجيبين ، يا أم الصغير ؟ لست بالعليلة ، لأنى رأيتك منذ حين تميسين بقدك تحت قبعتك ، والجواهر تطوق العنق منك . أنت صحيحة الجسم ، فلماذا لا تسرعين ؟ ألا تحرقك دموع الطفل الذى لا ترين ؟ ألا يوجعك الشهيق الذى لاتسمعين ؟

عودى من نزهاتك الطويلة ، وزياراتك العديدة ، وأحاديثك السخيفة . عودى واركعى أمام الصغير ، واستميحيه عفوا .

لقد خلقت امرأة قبل أن تكونى حسناء . وكيفتك الطبيعة أماقبل أن يجملك الاجتماع زائرة .

تعالى ! اسجدى أمام السرير ، سرير الصغير !

اسجدى أمام هذا المهد الذى لعبت بين ستائره طفلة ، وحلمت به فتاة ، وانتظرته زوجة . فما خجلت أن تهمليه أماً .

اسجدى أمام المهد ، فإن المهد محجتك القصوى !

اسجدى أمام السرير ! ولا تدعى رب السرير يبكى لئلا تملأ قلبه مرارة الوحدة ، حتى إذا ماشب رجلا تحولت المرارة كرها وصرامة .

اسجدى أمام السرير ، وناغى الصغير !

إن دموع الأطفال لأشد إيلاما من دموع الرجال .

# كن سعيـــدا

في هيكل الأشجان الإنسانيـة وقف الزعيم الأكبر يخطب في القوم، فسمعته يقول :

« إذا كنت غنيا كن سعيدا ! لأن مزاولة الأمور الخطيرة هيئت لك ،وكنت مشكور الصالحات ، مرجو الجميل . لقد عز جانبك ، ومنعت حوزتك ، ونشر رواق العز فوق ذمارك ، فتم لك وجـه من وجوه الحرية والاستقـلال . وإن كنت فقيرا كن سعيدا ! لأنك سلمت من شلل معنوى ابتلى به من دانت لرغبته جميع المطالب . ووقيت ما عرض له السرى من حسد وكره ، فلا تتلظى الصدور لنعمتك ، ولا ينظر إلى متاعك بعين مريضة .

إذا كنت محسنا كن سعيـدا ! لأنك ملأت الأيدى الفارغة ، وسترت الأجساد العارية ، وكونت من لا كيان له ، فرضيت عن نفسك، ووددت إسعاد عشرات ومئات لتتضاعف مسرتك النبيلة الواحدة بتعدد المنتفعين بأسبابها . وإن عجزت عن الإحسان كن سعيدا ! لقد أجلت ساعة تشهد فيها نكران الجميـل ممن صانعت ، فاتخذ المعروف سلاحا يهددك به ، حاسبا التجنى شجاعة ، والسفاهة حذقا . تلك الساعـة لا بد من مرورها فتتوتر لها أعصابك ، ويفور سخطك ، وتقسو عواطفك ، ويجف منهل كرمك ، وتحتقر الإنسان وتيأس من إصلاحه قبل أن تصل إلى قمة الغفران السامى والتغاضى الحكيم .

إذا كنت شابا كن سعيدا ! لأن شجرة مطالبك مخضلة الغصون ، وقد بعد أمامك مرمى الآمال ، فتيسر لك إخراج الأحلام إلى حيز الواقع إذا كنت بذلك حقيقا . وإذا كنت شيخا كن سعيدا ! لأنك عركت الدهر وناسه ، وألقيت إليك من صدق الفراسة ، وحسن المعالجة مقاليد الأمور : فكل أعمالك إن شئت منافع ، والدقيقة الواحدة توازى من عمرك أعواما ، لأنها حافلة بالخبرة والتبصر وأصالة الرأى ، كأنها ثمرة الخريف موفورة النضج ، غزيرة العصير ، أشبعت بمادة الاكتمال والدسم والرغبة .

إذا كنت رجلا كن سعيدا ! لأن فى شهامة الرجولة يتجسم معنى الحياة الأكبر ، وإذا كنت امرأة كنت سعيدا ! فالمرأة منشودة الرجل ، ونبلها موضع اتكاله ، وعذوبتها مستودع تعزيته ، ونسمتها مكافأة أتعابه .

إذا كنت رفيع الحسب كن سعيدا ! فقد فزت بثقة الجماعة دون أن يوصى بك أحد . وإن كنت وضيع النسب كن سعيدا ! لأنه خير لك أن تكون مؤسس عيلتك ورافع عمادها الذى تعرف به وتفاخر بذكراه ، من أن تكون أحد أبنائها المرغمين بطبيعة الحال على حمل اسمهم ولا فضل لهم بإعلائه .

إذا كنت كثير الأصدقاء كن سعيدا ! لأن ذاتك ترتسم فى ذات كل منهم ، والنجاح مع الصداقة أبهر ظهورا ، والإخفاق أقل مرارة ، وجمع القلوب حولك يستلزم صفات وقدرات لا توجد فى غير النفوس ذات الوزن الكبير ، أهمها الخروج من حصن أنانيتك لاستكشاف ما عند

الآخرين من نيل ولطف وذكاء . وإذا كنت كثير الأعداء كن سعيدا ! لأن الأعداء سلم الارتقاء ، وهم أضمن شهادة بخطورتك . وكلما زادت منهم المقاومة والتحامل وتنوع الاغتياب والنميمة ، زدت شعورا بأهميتك ، فاتعظت بالصائب من النقد الذى هو كالسم يريدونه فتاكا ، ولكنك تأخذه بكميات قليلة ، فيكون لك أعظم المقويات ، وتعرض عما بقى ، وكان مصدره الكيد والعجز ، إعراضا رشيقا . وهل يهتم النسر المحلق فى قصى الآفاق بما تتآمر له خنافس الغبراء ؟

إذا كنت صحيحا كن سعيدا ! فقد استبان فيك توازن الناموس الكلى وانسجامه، وأهلت لمعالجة المصاعب ودحر العقبات . وإن كنت عليلا كن سعيدا ! لأنك مسرح تتقاتل فيه قوتا الكون العظيمتان ، فالغلبة لما تختار منهما ، والشقاء موقوف على ما تريد .

إذا كنت عبقريا كن سعيدا ! فقد تجلى فيك شعاع ألمعى من المقام الأسنى ، ورمقك الرحمن بنظرة انعكست صورتها على جبهتك فكرا ، وفى عينيك طلسما . وفى صوتك سحرا ، والألفاظ التى هى عند الآخرين أصوات ونبرات ومقاطع صارت بين شفتيك وتحت لمسك نارا ونورا تلذع وتضىء ، وتحرق وتهنىء ، وتخجل وتكبر ، وتذل وتنشط ، وتوجع وتلطف ، وتسخط وتدهش ، وتقول للمعنى : كن فيكون . وإن كنت خاملا كن سعيدا ! لأن الألسنة لا ترهف حدها لتذكرك ، والأنظار لا يستعر فيها لهيب التفحص وحب المنافسة إذ تتجه إليك . هاك القمة فاقتحمها إن كنت كفؤا ، وإلا فاقنع بأنك جزء مهم من أجزاء الكون تستعملك الكفاءة وقودا . فالايوانات الباذخة لاتقوم بغير الحجارة

الصغيرة ، وأنت متمتع براحة لا ينعم بها من لا ترتوى شفتاه بغير ماء الحياة ، ولا تغتسل روحه بغير سيول الإلهام .

إذا كان صاحبك وفيا كن سعيدا ! لأن الأيام حبتك بكنز من أثمن كنوزها . وإن كان خائنا كن سعيدا ، لأنه لم يكن على استعداد لاستماع أمثولة خفية تلقيها عليه نفسك . ولا يغادر امرؤ حظيرة المحبة ألا ليفسح مكانا لمن هو خير منه وأجدر .

إذا كنت حرا كن سعيدا ! ففى الحرية تتمرن القوى وتتشدد الملكات ، وتتسع الممكنات . وإن كنت مستعبدا كن سعيدا ! لأن العبودية أفضل مدرسة تتعلم فيها دروس الحرية ، وتقف على ما يصيرك لها أهلا .

وإذا عشت فى وسط يفهمك ويقدرك كن سعيدا ! فهناك اكتسبت كل يوم شبابا جديدا وقوة جديدة ، ونمت روحك ثم نمت حتى أذهلتك منها الآفاق والبحار . وإن عشت فى وسط متقهقر منحط ، أيها التعس ! كن سعيدا ! لأنك فى حل من أن تخلق لك جناحين تطير بهما فوقه ، إلى حيث تبدع من أشباح روحك عالما حوى قوتا لجوع فكرك ، وشرابا لظمأ جنانك .

إذا كنت محبا محبوبا كن سعيدا ! فقد دللتك الحياة وضمتك إلى أبنائها المختارين ، وأرتك الألوهية عطفها فى تبادل القلوب ، واجتمع النصفان التائهان فى المجاهل المدلهمة ، فتجلت لهما بدائع الفجر ، وهنأتهما الشموس بما لم تهتد بعد إليه فى دورتها بين الأفلاك ، وأفضى إليهما الأثير بمكنون أسراره ، لذلك هما يتأملان حيث يتصابى الخالى ، ويصمتان

حيث يتكلم ، ويمزحان حيث يجد ، ويتفرسان فى خطوط البقاء حيث لا يلمح هو خيالا .

وإن كنت محبا غير محبوب كن سعيدا ، لأن النابذ يحب المنبوذ فى أعلى طبقات كيانه حبأ لا يدانيه افتنانه بمن يهوى . والهجران حالة جمة المعانى ، والألغاز ترقق ما ضخم من الرغبات ، وتصفى ما عكر من الانفعالات ، حتى يغدو الفؤاد شفافا نورانيا متلألئا كآنية تتناول فيها الآلهة كوثر الخلود . ولسوف تفوز بمن تريد ، إن لم يكن فى تلك الصورة الأنسية المتباعدة ففى سواها . تهيأ للحب مهما أثقلتك المشاعر لأن للحب هبات وسكنات ، وأنت لا تعرف ساعة مروره . كن عظيما ليختارك الحب العظيم ، وإلا فنصيبك حب يسف التراب ويتمرغ فى الأوحال ، فتظل على ما أنت أو تهبط به ، بدلا من أن تسمو إلى أبراج لم ترها عين ، ولم تخطر عجائبها على قلب بشر ، لأن هيا كل مطالبنا إنما تقام على خرائط وهمية وضعتها منا الأشواق .

كن سعيدا لأن أبواب السعـــادة شتى ، ومنافذ الحظ لا تحصى ، ومسالك الحياة تتجدد مع الدقائق . كن سعيدا دواما . كن سعيدا على كل حال ! » .

انفض القوم فإذا الجماعات تقف عند بقية جدار خارج الهيكل لتنتحب وتبكى ، ومضى غيرها فى سبيله ضاحكا هازئا . فنظرت إلى شبح انتصب قربى نظرة استفهام ، فقال : « أنا روح الخطاب جئت أرى تأثيرى فى الناس » .

قلت : « إذن أنت تعلم ما هذا الذى يبكى الناس عنده ».

قال : « هذا جدار الدموع ».

قلت : « وهل هؤلاء يهود وهل نحن فى أورشليم » ؟

فقال : « للإنسانية كما لليهود جدار دموع ، تبكى عليه وتتحسر » ؟

قلت : «ولماذا يبكى هؤلاء بعد تلك الخطبة المعزية الموحية الرجاء ، خطبة السعادة الجميلة » .

قال : « منهم من يبكى لأنه لم يسمعها من قبل . ومنهم لأنه سمعها قبل الآن ولم يستفد . وآخر لأنه استفاد أياماً ثم تغلب عليه المحيط وجرته الوراثة بأثقالها الباهظة إلى هوة القنوط . وغيره يبكى بكاء عصبيا لأن الباكين يحيطون به ، ولو ضحكوا ورقصوا لكان أول المقلدين . وغيره ليظهر أنه ذو نفس حساسة تستوعب كل تأثير صالح . ويبكى غيره لأنه يرى فى الجدار المحطم صورة لآماله الذاوية ، وهو من الذين يندبون حيال متراكم الأخربة ، ومندثر الديار ، ومتعفى الآثار » .

قلت : « وأولئك الضاحكون ؟ »

قال : «هم ذوو الأذهان المحددة التى لا تعترف بما لا تفهم،وتهزأ بكل مالا تعترف ، أنهم أحق بالإشفاق من الباكين» .

قلت : وهناك خيالان لايبكيان ولايضحكان : رجل وامرأة يسيران جنباً إلى جنب بخطوات هادئة بطيئة منحني الجبهة وفى عيونهما تتتالى دوائر الأفكار . أتدرى من هما ؟

فرنا إليهما الشبح وقال : « هما الأرض الخصبة ، هما الشعلة المقدسة،

هما اللذان فهما واستفادا ». فقلت مكتئبة : « أسفا على الخطاب البليغ تسمعه الجماهير الغفيرة ، فلا يستفيد به سوى اثنين ! » فتألق وجه الشيخ بنور سماوى وقال : « بل ما أنفعه خطابا هو فى هذين الروحين غلة للدهور ، وفى هذين الفكرين مجدد للقديم ، وفى هذه الأيدى مشعل يتطاير منه الشرر فتتقد به شموس الأفلاك وشموس الأذهان . بورك به خطابا ، بورك به ! » .

وغادرنى الشيخ وسار إلى ذينك الخيالين فنشر من كتفيه جناحين خفيين ، وحلق فوق رأسيهما يقودهما ويرعاهما .

## دمعة على المغرد الصامت

كانت للكاتبة الرقيقة الحس عصفور من الكنار كانت تقتنيه وتربيه وتنزله منها منزلة الإنسان المحبوب ، فرثته بالكلمة التالية :

ما أسرع ما تتمزق أثواب الورود ، وما أتعس القلوب الشديدة التأثر !

يمر النسيم العليل على الأزهار النضرة فتتشقق بوطئه جلابيبها وتنتثر وريقاتها . كذلك تكفى ملامسة الألم النفس المنفردة ليثير منها الأشجان ، ويستقطر من محاجرها العبرات .

من الرجال من يكتفون بالمجد والوجاهة والفخر . ومن النساء من لا يفهمن الحياة إلا بالزينة والغنى وارتفاع القدر .

أما أنا فلا هذه العطايا تغرنى ، ولا تلك المواهب تستهوينى . شيء

واحد تام الجمال فى تقديرى ، وهو ما يشترك فى تركيبه قسم كبير من الفكر وقسم أكبر من القلب . شىء واحد ينبه إعجابى ، وهو ما كان مترفعاً عن الصغائر والدنايا — هو زهرة نادرة المثال ، شمس الذكاء والمعرفة تحييها ، ومياه العواطف العذبة ترويها .

ما أتعس القلب الحساس وما ألينه لاستحكام الجراح فى ثنياته !

طائر صغير نسمت أشعة الشمس ذهب جناحيه ، وانحنى الليل عليه، فترك من سواده قبلة فى عينيه ، ثم سقطت عليه يد البشر فضيقت دائرة فضائه ، وسجنته فى قفص كان عشه فى حياته ، ونعشه فى مماته .

طائر صغير أحببته شهورا طوالا ، غرد لكآبتى فأطربها ، ناجى وحشتى فآنسها ، غنى لقلبى فأرقصه ، ونادم وحدتى فملأها ألحانا .

امتزج ذكره بحياتى فحل عندى محل صديق لا تصلنى به اللغة ، ولا يقربه منى التفاهم الروحى ، بل يعززه إلى حضوره الدائم وإن لم يبال هو بحضورى ، وصوته الرخيم وإن لم يغرد إلا لأن التغريد من طبعه ، وسروره الذى لا يعرف الكآبة ، واصطباره على ضيق الفضاء ، وقناعته بما قدر له من النور والهواء .

لما أبكتنى الآلام أريته منديلى مبللا بالدموع فأعرض عنى . إنما تستدر الدموع ظلمة الأحزان ، كما يستدر الندى ظلام الليل ، وروح الأطيار شعاع مفرد فكيف يتفهم النور الظلام ؟

ثم أشرت بيدى إلى الأثير البعيد لعلى أرى من طائرى زفرة تنبئنى عن لوعة فى قلبه . ولكنه أخذ يتنقل على قضبان قفصه ، غير مبال بى ،

كمن يقول : « النور لا ينظر إلى الشمس ، والقلب لا يحدق فى الروح لأن كليهما واحد . أنا لا أنظر إلى الأثير لأن فىّ نقطة منه . أنى فيه وإن بعدت عنه ، كالشاعر الذى يظل محلقا فى سماء الخيال والمعانى ، وإن وثق الناس من أنه يجالسهم مصغيا إلى أحاديثهم » .

وإذا أتيته بالأزهار نازعة عنها وريقاتها فارشة بها مهبط القفص لعلى أرضيه ، شرع يدوسها استخفافا متابعا تغريده . كأنه فيلسوف لا يكترث للصغائر . وإن جملت منها المظاهر ، ولا يهتم إلا بما ينبه قوى البحث والتفكير فى جنانه .

فى الصباح كنت أفتح عينى فيستقبل استيقاظى بالغناء ، وتسيل موسيقى أنغامه على قلبى فتذيبه وتسكره معا .

وفى النهار كنت أجلس للدرس والتحبير ، فتشمئز نفسى أحيانا من عبوس الكتب ، ويثقل يراعى فى يدى كأنه صولجان تنازل عن ملكه ، فيأخذ كنارى فى الزقزقة والتغريد ، وتأتى جماعة طير من الخارج فتتوحد التغاريد عند نافذتى كما تمتزج الألحان فى قلب الأمواج . إذ ذاك تبتسم الأفكار على صفحات الكتب أمام ناظرى ، ويتمايل قلبى تمايل الصفصاف قرب الغدير ، وتنجلى الغيوم عن صفحات نفسى وتطرب روحى .

وفى المساء كان الكنار يصمت إجلالا لقداسة الظلام ، فيخفى رأسه بين جناحيه ، ويجمد جمود المفكر . ساعتئذ تأتى بنات خيالى محاولة الشعر ، وورد الابتسام منور على شفتيها ، ومصباح الشعر متقد فى

يمينها . فتعقد حلقة وتدور راقصة حول أحلامى ومنشدة أناشيدها بألحان سرية ، كأعماق اللجج — أناشيد عجيبة لم يسمعها إلا خيال روحى المتهادى بين أولئك العذارى الراقصات . ولم أفهمها إلا بحاسة سادسة تنبثق فى قلب الشاعر فى ساعات الوحدة والكآبة ، بينما ملوك الجوزاء تطل من أعالى علاها ناظرة إلى من نافذتى المفتوحة على آفاق الليل ، والكنار يرقبنى بعينيه المخفيتين تحت جناحيه الذهبيين .

* * *

والآن انظر إلى القفص !

لقد صمت الطائر المغنى ، وجمد الشعاع الحي ، فلا ترى فى القفص إلا قليلا من الشمس المائتة !

مات الصغير الغريد ، مات صغير حشاشتى !

مات عند بزوغ الفجر وقبل انقضاء الربيع ، ولا يبق فى خاطرى ألا أثر من ذلك اللحن المتواضع البديع . شعاع ذهبي أطل حينا واختفى فى كبد الآفاق ، ابتسامة لطف أشرقت ، وما لبثت أن توارت فى أخفية الظلام .

نور فكر ضاء ثم اضمحل فى لجج العدم ، وردة أثير تنفست فعطرت وأسكرت ، ثم ذبلت نغمة حب تموجت ساعة ، ثم تلاشت فى هاوية السكينة .

صديق صغير غرد فأطربنى ، وسكن فى جوارى فآنسنى ، ولما مزق قلبى العالم بشره وصغائره غنى طائرى ، فأنسانى قبح القباحة ، وجعلنى أفكر فى كل حسن بهى .

هذه قيثارتي فقدت أحد أوتارها فناحت بلابل أنغامها ، فما أتعس القلوب الشديدة التأثر ! وما أمر الجرح الصغير الذى يفتح جراحات كبيرات .

سر الوجود وسر الفناء من يستطيع اكتناههما ؟

في كل ذرة من ذرات الكون ظمأ لارتواء خمرة الحياة ، وشوق مبرح للنمو ، وبلوغ أكمل الحالات الممكنة . فما غاية هذا الشوق ، ولماذا وجد ذلك الظمأ إذا كان الفناء كعبة الكمال ونهايته ؟ أتلاشى ما كان فى طائرى من أنس وإيناس ؟ أضاعت نفسه الصغيرة الحلوة فى الأثير . كما امتزجت تغاريده بأمواج الهواء وعناصر جسمه بالتراب والماء ؟ أم هو يحفظ جوهر ذاتيته ويظل هو هو فى مجاهل الفضاء ؟

وعلام وجد ؟ ولماذا قضى ؟

ألهذا الفناء ترقى نوعه حتى صار طائرا غريدا ؟ أعاش يوما وكان من نصيبى لكى يطربنى ثم يوحشنى ، يزيل كآبة نفسى حينا ، ثم يتركنى حائرة فى أمره وأمرى .

أين الحكيم يكشف لنا هذه السرائر ، ويزيح الستار عما فى الحياة من الغوامض ؟

وأنتم أيها الموتى ، أطيارا كنتم أم بشرا ، ألا تنطقون مرة واحدة لكى تفضوا إلينا بما طوى من الأسرار وراء حجب الردى ؟ ألا تهمسون فى نفوسنا بالكلمة الأولى من اللغز الأزلى السرمدى الكامن فى ضمير الوجود ؟

## العيون

تلك الأحداق القائمة فى الوجوه كتعاويذ من حلك ولجين .

تلك المياه الجائلة بين الأشفار والأهداب كبحيرات تنطقن بالشواطىء وأشجار الحور .

العيون ! ألا تدهشك العيون ؟
العيون الرمادية بأحلامها
والعيون الزرقاء بتنوعها
والعيون العسلية بحلاوتها
والعيون البنية بجاذبيتها
والعيون القاتمة بمايتناوبها من قوة وعذوبة

* * *

جميع العيون
تلك التى تذكرك بصفاء السماء
وتلك التى يركد فيها عمق اليموم[1]
وتلك التى تريك مفاوز الصحراء وسرابها
وتلك التى تعرج بخيالك فى ملكوت أثيرى كله بهاء
وتلك التى تمر فيها سحائب مبرقة مهضبة
وتلك التى لايتحول عنها بصرك إلا ليبحث عن شامة فى الوجنة

(١) اليموم : جمع يم ، وهو البحر

العيون الضيقة المستديرة ، والعيون اللوزية المستطيلة
وتلك الغائرة فى محاجرها لشدة ما تمعن وتبصر
وتلك الرحيبة اللواحظ البطيئة الحركات .
وتلك التى تطفو عليها الأجفان العليا بهدوء ، كما ترفرف أسراب الطيور البيضاء على بحيرات الشمال
وتلك الأخرى ذات اللهيب الأخضر التى تلوى شعاعها كعقافة كلّاب على القلب فتحتجنه ، وغيرها ، وغيرها ، وغيرها .

العيون التى تشعر
والعيون التى تفكر
والعيون التى تتمتع
والعيون التى تترنم
وتلك التى عسكرت فيها الأحقاد والحفائظ
وتلك التى غزرت فى شعابها الأسرار

* * *

جميع العيون وجميع أسرار العيون .
تلك التى يظل فيها الوحى طلعة خبأة .
وتلك التى تكاثفت عليها أغشية الخول .
وتلك التى يتسع سوادها أمام من تحب ، وينكمش لدى من تكره .
وتلك التى لا تفتأ سائلة : من أنت ؟ وكلما أجبتها زادت استفهاماً .
وتلك التى تقرر بلحظة : أنت عبدى !
وتلك التى تصرخ : بى احتياج إلى الألم ، أليس بين الناس من يتقن تعذيبى ؟

وتلك التى تقول : بى حاجة إلى الاستهداد ، فأين ضحيتى ؟

وتلك التى تبتسم وتتوسل .

وتلك التى يشخص فيها انجذاب الصلاة وانخطاف المصلى .

وتلك التى تظل مستطلعة خفاياك وهى تقول : ألا تعرفنى ؟

وتلك التى يتعاقب فى مياهها كل استخبار ، وكل انجذاب ، وكل نفى ، وكل إثبات .

العيون ، جميع العيون ! ألا تدهشك العيون ؟ !

* * *

وأنت ما لون عينيك ، وما معناهما ؟ وإلى أى نقطة بين المرئيات أو وراءها ترميان ؟

ثم إلى مرآتك ! وانظر إلى طلسميك السحريين ، هل درستهما قبل اليوم ؟

تفرس فى عمق أعماقهما تتبين الذات العليمة التى ترصد حركات الانام ، وتساير دورة الأفلاك والأزمنة .

فى أعماق أعماقهما ترى كل مشهد ، وكل وجه ، وكل شىء .

وإذا شئت أن تعرفنى — أنا المجهولة — تفرس فى حدقتيك ، يجدنى نظرك فى نظرك على رغم منك .

# قتل النفوس

رأيتها تنظر إلى الأشجار بعينين كئيبتين ، وشفتاها مطبقتان كأن قبلة الأسف طبعت عليهما . كانت لى رفيقة فى الصغر : تعلمنا شهورا فى مدرسة واحدة ، ودرسنا أمثولة واحدة ، وسمعنا إرشادا واحدا ، وكبرنا فكانت تلك العلاقة الواهية متينة بيننا .

قلت : مالى أراك حزينة ؟

قالت : يحزننى الربيع .

قلت : أخبرينى ما بك ؟

قالت : يحزننى الربيع . يحزننى أن أرى مواكبه الجميلة تسير فى الفضاء فلا يراه البشر إلا من كوى ضيقة نقبت فى الجدران الحديدية التى أقامها المجتمع حول الأرواح ، ويحزننى ألا أكون مستقلة بكوتى ، وأن يكون للآخرين حقوق عليها ، يفتحونها ويغلقونها كيفما شاءوا ، لا مثلما أريد .

قلت : ماذا يحزنك ؟

قالت : يحزننى الربيع . تحزننى هذه الأزهار الزرقاء والصفراء والحمراء . إنها تنور على أطراف الأغصان ، وتبرز جمالها وسط جمال الكون . إنها تستنشق الهواء بكل ما فيها من قابلية ، وتتمتع بالحياة بكل ما فيها من استعداد ، فلماذا قدر على بنى الإنسان أن يكونوا دون النبات حرية ؟

قلت : قولى لى سبب حزنك !

قالت : مسألة تافهة أعادت إلى التأمل فى هذا الصباح ، كما نبهته فى قبل الآن . لى شقيقة تقطن الأسكندرية مع زوجها ، ولى بها ولع ، ولها بى ولع عظيم ، فنتكاتب مرة فى الأسبوع على أن تمر رسائلها تحت نظر والدى ووالدتى وأخى وأختى وأخى الأصغر ، حتى تنتهى إلى بالتالى ، لأنى أحدث أفراد العائلة سنا ، ولا يلقى خطابى إليها فى صندوق البريد إلا بعد أن يطلع عليه وينتقده ذوى ، مع أن مراسلتنا عادية ساذجة ، لا أهمية لها إلا بكونها جزءا من حياتنا . وليس لدى من سر أخفيه ، ولكنى أريد أن أحفظ حقى فى أن يكون لدى أسرار . وهذه المعاملة تعذبنى منذ شهور ، لأنها تنم عن ضعف ثقتهم بى ، وأنا لم أفعل قط ما يستوجب سوء الظن . وصرت أتألم كلما وردت إلى رسالة لأنها تذكرنى بأن فى بيتنا قلم مراقبة منظم .

ورفعت رأسها ناظرة إلى الزهرات الفرحـــة بأنفاس الربيع ، وأرسلت زفرة عميقة ، ثم قالت :

معاملة كهذه تحملنى على الشك فى صلاحى وكرامتى . وقد يدفعنى الغيظ والكبرياء إلى فعل ما لا أفعله لو كان لأهلى بى ثقة . النبات حر ، فلماذا لا يكون الناس أحرارا ؟

* * *

مسألة تافهة فى ذاتها ، ولكنها تتكرر بين الوالدين والأبناء فتفضى إلى أحد اثنين : التمرد أو العبودية وكلاهما سيء . بل العبودية

وحدها معقوتة ، والتمرد نبيل فى الغالب يدل على القوة والحياة . ولكن كثيرا هم الأبناء الذين يجدون ضغط الوالدين على حريتهم أمرا طبيعيا ، فلا يتألمون ، لأن نفوسهم عقيمة قاحلة لا ينمو فيها غير الشوك والعوسج .

يتألف التهذيب من أعمال وحركات متتابعة مدة أعوام بين الآباء والأبناء ، كما يتركب تمرين الأعضاء من حركات مستطردة يأتيها الفرد فى أوقات معينة ، فتكسبه خفة ورشاقة وانتظاما .

وإن لم يروض المرء أعضاءه ضعفت وأمست ضخمة الشكل بطيئة الحركة ، وقد يذهب به الجمود إلى فقد الصحة . فما الخلل الذى نراه الآن فى تربيتنا إلا نتيجة جمود الأعضاء المعنوية من نشء الأجيال الماضية ، ولأننا جميعا عبيد الجهل المقيم ، والضغط القديم .

لماذا تراقب مراسلات الفتيات ؟ سمعت عن رجل ينهى شقيقته عن مراسلة صديقة لها خوفا من أن يطلع أخوها على تلك الرسائل ، ثم اتصل بى أن ذلك الرجل الذى يظن نفسه حرا أبيا يقضى ليله وشقيقته هذه حول طاولة البوكر مع شبان آخرين وفتيات أخريات ، ورأيته وإياها يحتسيان الجعة فى حانة يتصاعد فى جوانبها لهاث السكارى . ورأيته فيما بعد داخلا بها عارية النحر والذراعين إلى المرقص ، لتنتقل على وفق الإيقاعات الموسيقية من يد رجل إلى يد آخر . فضلا عما يجيزه « تمدينا » الحديث من مداعبة كلامية يسميها الغربيون «فلورت» ويستعملها كثيرون منا دون أن يحاولوا إيجاد اسم لها .

فكيف نوفق بين النقيضين ؟ بين التساهل فى قبول العادات الأوربية

المتفشية بيننا ، وبين الاستعباد الشرقى الراكد فى مستنقعات نفوسنا ؟
إن هذا الخلل فى توازن التربيـة يعذب الشبيبة ويجعلها أليفة الحيرة والتردد ، جاهلة بهماقيمةالحياة . إنما الحياة فىقيمة ننسبها إليها . فكيف نهتدى إلى قيمة الحياة التى لا تبرز إلا للمنتبه المتيقظ الواثق من حريته فى القول والعمل . كيف نهتدى إليها فى هـذا التناقض المبين : تناقض الضغط الشديد والتهور المجازف ؟

* * *

إنما التربية ترمى إلى غاية واحدة ، هى توسيع دائرة الحياة ، وتأهيل الفرد للسير بحذق والتصرف باعتدال بين تشعب الشئون ، مستخرجا وسائل السعادة والفائدة مما يحيط به . فإن لم تكن هذه الغاية نصب عيون الوالدين ، ولم تثقف الناشئة على مبادىء التهذيب القويم فقدت آمالنا بالمستقبل القريب . وأول قواعـد التهذيب معرفة الواجب ، وشرط معرفة الواجب الشعور بالحرية .

أقول الحرية وأعنيها ، وهى ليست الاباحية كما يزعم كثيرون ، والفرق بينهما أن للواحدة حدودا تهدمها الأخرى وتتجاوزها .

على الوالدين أن يقوموا بما عليهم نحو الأبناء ثم فليتركوهم وشأنهم ، يأتون ما يميلون إليه . والضمير الحى يراقبهم ، والخلق القويم يحميهم . فإن جاء عملهم بخير كان فيه تعزية وتشجيع على المثابرة والإقدام ، وإن جاء بشر كان أمثولة مفيدة ، ومادة اختبار ينتفـع بها فى الكوارث والرزايا المالئة سبل العمر .

كل امرىء يحيا حياته وعليه أن يجد طريقه بين متشعب المسالك ، وهو مسئول عن كل عمل يأتيه ويتحمل نتائجه إن فائدة وإن أذى . فالفتاة التى اعتادت الانقياد لآراء والديها وعجزت عن إتيان عمل فردى تدفعها إليه إرادتها بالاشتراك مع ضميرها ، ما هى إلا عبدة قد تصير فى المستقبل « والدة » ، ولكنها لا تصير « أما » وإن دعاها أبناؤها بهذا الاسم . لأن فى « الأمومة » معنى رفيعا يسمو بالمرأة إلى الأشراف على النفوس والأفكار . والعبدة لا تربى إلا عبيدا ، ولا خير فى رجال ليس لهم من الرجولة غير ما يدعون ، إن هم سادوا فعلوا بالقوة الوحشية ، وهى مظهر من مظاهر العبودية . أولئك سوف يكونون أبدا أسرى الأهواء وعبيد الصغائر الهابطة بهم إلى حيث لا يعلمون : إلى الفناء المعنوى ، إلى الموت فى الحياة .

تربيتنا الناقصة جعلتنا نسىء الظن فى كل شخص وفى كل أمر . ريح سموم تهب على المجتمع فتصبغ الجو وما يحويه بلون قاتم خبيث . ولو أنصف الناس لحكموا على بعضهم بعـــدل وصدق فأراحوا واستراحوا . الخير أصل فى الحياة . وليس الشر شرا إلا لأننا أشرار . ولا ظلام حولنا إلا الظلام المنبثق من شكوكنا وأحزاننا ومطامعنا .

احتياجنا شديد إلى مثل هذه الكلمة : « ثقوا بالإنسان » .

أما جاءكم خبر ذلك العالم الألمانى الذى كان يدفع إلى ابنته البالغة من العمر ١٦ سنة رسائلها مختومة ، ولما لامه أحد أصدقائه أجاب : « ثقتى بالفطرة النسائية عظيمة، لا أقرأ رسائل ابنتى بل أعرض عليها

رسائلي . وعوضاً عن أن أشحن دماغها بآرائي ونصائحي التي قد لا تتفق مع ظروف حياتها ، أسألها رأيها في كل ما يشكل عليّ من الأمور فالمرأة أوفر من الرجل نبلا ، لأنها أقرب منه إلى سرائر الأحوال ، وقلب الأشياء » .

مع هذا الرجل الحكيم أقول : ثقوا بجوهر المرأة !

ثقوا بابنة اليوم تجدوا أبناء الغد أهلا للثقة .

# وصف غرفة فى مكتبة

أستخرج هذه الصفحة من فصول لم تنشر بعد ، كتبتها تحت عنوان « مذكرات الجامعة المصرية » لسنة ١٩١٦ . والغرفة التى وصفتها تابعة لمكتبة الجامعة ، وهى اليوم مركز سكرتارية المكتبة . أما يوم كتبت فيها فكانت خالية ، يجتمع فيها الطالبات إذا جئن قبل ابتداء الدرس الذى يقصدن حضوره . ومنهن الفرنساوية والإنجليزية والروسية واليونانية والإيطالية والبلجيكية والسورية . ولم تخل تلك الاجتماعات إلا من الفتاة المصرية ، وهى الحقيقة بحضور الدروس أكثر من غيرها ، لأن الجامعة جامعتها أكثر منها جامعة الأجانب .

كنا نجتمع هناك كمؤتمر دولى التأم لعقد الهدنة وتقرير شروط الصلح ، أو كمؤتمر نسائى غرضه المطالبة بحقوقه والمجاهرة بمطالبه . ولكن الأحاديث الدائرة بيننا لم تكن لتدل على ذلك بل كانت مقتصرة على أخبار الكونسرتات والسينماتوغرافات والأزياء وأشكال البرانيط الحديثة ، ويتخلل هذه الثرثرة النسائية المحضة ضحك « يدب دبيبه » فى كل موضوع تجاذبت أطرافه فتاتان ، فكيف به إذا صار ضجة فتيات كثيرات ؟

من عجائب الحديث النسائى أن السيدات إما يصغين جميعا ولا تتكلم منهن واحدة ، وهذا نادر ، وإما يتكلمن جميعا فى آن واحد ولا تصغى منهن واحدة ! وكانت الحال الثانية حالنا فى اجتماعاتنا ، نظل عليها حتى يعرض لنا ذكر موضوع الدرس ، فيهدأ ضجيجنا بغتة ونصغى جميعا إلى

المتكلمة فينا ، ولا نحجم عن بث الآراء والمناقشة أحيانا ، ونبقى عاقلات حتى يمر فى الحديث خيال نكتة صغيرة فنعود إلى الثرثرة والضحك المنقطع المتواصل .

اجتماعات لطيفة كاجتماعات الفتيات فى كل زمان ومكان ، ولكننا لم نكن نهتم « بسر » الغرفة التى تجمعنا جدرانها ، ولم أنتبه إلى ذلك « السر » إلا يوم وجدتنى هناك وحدى ناظرة إلى ما نشر على الجدران من رسوم أعاظم الكتاب والمفكرين

* * *

يقال إن فى العالم نحو ثلثمائة جامعة . ولئن كانت الجامعة المصرية أحدث هذه الجامعات سنا ، وأقلهن فائدة مادية ، لأنه ليس لألقابها حروف شتى يحررها الطلبة وراء أسمائهم — فهى مع ذلك آخذة مكانها بينهن ، ولها ميزة خاصة بكونها جامعة أهلية (١) .

على أنها ليست الجامعة الأولى فى الشرق الأدنى .

إن الأزهر الشريف أقدم جامعات الشرق والغرب ، لأنه تأسس فى القرن العاشر ، فى حين أن أقدم جامعات أوربا — وهما جامعتا بولونيا وباريس — لم توجد قبل القرن الثانى عشر .

يجلل الأزهر وقار القدم ، غير أن بابه مقفل فى وجه غير المسلمين ، وتعاليمه دينية لغوية فى الغالب ، فهو فى نظر كثيرين حلم عميق للمرء أن يذكره ويحدث عنه ، ولكن لمسه ليس بالأمر الميسور . أما الجامعة

---

(١) كتب هذا المقال يوم أن كانت الجامعة غير حكومية .

المصرية مفتوحة للجميع ، ولا تقلل من فضلها حداثة سنها . إن كل صغير محبوب لأنه يطلب العطف . كل صغير مستودع آمال كبيرات لأن له قابلية النمو والتكاثر .

قال ألفريد ده موسيه — وهو الشاعر الذى أعطى قوة التعبير عن أعمق العواطف بألطف الألفاظ — : « كأسى صغيرة لكنى أشرب من كأسى » . وعلى هذا القياس للمصريين أن يقولوا : «جامعتنا صغيرة لكننا نتعلم فى جامعتنا » .

* * *

ليست الجامعة منهل علم لطلبتها فحسب ، بل هى مهبط وحى لى حين أبلغها قبل ابتداء الدرس الذى أبتغى حضوره بدقائق أقضيها منتظرة متأملة .

فكم من فكر أنسانى ما يحيط بى من آثار الحياة ! وكم من تأمل التقط موضوعه نظرى بين وريقات شجرة خضراء تتمايل أمام النافذة ! وكم من حلم لمحت خطوطه مرسومة فى جو قاعة الدرس وألوانه متخللة خيوط الأشعة المطلة علينا ! أفكار وتأملات وأحلام رفرفت على جبنا ، وغنت فى نفسى كالأطيار ، ثم فتحت جناحها الذهبى ساعة جاء الدرس ينبهنى ، فتحت جناحها وانطلقت تعدو إلى آفاق قصية أجهلها وأحبها ، لأن لى فيها أطيارا خيالية .

أنا الآن فى غرفة صغيرة تابعة لمكتبة الجامعة ، وليس فى هذه الغرفة من الكتب إلا ثلاثة أجهل اسمها ولغتها لأنها خفيت تحت كتاب رابع

من تأليف مارمونتل . وهذا أديب فرنسوى لم يتفوق فى موضوع من الموضوعات الكثيرة التى عالجها ، بل اكتفى بالإجادة فيها جميعا ! إجادة معتدلة . تاركا البراعة والتفوق لأستاذيهما الكبيرين: ڤولتير ، وروسو . روسو الذى حاول تكوين مجتمع جديد بقلمه القادر البليغ ، وملأ العالم ندبا ورثاء . وڤولتير الذى كافح القيود الدهرية برأس قلمه الرشيق النافذ كالسهم إلى أعماق الأفكار ، وبابتسامته الخالدة التى يرى فيها أتباعه فجر الحرية المنبثق من ليل العبودية الأليل .

إن للأمكنة أرواحاً وفى هذه الغرفة الصغيرة روح تناجينى ، وسر أطمع فى اجتلاء غوامضه . كل ما يحيط بنا فى الحياة سر ولغز ، لكن حواسنا المثقلة بأحمال المادة تحجب عنا الأنوار ، فلا نرى الأشياء وجودا ، ولا ندرك لها حقيقة ، إلا بقدر ما تتفق معانيها مع أطماعنا وشواغلنا .

كلما رأيتنى وحدى فى هذه الغرفة شعرت بأن فى جوها روحا ! أهى مجموع أرواح النوابغ الحاضرين هنا برسومهم وبخيالات الأفكار المطلة من أحداقهم ؟

نهضت أمشى فى الغرفة ، أمشى وأفكر . ووراء الطاولة التى أكتب عليها صورة سفينة ركبت من البحر جوادا حرونا ، وسارت تقطع الأمواج الكبار بقوة وثبات . وتحت السفينة إطار حوى ورقة ممزقة وفيها بعض السطور الهيروغليفية .

الكتابة الهيروغليفية قرب الباخرة ! إن جوار هذين الرسمين لرمزى : السفينة فينيقيا ، والخطر الهيروغليفى مصر ، فينيقيا ومصر !

المدنيتان القديمتان اللتان بزغت منهما مدنياتنا الحديثة،وانحدرت من ذراريهما تواريخ ذرارينا ، ترى هل وقفنا على جميع ما فيهما من الأسرار وعرفنا كل ما كان عندهما من علم وفن ومقدرة وسلطان ؟ أم نحن فى ذلك مدعون دعوانا فى سائر أقسام المعرفة ؟

قبل أن يكتشف كولمبس القارة الأمريكية بقرون طويلات ، كانت سفن الفينيقيين تضرب فى البحر طولا وعرضا ،وقدعين التاريخ خطوط رحلاتها ،ولكن أى شىء أجهل من العلم إن لم يكن التاريخ؟ومن يدرينا ما إذا كانت اليد التى شادت الأهرام ، وأقامت الهياكل المتراكمة اليوم بقاياها على رمال النيل هى غير اليد التى أوجدت هياكل ترى الآن أنقاضها فى أواسط أمريكا،ونحتت ما عثر عليه لورد دوفرن من مسلات مصرية ونقوش شرقية فى كولومبيا البريطانية ؟.

والتليفون الذى أراه فى زاوية الغرفة على مقربة من الكرة الأرضية أهو اختراع هذا العصر لحسب ؟ ألم تكن من نوعه الآلة التى يقال إنها كانت مستعملة عند كهنة إيزيس وأوزوريس لمخاطبة كهنة الهياكل الأخرى من أقصى البلاد إلى أقصاها ،خلال الاحتفالات السنوية الكبرى والاجتماعات الدينية. ولماذا لا يقوى العلم الحديث على استخراج الأرجوان من الأصداف كما كان يفعل الفينيقيون ؟لماذالا يخرج لنا ألواناً ثابتة لا تنفض نضارتها كألوان هياكل الأقصر ؟

أكان أجدادنا جاهلين أم نحن لهم ظالمون ؟ أم كل الفرق فى أن العلم كان عندهم محصوراً ضمن الأقلية المنتخبة ، وقد أصبح فى زماننا « حصة من جد اعتزاماً ؟ »

***

ولكن لنتابعن سيرنا فى الغرفة .

فى منتصف الجدار إلى اليمين صورة هوغو فى شيخوخته ويده تحمل جبهته المثقلة بالأفكار العظيمة . كأنما هو فى جلوسه يناجى الأجيال قائلا : ها أنذا ! أنا هوغو الذى أنالته الحياة مجداً وثروة وحباً . أنا ذاك الذى شاخ فى المنفى فكان سعيداً فى الشقاء . أنا ذاك الذى بحث عن نوابغ الماضى ودون أسماءهم تاركا بعدها مكاناً واسعاً لاسم جديد. والاسم الذى أعنى إنما هو اسم الرجل الجالس هنا حاملا على يده جبهته المثقلة بالأفكار العظيمة : فيكتور هوغو .

وإلى شمال هوغو أرى الفيلسوف الرياضى ديكارت الذى قال فولتير فى وصفه إنه جعل العميان يبصرون ، إذ بين للقرن الخامس عشر أغلاط القرون الخاليات ، وجعل شعاره هذه الجملة : « لتبلغ الحقيقة يجب أن تنسى مرة فى حياتك جميع الآراء والاعتقادات التى شببت عليها ، ثم تقيم أسساً جديدة لآراء واعتقادات شخصية ».

إلى شمال ديكارت أرى بوسويه أسقف «موو» . ترى بأى شىء يسر ديكارت إلى بوسويه فى ساعات الوحدة، وبماذا يجيب الأسقف الكاثوليكى؟ ليت لى من سبيل إلى التجرد من جسدى حيناً لأسمع محاورتهما ولو مرة واحدة ، ولأعلم كيف يتناقش العلم والدين فى عالم الأرواح !

على يمين هوغو موليير الشاعر الفذ الذى ملأ رواياته ، وراء لهجة الاستخفاف والظرف والتنكيت ، انتقادات اجتماعية وعلمية ودينية ، وعلم أهل زمانه الضحك من أنفسهم غير متذمرين .

وعلى يمين موليير وجه نحيف جذاب . من هذا ؟ لو نسى مصورك كتابة اسمك تحت رسمك ، لو درست آثار فكرك وعلمك وانتقادك وطمس الزمان كل ما أيده قلمك ، لو أكلت النار وجهك غير مبقية إلا على شفتيك لعرفتك يافولتير ! يالفمك من فم هائل فى كلامه ، هائل فى بسمته ، هائل فى سكوته ، حتى فى سكوت الصور !

تحت هوغو إطار ذو رسمين يمثل أحدهما راسين والآخر بوالو . ولو أنصفت الجامعة لوضعت راسين فوق هوغو ، وأقصت النظام بوالو عن الشاعرين . لكنى أفهم أن صورة هوغو عندها أكبر من صورة راسين . كذلك تسير مواكب الحياة! فكثيرا ما يقطن الأكبر تحت الكبير ، ويقف الأحسن دون الحسن ، ولكل أن يرضى بما قسم له ، لأن الزمان شاء ومشيئته لا تتغير .

من زاوية فولتير إلى الباب تمتد مكتبة صغيرة خالية مما وجدت له تتجلى فوقها صورة امرأة عظيمة : مدام دى سيفينيه ! كم تسرنى رؤية هذه المرأة قرب هؤلاء الرجال ! كأن وجودها هنا عنوان اهتمام الجامعة بالفتيان والفتيات على السواء ، وكأن صورتها على هذا الجدار صوت يستحث الفكر النسائى قائلا : إلى الأمام !

على الجدار المقابل لجدار فولتير صورة فينلون « أسقف كبرى » مؤلف كتاب « تلياك » المفعم بالانتقاد الدقيق الخفى لحكومة لويس الرابع عشر وللملك العظيم نفسه . وإلى جانبه معاصره الشهير « كورنيل » واضع الروايات البديعات اللاتى ما برحن ميدانا فيه الحب والواجب يتنازعان

وعند الباب هيكل عظام بشرى إلا أنه صنع من خشب الجوز ، أومن خشب آخر دهن بهذا اللون . كل ما هنا يساعد ما فى جواره لجعل هذه الغرفة كبيرة فى صغرها ، عظيمة فى سذاجتها .

صدق القائل أن للغرف أرواحا .

أحب روح هذه الغرفة الممزوجة من أرواح شتى .

وهل من مخبر بما رأته هذه الجدران ، قبل أن تكون للجامعة ، من أتراح وأحزان ، وبما شهدته من تقلبات الحدثان ؟

لعلها سمعت تنهدات لم يأن لها قلب ، أو رأت قلبا وحيدا لم يشاركه فى ابتهاجه مشارك ؟

لعلها رأت دموعاً سخينة لم تمسحها اليد الرحيمة ؟

ڤولتير ! هوغو !

لو تكلمت الجدران لكانت أتم منكما بلاغة ، وأعمق تأثيرا !!

# عام سعيد

كلمة يتبادلها الناس فى هذه الأيام ، ولا يضنون بها إلا على المتشح بأثواب الحداد . فإذا ما قابلوه جمدت البسمة على شفاههم ، وصافحوه صامتين ، كأنما هم يحاولون طلاء وجوههم بلون معنوى قاتم كلون أثوابه .

ما أكثرها عادات تقيدنا فى جميع الأحوال ، فتجعلنا من المهد إلى اللحد عبيداً ! نتمرد عليها ثم ننفذ أحكامها مرغمين . ويصح لكل أن يطرح على نفسه هذا السؤال : « أتكون هذه الحياة «حياتى» حقيقة ، وأنا فيها خاضع لعادات واصطلاحات أسخر بها فى خلوتى، ويمجها ذوقى، وينبذها منطقى ، ثم أعود فأتمشى على نصوصها أمام البشر »؟

يبتلى امرؤ بفقد عزيز ، فيعين له الاصطلاح من أثوابه اللون والقماش والتفصيل والطول والعرض والأزرار ، فلا يتبرنط ولا يتزيا ولا ينتعل ولا يتحرك ، ولا يبكى إلا بموجب مشيئة يبثته المسجلة فى لوائح الحداد الوهمية ، كأنما هو قاصر عن إيجاد حداد خاص يظهر فيه — أو لا يظهر — حزنه الصادق المنبثق من أعماق فؤاده .

إذا خرج المحزون من بيته فلا زيارات ولا نزه ولا هو يلتقى بغير الحزانى أمثاله . عليه أن يتحاشى كل مكان لا تخيم عليه رهبة الموت ، المعابد والمدافن كعبة غدواته وروحاته، يتأمها وعلى وجهه علامات اليأس والمرارة .

وأما فى داخل منزله فلا استقبالات رسمية ، ولا اجتماعات سرور . ولا أحاديث إيناس . الأزهار تختفى حوله ، وخضرة النبات تذبل على شرفته ، وآلات الطرب تفقد فجأة موهبة النطق الموسيقى ، حتى البيانو أو الأرغن لايجوز لمسه إلا للدرس الجدى ، أو لتوقيع ألحان مدرسية وكنسية ، على شريطة أن يكون الموقع وحده لا يحضر مجلسه هذا أحد ، أما القرطاس فيمسى مخططاً طولا وعرضاً بخطوط سوداء يجفل القلب لمرآها .

كانت هذه الاصطلاحات بالأمس على غير ما هى اليوم ، وقد لايبقى منها شيء بعد مرور أعوام . ولكن الناس يتبعونها الآن صاغرين ، لأن العادة أقوى الأقوياء وأظلم المستبدين .

إن المحزون أحق الناس بالتعزية والسلوى ، لسمعه يجب أن تهمس الموسيقى بأعذب الألحان ، وعليه أن يكثر من التنزه ، لا لينسى حزنه فالحزن مهذب لامثيل له فى نفس تحسن استرشاده ، وإنما ليذكر أن فى الحياة أمورا أخرى غير الحزن والقنوط .

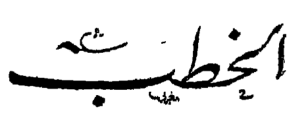
ألا رب قائل يقول إن المحزون من طبعه لا يميل إلى غير الألوان القاتمة والمظاهر الكئيبة . إذن دعوه وشأنه ! دعوه يلبس ما يشاء ، ويفعل مايختار ! دعوا النفس تحرك جناحيها وتقول كلمتها ! فللنفس معرفة باللائق والمناسب تفوق بنود اللائحة الاتفاقية حصافة وحكمة .

بل أرى أن أخبار الأفراح التى يطنطن بها الناس كالنواقيس ، ومظاهر الحداد التى ينشرونها كالأعلام ، إنما هى بقايا همجية قديمة من نوع تلك العادة التى تقضى بحرق المرأة الهندية حية قرب جثة زوجها .

وأنى لعلى يقين من أنه سيجيء يوم فيه يصير الناس أتم أدباً من أن يقلقوا الآفاق بطبول مواكب الأعراس والجنازات ، وأسلم ذوقاً من أن يحدثوا الأرض وساكنيها أنه جرى لأحدهم ما يجرى لعباد الله أجمعين من ولادة وزواج ووفاة .

وتمهيداً لذلك اليوم الآتى أحيي الآن كل متشح بالسواد ، أما السعداء فلهم من نعيمهم ما يغنيهم عن السلامات والتحيات ، أحيي الذين يبكون بعيونهم ، وأولئك الذين يبكون بقلوبهم ، أحيي كل حزين ، وكل منفرد ، وكل بائس ، وكل كئيب ، أحيي كلا منهم متمنية له عاماً مقبلا أقل حزناً وأوفر هناء من العام المنصرم .

نعم ! للحزين وحده يجب أن يقال : عام سعيد !



# حفلة الكوخ الأخضر

في صيف سنة ١٩١١ ذهبت الآنسة (مي) إلى لبنان مصطافة ومستمتعة ، وكانت شهرتها الأدبية قد سبقتها إلى الجبل الأشم ، فاحتفى بها اللبنانيون كعادتهم. وبنى لها فارس «مشرق» كوخاً أخضر على جبل مرحاتا في شهور الشوير ، وأقيم حفل أنيق بمناسبة الانتهاء من تشييد الكوخ وإقامة مي فيه، ورأس الحفل وجيه من أسرة أبي اللمع المعروفة ، والتقى لفيف من الأدباء والشعراء والمفكرين والمهتمين بالأدب . فألقت مي فيه الخطبة التالية :

لا أجرؤ على رفع كأسي لأن من رفع كأسه في مثل هذا الموقف وجب عليه تأدية الثمن كلاماً بليغاً . وأنى لي البلاغة ؟ أنا التي يتعثر لساني في اللفظ العربي البسيط ؟ وكيف أجيء بالكلمة المحكمة ، أنا التي لا أعرف شيئاً ، وقد فاجأتني عنايتكم بقول جميل منظوم ومنثور، وثناء قد يستحقه عالم قضى عشرات الأعوام في البحث والتنقيب والإنتاج ، ولكنه يدهش فتاة مازالت عاكفة على كتب التلمذة الأولى ، تستظهر من الدروس ما يستظهره طلبة المدارس الابتدائية تقريباً! وتهيء فروضاً اعتاد التلاميذ تهيئتها خلال العطلة الصيفية . لم يبن هذا الكوخ لهذه الفروض وتلك الدروس فحسب ، وإنما أردت أن يكون لي أيضاً خلوة أحلم فيها ، وألعب وألهو ، ولكنكم تجمهرتم قربه ودشنتموه كما تدشن الصروح الكبيرة ، ورفعتم فوقه علماً يخفق بين الغصون، وأثرتم حوله في هدوء الغياض تصفيقاً وإنشاداً .

فلمن فعلتم ذلك ؟ ولماذا أنتم فاعلون ؟

لو علمت أن الاحتفاء بى وحدى مجردة ، لحبس الخجل كلمة الشكر على شفتى ، ولاختلجت يدى وهى تحمل الكأس . ولكنى أعلم أن الغاية من هذا التكريم أبعد من أن تحصر فى فتاة ، وأعظم من أن توجه إلى فرد ، وإنما الغاية منه تشجيع الفتاة الشرقية عموماً التى تقولون لها فى شخصى: إن فى الشرق روحاً جديدة تطلب نهضتها ، وأن عيونكم ترقبها ، وقلوبكم ترعاها ، منتظرة ماينم عن رغبتها فى النهوض ، أو عن مجرد ميلها إليه لتمدوها بالقوة والتنشيط الممكن .

دفعتكم هذه الروح الجديدة إلى تحين الفرص فاتخذتمونى واسطة، أيها السادة أعضاء لجنة الاحتفال . اتخذتمونى واسطة وأردتم أن يكون هذا الكوخ حجراً معنوياً فى صرح النهضة النسائية ، ورمزتم بهذا العلم إلى راية تحرير العقول من الخرافات والأوهام . وما كانت أصوات الهتاف إلا أصوات نفوس تحث المرأة والفتاة العصرية على السير إلى الأمام . إلى الأمام ! هذا ما أردتم أن تقولوا . وأنا التى اتخذتمونى واسطة لإظهار هذه الرغبات الحية والعواطف النبيلة أرانى الساعة ممتلئة بكرامة وأهمية لم أشعر بها من قبل . تلك نتيجة المسئولية دواماً ، وغداً عند ما أعبر عتبة هذا الكوخ الصغير الذى جملته حفاوتكم عظيما ، سأنظر إليه بعينين جديدتين ، فيتخذ انفرادى فيه معنى أسمى وأجل من أحلام الفتاة وأهوائها وألعابها ، لأنكم نبهتمونى إلى أنه على فتاة هذا الجيل أن تهدم حدود شخصيتها الفردية الضئيلة لترى المجموع ممثلا فى ذاتها ، فتنتفع لتنفعه ، وتسير لتسيره ، وترتقى لترقيه .

كلكم تقريباً أيها السادة أعضاء لجنة الاحتفال من أبناء

سوريا (١) الذين انطلقوا إلى ماوراء البحار باحثين عن ميدان واسع يمرنون فيه قوى نشاطهم وذكائهم الفطرى . وها قد ألقيتم خلال إقامتكم القصيرة فى بلادكم ، شرارة الحياة فى دائرة الحركة النسائية . ستعودون أنتم إلى ديار استوطنتموها ، ولكن الشرارة هنا لن تخمد .

وبالشخصية الجديدة التى أنلتمونى أرفع الجبهة عالياً ، وأرفع الكأس بيد ثابتة ، والفخر فى يتغلب على التأثر والخجل ، وأشرب نخبكم جميعاً شاكراً اللجنة التى نظمت هذا الاحتفال ، والأمير قبلان أبى اللمع الذى تصدره ، والخطباء الذين جملوه ببيانهم ، والسادة والسيدات الذين زانوه بحضورهم . ولما كان من أهم دواعى سرورى أن أرى مصر وسوريا متحاذيتين فى هذا الاجتماع وأن أسمع الخطيب المصرى يتلو الخطيب السورى مشتركين فى الهتاف لمصر وسوريا على هذه القمة البعيدة ، فإنى أشرب أيضاً نخب القطرين الشقيقين من هذه الجرعة الواحدة . لتحى مصر وسوريا ! ولتحيوا جميعاً .

---

(١) سوريا هنا بمعناها الواسع الذى يشمل لبنان والأقليم السورى وفلسطين قبل التقسيمات التى أعقبت الحرب العالمية الأولى . «المؤلف»

# المرأة والتمدن

أقيم فى النادى الشرقى بالقاهرة — فى مساء من شهر أبريل سنة ١٩١٤ — حفل شهده جم غفير من أعضاء النادى، وزوجات الأعضاء وبناتهم . وكان تمثيل المرأة العربية فى هذا الحفل باعثاً للكاتبة الخطيبة مى على إلقاء الخطبة التالية :

كلمة شكر أقدمها إلى سعادة رئيس هذا النادى «سكاكينى باشا» وحضرات أعضائه الكرام . إنى أشكر لهم حسن ظنهم بى ، وأبى الدعوة التى شرفونى بها بغاية السرور .

حسن أن يقف المرء فى وسط قومه — ولو مرة فى العمر — مناجياً من نفوسهم ذلك الجزء الأكثر حساً بما يتراكم على قلبه من الأفكار الجميلة المضنية ! ساكبا أمامهم بعض ما يجول فى نفسه من الأمانى العزيزات والرغبات الحارات .

نادٍ شرقى يزينه حضور شرقيون . إن نفسى الشرقية لتهتز طرباً لهذا الموقف ، وسأتكلم بصراحة وثقة ، كأنى الطفلة الأولى من عائلة كبيرة ذات لطف وتسامح . طفلة تتكلم بلا خوف ولا وجل مسترسلة لرعاية من هم حولها ، مستبشرة بدلائل الانتباه البادية فى أنظارهم ، وابتسامة التشجيع المرتسمة على شفاههم ، ولا محل للعجب إذا تجاسرت على الكلام فى ليلة تسمعكم صوت الدكتور نمر (١) .

---

(١) هو المغفور له الدكتور فارس نمر أحد أصحاب المقتطف والمقطم .

إن الساقية الصغيرة لا تفقد معناها قرب النهر الكبير ، بل إن جمال تدفقه يكسب ضعفها قوة ، وتعطيها جيرته مجداً وفخراً .

## الموضوع

أيها السادة والسيدات : نحن فى فصل الربيع ، والحياة تنبض بقوة فى كل جزء من أجزاء الكون ، ونيسان[1] رسول الجمال ونبي النور يسلم أنفاسه الأخيرة تاركا جماله وأنواره فى ذمة أيار[1] ملك الورود . إذن لست بحاجة للبحث عن موضوع أحدثكم به ، فإن الفصل المار بنا يوحى إلى موضوعاً جميلا : الأزهار ، تلك المخلوقات العجيبة التى لا تراها نفس حساسة الا وتشعر بأنها إزاء سرغامض قد التف بألوان الحدائق والرياض وستر معانيه بعطورها . .على أن الوقت ليل ورداء الظلام يحجب عن النواظر وضوح الأشياء ، والأزهار التى تفتح فى النهار وريقاتها كأعلام نصر منشورة ، تنكمش لملامسة الليل لأن رطوبة الليل تذبلها . لكنى سأبدلها بزهرة أوفر منها جمالا ، وأتم شكلا ، وأدعى إلى التفكير ، وأحرى باهتمام ذوى القلوب الغيورة الرحيمة . تلك الزهرة التى تضم فى كيانها آيات الحسن الكبرى وأسرار الحنان الذى لا يدرك ولا ينقضى . تلك الزهرة التى يعذبها ظمأ الحرية ، وتتجاذبها العواصف ، وتتقاذفها صرعات الزمان منذ أجيال طوال فلا ينقصف غصنها ولا يلتوى . تلك الزهرة النارية التى تناول الدهور آمال المستقبل ، وتنقل من ذرية إلى ذرية قبس الحياة العظيم .

لقد عرفتم تلك الزهرة العجيبة ، هى المرأة !

---

(١) يقابل هذا الشهر شهر أبريل . أما شهر أيار فيقابله شهر مايو .

## تقهقر نصف الإنسانية

أيها السادة والسيدات :

لقد طافت المدنية أنحاء العالم وتلألأت أنوارها فى القارات الثلاث تباعاً . فى الشرق حيث جعلت أحاديث الأقدمين الفردوس الأرضى اتقدت شرارتها الأولى ، فكانت المدنية كالشمس بازغة من بلادنا ، وبعد أن نقلت خطوتيها الأوليين المجيدتين فى آسيا وأفريقيا تناولتها يد أوربا ورفعتها فى جو الجهل المظلم ، وهزتها كقبس سحرى قائلة : أنيرى العالم ! فاستنار العالم وغمرنا ضياء العلم الساطع . وكأنى بالمدنية ذكرت أنها أكثرت من الحسنات إلى العالم القديم ، فذهبت تسعى إلى ماوراء البحار البعيدة ، فى ذلك العالم الجديد الذى لاتقاليد تقف عثرة فى طريق نجاحه ، ولا هو موثق بسلاسل عادات قديمة تجعل الحياة على عاتق الأحياء عبئاً ثقيلا .

فى ذلك العالم البكر الذى قال فيه أحد كبار المفكرين : أن كولمبس اكتشفه بينا كان لوثر يحاول هدم العالم القديم .

أجل . لقد طافت المدنية أنحاء العالم ، ولكن ما حالنا بها ؟ لقد ظهرت معجزاتها فى اكتشافات البشر وعلومهم وفنونهم وأساليبهم وكيفية معيشتهم ، ألا أن الشقاء مازال شقاء . مازلنا نشاهد حولنا الحرب والفقر والمرض والقتل والانحطاط النفسى والعاهات الأخلاقية على تعدد أنواعها . وما برحت الشعوب تشكو حكوماتها ، والأوطان تشقى بأبنائها ، والعائلات تتعذب بأفرادها ، والأفراد تتوجع بميولها وتشقى بغرائزها المتناسخة عن وراثات بعيدة وقريبة . كلا ! إن المدنية لم

تأت بتمام واجبها بعد ، ولم تصلح من الأحوال إلا البعض اليسير أو المتوسط . وأنتم أيها السادة والسيدات تعلمون سبب ذلك النقص وتعرفون موضع الضعف من مدنية القرون المنصرمة ؛ ذلك الضعف الشائن والنقص الهائل ليس إلا تقهقر نصف الإنسانية ؛ هو جهل المرأة

قال هوجو : ليس الرجل وحده هو الإنسان ، ولا هو المرأة وحدها ، بل هما الإنسان ، والإنسان هما . كل جنس دون أخيه نصف فقط ، ولا يصير عدداً كاملا إلا إذا أضيف إليه النصف الآخر. لاصحة للمرء إلا لسلامة دماغه وقلبه ، ولا سعادة للرجل إلا لسعادة المرأة .

## تاريخ المرأة استشهاد طويل

سعادة المرأة !

سل عنها الدهور المتدحرجة في هاوية الزمان ، او كان للدهور لسان لأنبأتك بما يدمى الفؤاد . المرأة ؟ لقد جعلتها الهمجية حيواناً بيتياً ، وحسبها الجهل متاعاً ممتلكا للرجل يستعمله كيفما شاء ، ويهجره إذا أراد ، ويحطمه إذا خطر له في تحطيمه خاطر . كانت بعد ذلك عبدة شقية وأسيرة ذليلة ، ثم ارتقت مع مرور الأجيال إلى درجة طفلة قاصرة ، إلى لعبة يلهو بها السيد في ساعات الفراغ ، إلى تمثال بهرجة تتراكم عليه الأثواب الحريرية والجواهر الثمينة . ومن منا يدرى بما كانت تستره الأثواب الحريرية والجواهر الثمينة من قروح القلب الدامية التي لم يضمدها بشر ؟

تاريخ المرأة استشهادطويل أليم . ومن أغرب الغرائب أنها لم تجد

لها فى القدم صديقاً ولا نصيراً . كانت عامة الشعب تكرهها وتحتقرها ، وليس ذلك بكثير على قوم جاهلين . تحجرت منهم القلوب . وصمت الأفهام ، فهم لا يدركون شيئاً مما يتجاوز دائرتهم الصغيرة . لكنى أرى الأمر عجيباً ، بل فظيعاً ، من رجال نحسبهم نوابغ زمانهم وقادة أفكار العالم .

لم يذكر شعراء اللاتين من المرأة إلا جمال جسدها . وليس فى قصائدهم ما يدل على تلمس آثار النفس وراء ظواهر الجسد ، وجميعهم متفق على تسميتها الشيطان الجميل ! أو ينبوع المسرات السامة . وشعراء اليونان : أسخيلوس ، وأوريبيدس وغيرهما ، يسمونها — ببساطة كلية — بلية العالم . أما الفلاسفة فأكتفى بأن أذكر هنا كبيرهم أفلاطون ، أفلاطون الإلهى الذى يعتبره تاريخ الفكر أمة بأسرها ، أفلاطون ذا الأحلام الغامضة والمبادىء السامية ، الذى لم يترك موضوع إصلاح سياسى أو أدبى إلا عالجه رغبة فى إسعاد العالم — أفلاطون لم يفكر قط فى تحسين حالة المرأة ولم يهتم فى درس أخلاقها واستكشاف درجتها العقلية والاستعدادية . ماذا أقول ؟ ! إن أفلاطون هذا قضى حياته آسفا لأنه ابن المرأة ، وكان يصرح بازدرائه بأمه ، ويعتقد أن من كان جبانا من الرجال فى هذا العالم فعند ولادته مرة أخرى تتقمص روحه فى جسد حيوان أو فى جسد امرأة .. وما علم أفلاطون أن امرأة ستعلم الأفلاطونية الجديدة فى مدرسة الأسكندرية ، وأن تلك المرأة لا يمنعها شبابها الغض وجمالها الرائع أن تكون أعلم علماء عصرها ، تلك هى الفتاة هيباثيا ابنة ثيونوس الرياضى الشهير التى قتلت رجما فى شوارع الأسكندرية فى أوائل

القرن الرابع . فذهبت شهيدة علمها وإخلاصها ورغبتها فى إشهار التعاليم الأفلاطونية الجديدة .

## أول من رفع شأن المرأة

## صاحب الشريعة المسيحية وصاحب الشريعة الأسلامية

أيها السادة والسيدات :

أول من عطف على المرأة وأسمعها كلمات الإشفاق والغفران هو يسوع الناصرى . وهو أول من سوى بينها وبين الرجل ، إذ جعل لهما خطة واحدة تفضى إلى ثواب واحد . وإلا فللضالين عقاب واحد . على أن النصرانية حرمتها من وظائف الكهنوت . وما برحت طائفة من اللاهوتيين تراها قارورة الخطايا والآثام .

ثم جاء نبي الأسلام فرفع شأنها أى رفعة فى بلاد العرب ، إذ حرم وأد الفتيات وسواها بالرجل فى جميع الحقوق والواجبات ، إلا فى الشهادة والميراث . فإن امرأتين تساويان رجلا ، وفيما عدا ذلك فهى والرجل سواء فى جميع الحقوق المدنية . ويقول العارفون أن لها الحقوق السياسية أيضا . وللمسلمات أن يكن فقيهات ؛ وكانت أول فقيهة منهن عائشة زوجة صاحب الشريعة الإسلامية الذى قال لقومه : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

وعلى أن أذكر هنا اسمى بترار كا، ودانتى ؛ وهما أول من تلمس نفس المرأة من طغمة الشعراء والمفكرين ، لقد جعلا لقصائدهما عرائس

تتجلى فيهن ملكات الجمال الأدبي ، وهما اللذان تو ثما للمرة الأولى بالمرأة ذات النفس السامية والذكاء الوقاد ، ومقومة عثرات الجنس القوى .

من منا لا يعرف لورا ، وبياتريشى ؟ إن هذين الاسمين لا يفترقان عن اسمى بترار كا ودانتى ، وسيكونان أبدا المثل الأعلى الذى تود كل امرأة أن تكون صورة له . هذا المثل الجميل الذى مر فى مخيلة دانتى فصوره فى شعره الساحر قد اخترق ظلمات القرون الوسطى كبرق ساطع .

ثم جاء كبير شعراء العالم الحديث شكسبير ، فجعل أبطال أكثر رواياته من النساء الجميلات ذوات النفوس الكبيرة تتلامس فى قلوبهن بلطف يشبه تموج النور فى الهواء ، أقوى وأعذب شعائر المحبة بأسمى وأوجع عواطف التضحية . وكذلك كانت النساء فى روايات كورنايل ، وكلكم ذاكر بلا ريب بولين ، وكابل ، وشيمان . . . ألا تذكرون ؟

لم يكن جميع مفكرى تلك القرون من رأى شكسبير وكورنايل . بل كان معظمهم مبغضا للمرأة ، ساخراً بها ، إن لم يكن طاعنا فيها . وقد لخص بوسويه « أسقف موو » أفكار معاصريه وأوردها فى جملة واحدة . إذ قال بجديته الجبروتية المشهورة : « خلقت المرأة من ضلع زائد فى جنب الرجل ، فلهذا السبب هى عقيمة لاذكاء فى عقلها ، ولا إدراك فى نفسها » . رحمة الله عليك يا بوسويه ! إنك لم تكن نبيها ، أما كون المرأة مخلوقة من ضلع الرجل فهذا أمر لا رأى لى فيه — غير أنى أفضل أن تكون مخلوقة من عصير قلبه وعواطفه ، بدلا من أن تكون كوتليتا .. مصورة . وأما كون الضلع زائدة فهذه مسألة فيها نظر ، وعلى كل حال فلست متولية إثبات هذه المسألة التشريحية .. أو اللاتشريحية .

## لذلك كانت المدنية عرجاء

أيها السادة لننس هذه الأقوال العتيقة ، ولننظر إلى أحوال الحاضر .
إن النهضة النسائية تمتد يوميا فى أقاصى المسكونة . إنها لنهضة عجيبة تبشر بخير عظيم ، وتنبىء بأن مدنية الأمس العرجاء التى لم تتكىء إلا على جنس من الجنسين هى غير مدنية الغد الممتعة بتحقيق الأمانى . ليست مدنية الغد مدنية الرجل وحده ، بل هى مدنية الانسانية ، لأن المرأة آخذة بالصعود إلى مركزها الحقيقى بقرب الرجل . إن موجة النور ، نور الارتقاء النسائى ، تزداد ارتفاعا واتساعا مع الأيام . فى فرنسا وانجلترا وأمريكا وألمانيا وإيطاليا تجاهد المرأة جهاد الأبطال فى سبيل ترقية جنسها وترقية النوع البشرى معها ، ولقد نالت جميع حقوقها فى أسوج و نروج وفنلندا وزيلندة الجديدة وفى بعض الولايات المتحدة ، فهى الآن والرجل سواء ، أدبيا ومدنيا وسياسيا أيضا .

وفى كل من هذه البلاد كان تأثيرها نافعاً جميلا ، وحيث تقلدت الوظائف العمومية قد قلت الجرائم ، وخفت وطأة السكر ، وظهر تحسن محسوس يكاد يكون ملموساً فى مستوى أخلاق الأمة وفى حالتها الصحية جميعاً .

هذه هى المرأة الجديدة ومستودع آمال المستقبل

## ما تفعل المرأة التى قالوا إنها لا تصلح للخدمة

كم قالوا فيها إنها لا تصلح إلا للخدمة البيتية والزينة الجسدية ، وهاهو مصلحة كبيرة ومفكرة عاملة . وكم قالوا أنها حيوان جميل ، وشيطان لطيف ، وها هى ملك كريم يحاول إفهام الرجل أن فى الحياة عنصر

سامياً هو كل الحياة وكم قالوا إنها كاذبة خبيثة وأن الصدق والإخلاص بعيدان عنها بعد الشمال عن الجنوب ، وهاهى آخذة فى تهذيب نفسها وملاشاة العاهات التى شوهتها فى أزمنة العبودية . وكم قالوا إنهامترددة حائرة ذليلة لاتقوى على توليد فكرة . ولا تحتمل المسئولية ، وها هى عزيزة النفس شديدة الحرص على الاستقلال منحنية بحرقة على معانى الحياة العميقة . وكم قال فولتير إن فكرها سريع العطب وإنه يتحطم تحطما إذا حاول استفهام ناموس علمى . غريب أن يقول فولتير هذا القول،هوالذى استعان بامرأة على فهم كتابات نيوتن،وهى صديقتهمدام دى شاتليه ومعربة كتاب نيوتن فى ناموس الجاذبية . ثم اذكروا مدموازيل لابلاس ، ومارى كوالسكى ومدام كورى ، وعشرات من النساء المشتغلات فى العلوم الطبيعية والعلوم المجردة ، والمئات المشتغلات بالفنون والصنائع والحرف المختلفة . فى فرنسا خمسة ملايين من النساء يشتغلن عاملات فى قلوبهن المسئولية العائلية والهموم الكثيرة . يخترقن سبل الحياة المحفوفة بالكوارث والأوجاع داميات القلب ، ولكن شريفات النفس شريفات المقاصد . ومثل ذلك فى انجلترا وفىالولايات المتحدة حيث عدد المعلمات فقط يكاد يبلغ الأربع مائة ألف . ويقول الإحصائيون أن فى مصر نحو مليون ونصف من السيدات المتعاطيات الأشغال العمومية .

## قالوا أنه العلم يذهب بملاحتها

كم قالوا إن المعارف لم تخلق للمرأة وأن العلم يذهب بجمالها وتواضعها ولطفها ، وأنه يجعلها متكبرة جافية محتقرة العائلة هازئة بالرجل،وها نحن

نراها إذا تعلمت زادت جمالا وحناناً أكيداً واحتراماً للعائلة وإجلالا للرجل . إنها الآن تفهم معانى الحياة ، وتريد بكل قواها ترقية نفسها وإعلاء مداركها وتربية شخصيتها واستخدام ملكاتها فى بث الخير والسعادة حولها وعلى كل ما يحيط بها . المرأة الراقية وحدها تعرف أن لها فخراً رئيسياً واحدا ، وهو أن تكون أماً بكل معنى الكلمة وبجميع المعانى التى تحملها هذه الكلمة . وهى وحدها تعرف أنها كانت إلى اليوم والدة الجسد فقط، وتحاول أن تصبح أم الروح أيضاً ، أم العواطف ، وأم الأفكار وأم الميول ، والمهذبة الكبرى والصديقة العظمى .

## قالوا لا عقل لها

وكم قالوا إنها لا عقل لها ، وأن حياتها سلسلة أهواء متتابعة ، وتقلبات صبيانية تافهة ، وها إننا نراها بعيدة النظر ثابتة المقاصد، مغرقة منفعتها الشخصية فى بحر المنفعة العامة . انظروا إلى روسيا حيث النساء تتألم تألم الرجال وأكثر . روسيا حيث الثورة الفكرية تهيء حتما الثورة السياسية . كم من فتاة حسناء قد ضحت خطيبها ومستقبلها وهناءها حباً بمصلحة وطنها ، واشتركت فى جمعيات تظن أن فى تأييدها خيراً للبلاد.

## أنصار المرأة ومن هم

المتهكمون على المرأة كثيرون فى هذا العصر الفوضوى ، ولكن أنصارها أكثر ، وهم من ذوى النفوس الكبيرة والرءوس المفكرة، بل هم أسمى وأشرف رجال زماننا . إنهم يحترمون جهادها ويعترفون بحقوقها ويقرون بما تأتيه من الإصلاحات الباهرة ، ويعجبون بإقدامها وثباتها ، ويرون فى نهضتها أيدياً جديدة عاملة لخير الإنسانية وتخفيف الويلات عنها . أليس فيكتور هوجو هو القائل إن تحرير المرأة يحل

أكثر المشاكل الاجتماعية وبعض المدنية ، وأنها ينتظر منها وحدها إلغاء الحرب فى العالم ؟.

## شرارة الحياة فى مصر

## صوت المرأة من أعماق الدهور

وهو القائل أيضاً أن القرن العشرين هو عصر المرأة ولقد صدق فى نبوته ! فى كل مكان تفتح المرأة عينها لنور الحياة حتى فى أطراف الشرق الأقصى ، فى الصين واليابان وفى تركيا .

وها إنى أرى شرارة الحياة تشتعل فى مصر أيضاً حيث الرجال يساعدوننا بأقلامهم وبألسنتهم وبمثلهم . وجل ما يتمنون هو أن تستحق النساء عنايتهم واهتمامهم بأمرهن .

أجل ! فى مصر تتكسر القيود الدهرية التى طالما عذبت فكر المرأة، ونحن اليوم عند عتبة مستقبل باهر . فى مصر تشتعل شرارة الحياة . وإلا فماذا يعنى وقوفى بينكم أيها السادة ؟ وماذا يعنى سكوتكم الجميل المملوء إصغاء تاماً وتشجيعاً قويا وتفكيراً عميقاً ؟ أتكلم الآن بحرقة كأنى صوت المرأة الصامت منذ أجيال . وتستمعون إلى بإشفاق كأنكم نفس الرجل المشتتة منذ ابتداء الدهور . النفس الكبيرة المبعثرة تستجمع قواها للإصغاء ، والصوت الخافت الذى لم يتعود إلا همس الطاعة وتمتمة التمرد المبهم يرتفع الآن آتيا من بعيد ، من عمق أعماق الدهور السوداء ! من أقصى أقاصى الخليقة العجيبة ! آتياً من القبور، من البحار ، من عناصر الحياة جميعاً صارخاً : أيها الرجل ! لقد أذللتنى فكنت ذليلا ! حررنى لتكن حراً ، حررنى لتتحرر الإنسانية !!

# الاحسان لا يعرف
## فروق الأجناس والأديان

فى يوليو سنة ١٩١٦ أقامت جمعية « ثمرة الاتحاد » الخيرية حفلا لمساعدة اليتيمات فى دار الجمعية ، وقد ألقت « مى » الخطبة التالية فى هذا الاحتفال الخيرى . وهنا تبدو الآنسة مى على حقيقتها الأنسانية الخيرة فى الأحسان ، بغض النظر عن اختلاف الأديان

أيها السادة والسيدات !

اجتماعنا فى هذا المساء وفى هذا المكان بسمة من البسمات القليلات بين عبرات الإنسانية الكثيرات . جئنا نقول لليتيمة الفقيرة : « لست وحيدة فى العالم ، بل كلنا أهلك وذووك »

كم من صورة وجيعة ترسم هذه الكلمة البسيطة « اليتيمة الفقيرة » ! من كان يتيم الوالدين كان يتيم النفس . كل ما أوجدته الطبيعة فى قلب الآباء من عناية وحنان لا يعرفه اليتيم . فما أشقاه ، لا سيما فقيراً يذوق مع مرارة الوحدة فى الحياة مرارة ذل يرافق الفاقة ومرارة الجهاد وثقل المسئولية المضنية .

وما أحرج موقف الفتاة اليتيمة ! إن الرجل مجاهد مناضل طبيعة ووراثة ، لا يرتد أمام المسئولية ويبتهج بوحدة الرأى والاستقلال فى العمل . أما المرأة — المرأة الشرقية خصوصاً — فميالة بطبيعتها ووراثتها

إلى الانزواء والخضوع والاستكانة . فهى تتوجع بعامل الأحوال المتلاعبة بها إذا ما طلبت مكانة أوفق لذكائها ونزعاتها . فماذا نقول فيها إذا هى أرغمت على المجاهدة طلبا للرزق ، وسدا للعوز ، وبحثا عن مكان لها فى نور الشمس وسط تزاحم هذا المجتمع المتدافع المخيف ؟ كم من عبرة تذبل عينيها ، وكم من ألم يفطر قلبها ؟ وكم تذوق فى وحدتها من طعوم اليأس والهوان ، وكم تنادى الموت وتستعطفه أن يهرب بها إلى حيث لا تعانى ظلم الحياة وظلم الأحياء !

والمجتمع لا يعرف من ذلك شيئا . ولو عرف تفاصيل تلك الحياة الصغيرة الشقية لما همه أمرها . لأنه مسوق بهمومه ومطامعه ، وله من دموعه وحسراته ما يجعله فى شاغل عن دموع الآخرين .

لذلك كان المعتنون بهؤلاء الصغيرات ، العاطفون على اليتيمات عطف الآباء ، خليقين بكل تنشيط وكل ثناء . غير أن القلوب الكريمة التى تدفعها الرحمة وحب الخير إلى القيام بهذه الأعمال المشكورة لا تنتظر من الخارج تنشيطا ، لأنه يأتيها من أعماقها الطيبة . ولا هى تحتاج إلى الثناء ، لأنه ينبعث من تلك العاطفة الكبيرة التى لا اسم لها ، والتى تغمر الفؤاد بعد إتمام الواجب نحو المحتاجين من أخوانه .

أما الأحسان إلى الجميع على السواء بصرف النظر عن فروق الأجناس والأديان فهو أعلى درجات الأحسان . لأن الإنسان إن كان غريبا عن أخيه بحواجز لم يكونها — وقد لا يريدها — فهو قريب إليه بأرث البشرية الأكبر : الألم والبكاء .

قالوا إن الأشياء العظيمة تنحدر دواما من الأعالى . وما ذلك إلا

تملق للقائمين على رأس الهيئة الاجتماعية . ولكن أشياء كثيرة تتعالى آتية من العمق ، وهل من محيط أدنى مستوى وأعمق قرارا من البحر؟ والبحر مستودع اللآلىء والعجائب ، والبحر موضع الينابيع والأنهار، والبحر ينبوع أفيح تمتص منه الشمس ما تعقده فى الجو غيوما لتهطله على الأرض بركة وخيرا .

أنت يا ابنة الفاقة واليتم والألم . أنت البحر الإنسانى لأنك الأكثرية ، ولأنك من المجتمع المرتبة الدنيا . ومن أعماقك المجهولة يستخرج عطف المحسنين ذكاء وقادا ونبوغا عجيبا .

كفكفى عبراتك أيتها اليتيمة ! لقد ضاعت دموع كثيرة تسكبها الإنسانية فى الظلام تحت لواحظ الكواكب الصامته . وبدد الهواء جزافا زفرات تنبعث من أقاصى النفس كأجزاء منها . فأنت سعدت بالاهتداء إلى القلوب الشفيقة . ووجدت عند الغرباء عطفا قد يفوق عطف الأقربين .

فى ظل الجود والحنان انمى شاكرة ، يا ابنة الألم ! ثم اخرجى إلى عالم العمل والإفادة قوية جادة . والعين الأبدية التى ترى كل شىء من وراء النجوم تحصى الحسنات ، ولا تنسى لكريم ما يحمله إلى القلوب المصدوعة من المعونة والسلوى .

# وداع أستاذين

كان الأستاذان الشيخ محمد الخضرى والشيخ محمد المهدى منتدبين لتدريس التاريخ الأسلامى وتاريخ الآداب العربية بالجامعة المصرية يوم أن كانت أهلية . وقد كان أولهما مفتشا أول للغة العربية بوزارة المعارف . وثانيهما وكيلا لمدرسة القضاء الشرعى . فلما انتهى أنتدابهما فى يناير سنة ١٩١٨ أقام لهما طلبة كلية الآداب بالجامعة المصرية حفل تكريم فى فندق شبرد . وقد كانت «مى» طالبة بالجامعة المصرية القديمة وتتلمذت على الأستاذين الكبيرين ، فألقت فى الحفل الخطبة التالية :

أيها السادة :

فى أعالى الفلك صورة سماوية تدعى « الشلياق » أجمل نجومها نجم من القدر الأول اسمه « النسر الواقع » وهو درة فريدة تبهر الأبصار زرقتها اللامعة . رصده علماء الفلك فوجدوه محجة الكواكب . وجدوا أن جميع الكواكب المنظورة تندفع نحوه فى الفضاء . وهو لبعده الشاسع لا ينتهى إليه نظامنا الشمسى إلا بعد ملايين الدهور . وقالوا إن حياة ذلك النجم قد تكون انقضت ، وأن نوره قد يكون خبا منذ عصور ، ولكن ما قام بيننا وبينه من مسافة هائلة يمكننا من مشاهدة ذلك النور أحقابا طوالا .

أيها السادة :

النجم الذى لا تعرف منه الأنظار والمراصد إلا شعاعا بجهول الأمس

والغد نجد فى الأنسان قوة تمزق عن كيفية تكوينه حجبا كثيرة ، وما هى إلا تلك القوة التى تقدحها الرغبة فتنطلق باحثة بين ما يرى من العوالم وما لا يرى ، مستقرئة همس الضياء ، قائسة تموج الأثير ، متلمسة ضمير الورى ، هى مفرقة الشعوب وجامعتها التى كانت حينا بعد حين ضلالا وهدى ، وظلاما ونورا ، ووهما وحقيقة ، هى مرشدة الأمم كيف ترفع الأمم رأسها لنيل حقوقها ، ومعلمة الأفراد كيف ترقى الأفراد مطالبها لنيل بعيد الغايات . هى مدونة الأسفار ، ومبتكرة الفنون ، ومستجوبة العلوم ، وغالبة الآفاق على شموسها ، والبحار على خفاياها ، والنفوس على أسرارها . هى التى شادت ، دهرا بعد دهر ، نينوى ، وبابل ، وصور ، وأورشليم ، وأثينا ، وروما ، والأسكندرية . هى التى تعلو بالمدنيات وتهبط بالشعوب لأنها أقوى من الشعوب والمدنيات ، وهى أبدا حاضرة متنقلة فعالة كالنور لا تلمس ولا تنضب ، ولعل سرها سر النور ، وعنصرها عنصره ، ألا وهى الفكر الإنسانى .

لئن كان الفكر فى الكهولة مهيبا برصانته وقدرته فهو فى الشبيبة شيق بتردده وحميته ، لأنه قوة فى طور التكون ، فما أحوجه فى ذلك الطور إلى يد حكيمة تثقفه وتقوده وتغذيه بتلك المبادىء التى توسع الحياة وتكسبها علوا كبيرا . لذلك كان التعليم صرح المدنية ، وكانت المدارس مصابيحها ، وكان الأستاذ فيها كاهن النور ورسول العرفان ، وما التعليم سوى تصويب الفكر نحو غاية مثلى يجمع فى سيره إليها من الخبرة والمعرفة ما تؤهله لإدراكها وتقريرها ، ولا الارتقاء سوى مجموع تلك الخبرات والمعارف الطيبة نافذة ناموسا فى الجهاد اليومى والأعمال العادية .

لا يحتاج الارتقاء إلى جيوش وجحافل تدخله بين الأقوام . ولكن انشر كتابا مستحبا إلى أمة تر الدماء تهرق لحفظ كرامته ، لأنه أتاها بما لا تأتيه الحروب .

بلاد الإغريق صغيرة بمساحتها ، ولكنها كبيرة بإشراق نورها على بني الإنسان . روما مدينة ليس إلا ؛ ولكن هذه المدينة تملأ العالم. إذا ذكر الأنجيل انحنت الرءوس إجلالا ، وتجمهرت النفوس حبا حول السيد المسيح أستاذ الرحمة والغفران ، وكفى التلفظ باسم القرآن لتهتز القلوب طربا على وفق الآيات والأسجاع مرتلة مع السور اسم النبي العربي.

أيها الأستاذان الجليلان !

سنوات مررن وأنتما تثقفان من شبيبة وطنكما الفكر والخلق ، وتفيضان عليها ما حواه صدركما الرحب من بلاغة الكتاب العزيز وعلوم لغته الشريفة ، بحث الأستاذ الشيخ المهدي في آداب العرب ، ففتح أمامنا تلك الكنوز الثمينة ، وأعلمنا أن العربي ذو استعداد أدبي وعلمي كبير . فوجدنا سائق الأظعان نظاما إن لم نجده شاعرا ، ووجدنا الراعي عالما بالهيئة السماوية ودورة الكواكب ، وخلنا المستعطي العافي فيلسوفا حكيما ، وسمعنا قائد الجيش خطيبا ، وإذ رأينا فتاة العرب تبكي إذا بدموعها درر ترصع الأوزان ، فهبطنا إلى نفسنا فإذا هي قيثارة تئن شجنا كلما نقرت على أوتارها يد الفن ويد الألم .

واستخرج الأستاذ الشيخ الخضري « بك » تاريخ الأمم الإسلامية من مخابئه ، فسيّر أمامنا مواكب دول الفتوح منطلقــــة لاجتياح

ما استطاعت من القارات الثلاث ، تحمل إليها مدنيتها ، مشيدة فيها معاهد التأديب ، مقيمة بنايات العلم ، رافعة بيوت الصناعة ، ضاربة للعدل رواقه وممددة للأمن أطنابه .

يوم كانت همتها القعساء تستثير شجاعة الشجعان ، مندفعة نحو قصى الربوع كالسيل الجارف ، إن اعترضها فى اندفاعها حصون نشرت عليها أعلامها ، أعلام الفخر ، أو قام فى سبيلها عواصم طوقتها حصارا مرددة أهازيج النصر . ونفوسنا لدى مشاهد العظمة العربية إنما تنقلب قواها تحفزا وحماسا شديدا .

أيها الأستاذان الكريمان !

لكما عندنا كلمتان : كلمة شكر وكلمة أسف ، أما كلمة الشكر فنحتفظ بها فى سويداوات القلوب ، لا تمحى حروفها ولا يحفل معناها ، بل تظل نامية لنودعها حية صدر أجيال مقبلة . وأما كلمة الأسف فلا نفوه بها ، لأنه وإن خسرتكما جامعتنا المصرية فأنتما على الدوام ربح شبيبة تستظل بجاهكما ، مستوثقة بعهود لاتخان . وحياتكما الثمينة التى وقفتماها على خدمة العلم مستودع فضل عميم سوف نغترف منه طويلا إن شاء الله .

ولكننا نقول كلمة ثالثة هى هذه : ألقيا نظرة على الماضى تريا سهلا يموج فيه نضار حصاد أوجدته أياديكما ، وانظرا إلى المستقبل تبصرا مروجا فسيحة تنتظر منكما بذور العرفان ، لتنمو لمصر حصاداً عسجدياً .

عاش الأستاذان الجليلان !

# الإخاء

أقامت إحدى الجمعيات الخيرية في القاهرة حفلا في ٣ مارس سنة ١٩١٨ للمعاونة على مشروعاتها الخيرية ودعيت الآنسة « مي » لإلقاء كلمة في هذا الحفل ، فكانت خطبة نقتطف منها ما يأتي :

إن كلمة الأخاء التي ينادي بها دعاة الإنسانية في عصرنا ليست ابنة اليوم فحسب ، بل هي ابنة جميع العصور . وقد برزت إلى الوجود منذ شعر الإنسان بأن بينه وبين الآخرين اشتراكا في فكرة أو عاطفة أو منفعة ، وبأنهم يشبهونه رغبات واحتياجات وميولا . يجب أن يتألم المرء ليدرك عذوبة الحنان . يجب أن يحتاج إلى الآخرين ليعلم كم يحتاج غيره إليه . يجب أن يرى حقوقه مهضومة يزدرى بها ، ليفهم أن حقوق الغير مقدسة يجب احترامها . يجب أن يرى نفسه وحيداً ، ملتاعاً ، دامي الجراح ليعرف نفسه أولا ، ثم ليعرف غيره ، فيستخرج من هذا التعارف العميق معنى التعاون والتعاضد . كذلك ارتقى معنى الأخاء بارتقاء الإنسان .

في جمعيات سرية وعلنية ، في جمعيات علمية وفلسفية ودينية وروحانية استعملت كلمة الأخاء بين الأنسان والأنسان قروناً طوالا ، حتى جاءت الثورة الفرنساوية تهدم أسوار العبودية بهدم جدران الباستيل ، وتعلن حقوق الإنسان ، مستخلصة من بين الأخربة والدماء والجماجم كلمات ثلاثا هن شعار العالم الراقي : حرية ، مساواة ، إخاء .

حرية ، مساواة : كلمتان جميلتان يخفق لهما قلب كل محب للإنسانية

لكن — لابد لكل شيء من لكن — هل كان تحقيقها فى استطاعة البشر ؟ ما أضيق معنى الحرية إذا ذكرنا أن مجموعة الكائنات تكون وحدة العالم ، وأن على كل منها أن يصل إلى درجة معينة من النمو مشتركا مع بقية الكائنات فى إكمال النظام الشامل . وفى وسط هذا النظام القاهر نرى الإنسان وحده متصرفاً فى أفعاله بشرط أن يخضع للقوانين المحيطة به والنافذة فيه . هو حر بشرط أن تنتهى حريته حيث تبتدىء حرية جاره ،وبشرط أن يعلم أنه حيثما وجه أنظاره وأفكاره وجد نظاما معينا، وأن حريته ، كل حريته،قائمة فى اختيار السير مع ذلك النظام أو ضده ، واستعماله للخير أو الشر ، للربح أو الخسران . فما أكثرها شروطا تقيد هذه الحرية التى تندك لأجلها العروش ، وتتطاحن الأمم للحصول عليها !

أما المساواة فحلم جميل ليس غير ، لأن الطبيعة فى نشوئها التدريجى لا تعرف إلا الاختلاف والتفاوت . أين المساواة بين النشيط من البشر والكسول ، بين صحيح البنية والعليل وراثة ، بين الذكى وغير الذكى ، بين الصالح والشرير ؟ كلا ليست المساواة بالأمر الميسور ، بل هى معاكسة لنظام حيوى إذا غولب كان غالبا قاهراً .

كلمة واحدة تجمع بين حروفها الحرية والمساواة وجميع المعانى السامية والعواطف الشريفة.كلمة واحدة تدل على أن البشر إذا اختلفوا فى بشريتهم اختلافا مبينا فهم واحد فى الجوهر ، واحـــد فى البداية والنهاية .

كلمة واحدة هى بلسم القروح الاجتماعية ، ودواء العلل الانسانية ، وتلك الكلمة هى الإخاء .

لو أدرك البشر أخوتهم لما رأينا الشعوب مشتبكات بحروب هائلة صرعت فيها زهرة الشبيبة ، ومازالت الدماء جارية فى القارات الأربع وما يظللها من سماء ، ويتخللها من ماء . لو أدرك البشر أخوتهم لما وجدنا فى التاريخ بقعا سوداء تقف عندها نفوسنا حيارى . لوأدرك البشر أخوتهم لما رأينا المطامع تدفع الأمم القوية إلى استعباد الأمم الضعيفة . لوأدرك البشر أخوتهم لما سمعنا فى اجتماعاتنا كلمات جارحات يجازف بها كل فى حق أخيه، وهى من أركان أحاديث صالوناتنا الجميلة. ولكن لننزلن قليلا إلى ما هو تحت السياسة والتاريخ والصالونات . لننزلن إلى مهبط الشعب ، حيث الشقاء مخيم واليأس مستديم .

ما أوجع منظر اليدالممتدة للاستعطاء ! إنه يدل على احتياج الجسم إلى القوت ، ويدل خصوصا على جوع النفس وفقدانها لتلك الأفكار التى تعلى المرء فى عين نفسه ، ولتلك العواطف التى تجعله شاعرا بأنه جزء مهم من هذا العالم البديع . عواطف نبيلة ، وأفكار عظيمة ، لكنها تذبل تحت ضغط الحاجة المتتابع ، وتتلاشى مع استمرار الفاقة والذل والانكسار .

إلىأين تذهبون أيها السائرون فىمركباتكم الفاخرة؟ إلىأين تسيرون أيها الضاحكون ؟ تتكلمون عن جمال الحياة وعظمة الكون اوتذكرون بسمات الربيع وإخلاص الأصدقاء . أما تلك النفوس الشقية فلا تدرى من ذلك شيئا ؛ ماالإنسان فى شرعها إلا عدولدود،وما الحياة إلا يرسر الغموم ومستودع البلايا . أنتم السعداء تستسلمون لعذوبة الحب وطهر الولاء، وهم البؤساء يطوون على الحقد أحناء صدورهم ويكظمون حقداً تذكر جمرته مع الأيام

وفى هذه الطبقة الجائعة الذليلة الدائمة الانفعال تكونت بذور ثورات هائلة نمت فاتسعت فزلزلت الممالك زلزالا .

غير أن فئة من هذه الطبقة لا تعرف تمرداً ولا تكظم حقداً ، وهى أوجع فئة لأنها تتألم صامتة . ولا ترجو راحة وسلاماً إلا من الموت .

وإذا ظننتم أنى أتكلم كشاعر يهيم فى أودية الخيال فهاكم حقائق ملموسة : منذ أشهر قليلة انتحر شاب فى الثامنة والعشرين من سنيه . كان له أم جائعة ، وكانت أبواب الرزق مقفلة فى وجهه فألقى بنفسه فى النيل تخلصا من الحياة . بعد ذلك بأسابيع قليلة مات شيخ فى الثمانين من عمره كان يستعطى على مقربة من جسر بولاق ، وقد أسفر التحقيق بعد موته عن أنه لم يتناول قوتا منذ خمسة أيام . فى أواخر الصيف الماضى وجد بوليس الأسكندرية أربعة أيتام بلا مأوى . سار بهم إلى المعاهد الخيرية لكن معاهد البر حددت عدد من تقبلهم فى هذه الأعوام بحكم الظروف الاقتصادية ، فعاد البوليس بالأطفال إلى القسم حيث جلسوا يبكون ، ولما سئلوا عما يحزنهم أجابوا أنهم لم يأكلوا منذ ماتت أمهم ، أى منذ ثلاثة أيام .

إنى أتذرع بصوت هؤلاء البائسين ودموعهم لأصرخ أن مثل هذه الفواجع يجب أن لا يكون . ولأقول أن الاجتماع بأسره مسئول أمام ضميره عن إهماله وقسوته . وأنه ما دام فى وسطه شهيد واحد من هؤلاء الشهداء فهو قاتل جان . فالاجتماع جسم واحد سواء شاء الأفراد أم لم يشاءوا . والبشر على اختلاف طبقاتهم أسرة كبيرة واحدة . تلك سلسلة

قيدتنا بها يد الله ، فمن حاول كسر حلقة من تلك السلسلة جرح نفسه وكان لغيره مؤذيا .

ليس من عار أن يكون المرء عليلا فى أسرته ، أو ضعيفا بين إخوانه ، بل هناك امتياز يجعل الضعيف ، أو الحقير ، أو الجائع محبوبا أكثر من غيره ، لأنه يحرك العطف والحنان فى القلوب المتحجرة ، وينبه السعيد من إخوانه إلى واجبه نحو المحروم من نعيم الحياة .

من المفكرين من يقول بإمكان حذف الفقر وملاشاة الألم . لكن ذلك مستحيل وسيظل الفقر موجودا ما دام أحد الناس أوسع ثروة من غيره فكان الآخرون فقراء بالنسبة إليه . ثم أن الفقر النسبى عرلازم إلى الغنى ، وهو منبه للذكاء ، مهيج للرغائب ، تحتدم فيه نار قوى عديدة طالما أطفأت جذوتها عيشة الرغد والهناء . أما الألم فناموس قهار ، وهو المهذب الأكبر الذى يعلمنا دروس الحياة كلمة فكلمة . هو النار المطهرة النفس من كل غش وفساد ، حتى تتركها جوهرة لامعة . هو دافع بالمرء إلى داخل نفسه حيث يجد قوته واقتداره ، ويتعلم الرحمة والإشفاق . لأن الذى لم ير دموعه هاطلة على أرض صماء ، ولم يشعر بأن دماء قلبه تسيل نقطة بعد أخرى ، ولم يبصر حجاب اليأس مسدولا بينه و بين البشر ، ذاك الذى لم يتوجع باحتياجه إلى التعزية كيف يمكنه أن يشفق ويرحم؟ كيف يدخل إلى قلوب الغير ويلس موضع اللوعة منها ؟ نعم ! الفقر والألم ضروريان للحياة . ولكنى أقول بإمكان استئصال الفاقة . فالفاقة مرض اجتماعى ، وكما تلاشى المرض من جسم الإنسان يجب أن تتلاشى الفاقة من جسم المجتمع ، ولا يتم ذلك إلا إذا ترابطت منا الأقلية القادرة

العاملة . لا يتم ذلك حتى يذكر الأقوياء أنهم إخوة الضعفاء ، فينحنون على نفوس محزونة تضج بالأسى ضجيجا ، ويرفعونها إلى مستوى يتعاضد فيه الجميع ويتساندون . لا يتم ذلك حتى يصير ناموس تنـــــازع البقاء السائد فى عالم الحيـوان ناموس التعاون على حب الحياة السائد فى عالم الإنسان .

ما هو النهر أيها السادة والسيدات ؟ وهل يكون نهرا إذا هو انبثق من مصدره وانصب فى البحر دفعة واحدة ؟ إنما يتفجر ينبوع النهر فى أعالى الجبال فيهرول مقهقـها على الصخور ، حتى إذا ما حشر وسط الشواجن الخضراء ملأ الوادى ألحانا وأنغاما . يجرى فى الصحارى والقفار فتنقلب القفار والصحارى مروجا خصيبة وجنات زاهرة . يسير فى البادية والحضر على السواء ، فيروى سكان المدينـة وأهل القرية بلا تفريق بين الشريف والحقير . يرضع الأشجار بتغلغله فى صدر الأرض الملتهب ، ويغذى الأثمار والنبات ناظما لآلىء فى ثغور الورود . وكلما وزع من مياهه زادت مياهه اتساعا وتدفقاً ، فيتابع السير بعقيقه الفخم واسع العظمة ، رحب الجلال ، حتى إذا ماجلب النفع على الكائنات ، وملأ الديار خيرا وثروة وجمالا ، رأى البحر منبسطا لاحتضانه فشهق الشهيق الأخير ، وانصب فى صـدر البحر مهللا مكبرا . كذلك عاطفة الأخوة لا تـكون أخوة حقيقية إلا إذا خرجت من حيز الشعور إلى حيز العمل . تتفجر عذوبتها على ذرا الاجتماع ، وتجرى نهرا كريما بين طبقات المجتمع ، فتلقى بين المتناظرين سلاما ، وبين المتدينين تساهلا ، وتنقش محامد الناس على النحاس ، أما العيوب فتخطها على صفحة الماء . تساعد

المحتاج ما استطاعت . بلا تفريق بين المحمدى والعيسوى والموسوى والدهرى . ترفع المسكين من بؤس الفاقة ، وتنشر على الجاهل أشعة العلم والعرفان ، وتفتح أبواب الرجاء لعيون أظلمتها أحزان الليالى . فكم من درة فى أعماق البحر لم تسر بها النواظر لأن يد الغواص لم تصل إليها ، وكم من زهرة نورت فى القفر ، فتبدد عطرها جزافا فى الهواء ، إنما الإخاء يزيح بيده الشفيقة الشوك عن الزهرة المتروكة ، ويرفع لها جدرانا تقيها ريح السموم الفتاك . هو العين المحبة التى ينفذ نظرها إلى أعماق النفس فترى أوجاعها . وهو الهمة العاملة لخير الجميع بثقة وسرور ، لأنه القلب الرحيم الخافق مع قلب الإنسانية الواجف .

الإخاء ! لو كان لى ألف لسان لما عييت من ترديد هذه الكلمة التى تغنت بها الضمائر الحرة ، وانفتحت لها قلوب المخلصين . هى أبدع كلمة وجدت فى معاجم اللغات ، وأعذب لفظة تحركت بها شفاه البشر .

هو اللين والرفق والسماح ، كما أنه الحلم والحكمة والسلام .

لو كان لى ألف لسان لظللت أنادى بها « الإخاء ! الإخاء ! » حتى تجبر القلوب الكسيرة ، حتى تجف الدموع فى العيون الباكية ، حتى يصير الذليل عزيزا ، حتى يختلط رنين الأجراس بنغمات المؤذنين ، فتصعد نحو الآفاق أصوات الحب الأخوى الدائم .

# الفهرس

صفحة

هذا الكتاب . . . . . . . . . ٣

## دراسات وملامح

صورة خاطفة . . . . . . . . . ٩
ملامح من صورة . . . . . . . . . ١١
من مارى إلى مى . . . . . . . . . ١٥
مى بنت الطبيعة . . . . . . . . . ٢٣
مى بين الأحزان والأفراح . . . . . . ٣١
غروب شمس : مى فى محنتها . . . . . . ٤١
مى الشرقيــة . . . . . . . . . ٥١
مى والفكرة العالمية . . . . . . . . ٦١
مى والأديان . . . . . . . . . ٦٧
مى واللغة العربيــة . . . . . . . . ٧٣
أسلوب مى . . . . . . . . . ٨١
مى حين تتهكم . . . . . . . . . ٨٩
مى على أعواد المنابر: موضوعات الخطابة عند مى، مى فى محاضراتها ٩٥ — ١٠٣
مى الشاعرة . . . . . . . . . ١٠٥
مى والموسيقى . . . . . . . . . ١١١
دور مى فى النهضة النسائية . . . . . . ١١٥
مى الكاتبة . . . . . . . . . ١٢٧

صفحة

منتدى مى : الصالون . . . . . . . . ١٣٣

مى بين الكتب . . . . . . . . ١٣٩

الشعر فى رثاء مى . . . . . . . . ١٤٥

## أحاديث عن مى

الشيخ مصطفى عبد الرازق . . . . . . . ١٥٤

هدى شعراوى . . . . . . . . ١٦٣

الدكتور طه حسين . . . . . . . . ١٧٣

عباس محمود العقاد . . . . . . . . ١٨٣

السيدة أيمى خير . . . . . . . . ١٩٣

أنطون الجميل . . . . . . . . ٢٠٣

الدكتور منصور فهمى . . . . . . . ٢١٤

إبراهيم عبد القادر المازنى . . . . . . . ٢٢٨

خليل مطران . . . . . . . . ٢٣٧

## منتخبات من مى

الرسائل . . . . . . . . .

إلى جبران خليل جبران . . . . . . . . ٢٤٥

» » » . . . . . . . . ٢٤٧

» » » . . . . . . . . ٢٤٩

» » » . . . . . . . . ٢٥٠

إلى أمين الريحانى . . . . . . . . ٢٥١

صفحة

إلى أمين الريحانى أيضاً . . . . . . . ٢٥٥
إلى مصطفى صادق الرافعى . . . . . . ٢٥٨
إلى أحمد لطفى السيد . . . . . . . ٢٥٩

المقالات

الساعة المفقودة . . . . . . . . ٢٦٥
بكاء الطفل . . . . . . . . ٢٦٩
كن سعيداً . . . . . . . . ٢٧١
دمعة على المفرد الصامت . . . . . . ٢٧٧
العيون . . . . . . . . . ٢٨٢
قتل النفوس . . . . . . . . ٢٨٥
وصف غرفة فى مكتبة . . . . . . . ٢٩١
عام سعيد . . . . . . . . . ٢٩٩

الخطب

حفلة الكوخ الأخضر . . . . . . . ٣٠٥
المرأة والتمدن . . . . . . . . ٣٠٨
الاحسان لا يعرف فروق الأجناس والأديان . . ٣١٩
وداع أستاذين : الشيخ محمد المهدى والشيخ محمد الخضرى ٣٢٢
الأخاء . . . . . . . . . ٣٢٦
من أقول الأدباء فى كتاب « حياة مى » . . . ٣٣٧

# من أقوال الأدباء والمفكرين
# فى كتاب «حياة مى»

- « والخلاصة فإنك لاتفرغ من قراءة « حياة مى » إلا امتثلتها نصب عينيك فى مجامع نواحيها »

**شفيق جبرى**

مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ــ آذار سنة ١٩٤٢

- « والحق يقال إن المؤلف فى تأليفه هذا أسدى للامة العربية خدمة لا تعادلها خدمة ، إذ خلد ذكر «مى» فى كتاب ، ولا أشك بأن المعجبين بمى وحاملى رسالتها يقبلون كل الإقبال على اقتناء هذا الكتاب الفريد فى بابه »

**أحمد عارف الزين**

صاحب مجلة « العرفان » ومحررها بصيدا

العددان ١ ، ٢ من مجلة العرفان سنة ١٩٤٢

- « كتاب حياة مى قنية ثمينة » .

**جريدة البصير**

١٥ يناير سنة ١٩٤٢

- « . . . كل ذلك فى أسلوب أنيق ، وتعبير رشيق ، فجاءت هذه المجموعة الطريفة صورة للفقيدة من شتى النواحى والاتجاهات ، وتسجيلا لمظاهر كثيرة من الأدب العصرى »

**الناقد الأدبى لصحيفة الاهرام**

٢٨ يناير سنة ١٩٤٢

- « هذه رسالة نفيسة وضعها حضرة الأديب الأستاذ محمد عبد الغنى حسن ضمنها سيرة الكاتبة والشاعرة الكبيرة . . . »

**المقطم**

٦ فبراير سنة ١٩٤٢

● « لقد جنيت من هذا الكتاب ثمرا حلوا ، وظفرت منه بمتاع قيم ، ووجدت فيه لنفسي غذاء ، كما جدت عن نفسي ترويحا ... وأحب أن يشاركني القراء هذه المتعة القوية ، فالكتاب مشوق جذاب ، بموضوعه وطريقة أسلوبه »

صبحي العجيلي

مجلة « الرسالة » المصرية ، ومجلة « الكلمة » الحلبية

● درس الأستاذ عبد الغني في هذا الكتاب أدب الفقيدة النابغة وحياتها دراسة عميقة شاملة »

مجلة الصباح الدمشقية

٩ شباط « فبراير » سنة ١٩٤٢

● « بينما لقد خيل إلى وأنا أطالع كتاب حياة مي للأديب الشاعر الأستاذ محمد عبد الغني حسن كأني أطالع نشيد الأناشيد لسليمان الحكيم عليه السلام ، في طلاوته وسلاسة ألفاظه ، وخفة ظله ، ورشاقة معانيه . . . »

الدكتور شخاشيري

صحيفة المقطم — ٣١ يناير سنة ١٩٤٢

● « جاء هذا الكتاب خير تأبين لمي وذكرى دائمة لنبوغها ، ففيه تفكير وتقدير وإنصاف للموتى من الأحياء لا يقل عن إنصاف شوقي لحافظ في رثائه له ... »

نجيب شاهين

المقطم — ٢٢ فبراير سنة ١٩٤٢

● « وقد زاد هذه الأحاديث قيمة أيضاً المقدمات الطريفة التي كتبها الأستاذ محمد عبد الغني حسن عن الأدباء الذين أدلوا برأيهم عن مي ، فهي من الدقة والتصوير لنزعات الأدباء المعاصرين وميولهم الفكرية بمكان عظيم »

مجلة الحديث

حلب سنة ١٩٤٢






شيم غر رضيات عذاب ... وحجى ينفذ بالرأى الصواب
وذكاء ألمعى كالشهاب ... وجمال قدسى لا يعاب
كل هـذا فى التراب
آه من هـذا التراب

**عباس محمود العقاد**

* * *

أيهذا الثرى ظفرت بحسن ... كان بالطهر والعفاف مصونا
لهف نفسى على حجى عبقرى ... كان ذخرا فصار كنزا دفينا

**شاعر الاقطار العربية**
**خليل مطران**

* * *

« ان أكثركم قد رآها فى هالة من اضواء الشهرة ، يتوجها اكليل من المجد ، وتضج حولها صيحات الهتاف ، فهل منكم من غالب الاضواء فرأى فى أهاب الكاتبة الشهيرة ، الانسانة التى تتوجع وتتألم وتتلوى ، والناس من حولها يهتفون لها .. ؟؟ »

**الدكتورة بنت الشاطىء**